
المركز القومى للترجمة
إليا إهرنبورج
ذوبان الثلوج
ترجمة
سعد زهران
ميراث الترجمة
1842



كانت "ذوبان الثلوج" هى الصوت الوحيد الذى مزق به إهرنبورج جو الصمت الحذر الذى ساد الاتحاد السوفيتى بين وفاة ستالين وانعقاد المؤتمر العشرين.

كتب إهرنبورج هذه الرواية فى عام ١٩٥٤، قبل عامين من انعقاد المؤتمر، فأحدث نشرها دويا هائلا داخل الاتحاد السوفيتى وخارجه، إذ اعتبرت من أهم الوثائق التى تبرز مساوئ عهد ستالين وتدينها فى عمق وجسارة.

وليست "ذوبان الثلوج" مجرد وثيقة سياسية واجتماعية، لكنها عمل فنى متكامل، ينبض بالتقاليد العريقة للأدب الروسى التقليدى، وأدب ديستوفسكى وتشيكوف وتولوستوى، الذى يعرض مأساة الإنسان، وبحثه الأزلى الأبدى عن حقيقة نفسه، وحقيقة العالم.

ذوبان الثلوج

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة : مصطفى لبيب

- العدد: 1842
- ذوبان الثلوج
- إليا إهرنبورج
- سعد زهران
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

ذوبان الثلوج

سعد زهران

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤-٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

ذوبان الثلوج

تأليف: إليا إهرنبورج

ترجمة: سعد زهران



2011

إمرنبورج، إليا.

ذوبان الثلوج/ تأليف: إليـا إمـرنبـورج؛ ترجـمـة: سعد زهـران. ـ القـاهـرة : الهـيئة المصـرية العـامة للكتاب،٢٠١١.

٢٤٤ص ؛ ٢٠سم. ـ (المركز القومى للترجمة)

تدمك ١ ٩٥٦ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الروسية.

أ ـ زهران، سعد. (مترجم)

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٠١١/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 956 - 1

ديوى ٨٩١,٧٣

١

كانت أمينة المكتبة منفعلة، وانزلقت نظارتها على أنفها، وتراقصت خصلات شعرها الفضية فوق رأسها وأعلنت: «الرفيق برينين مدعوّ للكلام الآن، وسيتحدث بعده الرفيق كوروتييف».

رفع «ديمترى كوروتييف» حاجبيه الداكنين الرفيعين قليلا فى دهشة، وقد أدرك أن عليه أن يتحدث فى اجتماع القرَّاء، لقد طلبت إليه أمينة المكتبة ذلك قبل الاجتماع بمدة، ووافق.

كان جميع من فى المصنع يعاملون كوروتييف باحترام، ومنذ قليل، اعترف المدير، إيفان جورافليوف، فى حديث مع سكرتير لجنة الحزب فى المدينة، أنه لولا كوروتييف لتأخر وصول آلات القطع الدقيقة إلى الربع التالى من العام، ولم يكن مبعث هذا التقدير أن ديمترى كان مهندسًا لامعًا فحسب، ولكنه كان يؤثر فى الناس أيضًا بدراساته متعددة الجوانب، وذكائه، وتواضعه، حتى كبير المصممين، سوكولوفسكى، المعروف بلسانه اللاذع، لم تصدر عنه كلمة فى حقه، أما عن أمينة المكتبة التى أجرت مناقشة معه حول الأدب، فقد

قالت للجميع: «إن له إحساسًا فريدًا بأعمال تشيكوف»، وكان طبيعيًا أن اجتماع القراء، وقد أجهدت نفسها فى الإعداد له شهرًا، كتلميذة تستعد لامتحان عسير، ما كان لينعقد دون حضوره.

بسط المهندس برينين كومة من الأوراق أمامه، على المنضدة، وراح يتكلم بسرعة كمن يخاف ألا يتسع الوقت أمامه، ويتلعثم تلعثمًا مضنيًا وهو يضع نظارته على أنفه وينقب بين ملاحظاته المدونة:

«على الرغم من الشوائب التى أشار إليها، بحق، من سبقونى فى الحديث، فإن للرواية - إن صح التعبير - مغزى ثقافيًا عظيمًا، لماذا فشل المهندس الزراعى، زوتوف، فى مشروعه لزراعة الغابات؟ إن المؤلف - إن صح التعبير - وضع المشكلة وضعها السليم: كان زوتوف يقلل من أهمية النقد والنقد الذاتى، بديهى أن المهندس الزراعى كان بوسعه أن يلجأ إلى معونة شبالين، سكرتير التنظيم الحزبى،ولكن المؤلف بيَّن بوضوح نتائج إغفال مبدأ القيادة الجماعية، ولو أن المؤلف أخذ الانتقادات التى وجهت إليه فى الاعتبار، وأجرى تعديلات فى بعض الوقائع العارضة، لتمكنت الرواية - إن صح التعبير - من الدخول ضمن الرصيد الذهبى لأعمالنا الأدبية.»

كان النادى مكتظا بالحاضرين، ولقد ظل كثيرون واقفين فى الممرات، وعند الأبواب، فالكتاب موضوع المناقشة كان قد أثار ضجة، وهو رواية كتبها مؤلف شاب ونشرت محليا، غير أن المستمعين أرهقتهم نبذ برينين الطويلة، واستخدامه المتكرر لعبارة

«إن صح التعبير»، وصوته البيروقراطى الكئيب، ولكن الوجوه كلها تهللت عندما أعلنت أمينة المكتبة:

«الرفيق كوروتييف مدعو للكلام الآن، وستتحدث بعده الزميلة ستولياروفا.»

كان حديث كوروتييف جيداً، والحاضرون ينصتون باهتمام. ولكن أمينة المكتبة تجهمت، فما هكذا سمعته يتحدث عن تشيكوف. لماذا يهاجم زوتوف؟ تستطيع أن تتبين أنه لم يكن يميل للرواية، ومع ذلك فهو يطريها، إن شبالين السكرتير المخدوع، وفيدوروفا الشابة الشيوعية المخلصة كانا شخصيتين واقعيتين، كما أن زوتوف نفسه كان مليئًا بالحيوية.

أقول صراحة إن الشيء الذى لم يعجبنى على الإطلاق هو كشف المؤلف عن الحياة الخاصة لبطله، وبداءة، فإن الواقعة التى يوردها بعيدة الاحتمال، وهى ليست نمطية على الإطلاق، هل تتصور حقًا أن المهندس الزراعي، وهو رجل شريف وإن يكن يبالغ فى الثقة بنفسه، يمكن أن يقع فى حب زوجة زميله، وهى ليست إلا لعوبًا فارغة الذهن، ولا توجد بينهما أية مشاركة روحية؟ يبدو لى أن المؤلف هنا كان يجرى وراء الإثارة الرخيصة، والمؤكد أن شعبنا السوفييتى أكثر استقامة وشعورًا بالمسئولية من الصورة التى يقدمها المؤلف، إن هذه الواقعة الغرامية يمكن أن تكون قد أخذت بنصها من صفحات إحدى الروايات البرجوازية.»

واستقبل حديث كوروتييف بالتصفيق الحاد الطويل، كان البعض معجبًا بخفة روحه، حيث تكلم بأسلوب لاذع عن الكتاب الشبان الذين يكلفون بكتابة عمل خلاَّق، فيصلون إلى المكان المعين، ويسحبون مفكراتهم، ويستجوبون باختصار حفنة من المواطنين، ثم يعلنون أنهم «جمعوا مادة كافية لرواية.» والبعض الآخر أرضى المتحدث غرورهم بفكرة أنهم أرقى من بطل الرواية، وثمة آخرون صفقوا لمجرد أن كوروتييف كان «شخصًا بارعًا.»

قال المدير جورافليوف لأمينة المكتبة بصوت مسموع، وكان جالسًا على منصة الرئاسة: «لقد أعطاه علقة ساخنة لاشك فى ذلك.» ولكن أمينة المكتبة لم تعلق بشىء.

ربما كانت لينا، زوجة جورافليوف المدرسة، هى الوحيدة التى لم تصفق، وتنهد زوجها: «لابد أن تكون لينا منحرفة المزاج»

كان ديمترى كوروتييف قد جلس، وقد أخذت تدور فى ذهنه أفكار مختلطة: «لابد أنني مصاب بالأنفلونزا. شيء مزعج... ومعي مشروع برينين... كان يجب ألاَّ أتكلم، لم أفعل سوى أنى أطعمتهم الصيغ التافهة المعادة.» كان رأسه مصدعًا، وجو الغرفة خانقًا.

لم يكن ينصت إلى «كاتيا ستولياروفا.» وجفل عندما سمع التصفيق الذى قاطع حديثها، إنه يعرف كاتيا من المصنع، فتاة مرحة، ذات بشرة بيضاء وشعر أصفر باهت، وحاجبين ممسوحين، ووجهها عليه تعبير دائم عن حيرة من الحياة ممزوجة بالسرور، وأجبر ديمترى نفسه على الإنصات:

«أنا لا أتفق مع الرفيق كوروتييف، ولا أدعى أن الرواية من النوع التقليدى، إنها ليست أنا كارنينا، ولكنها تثير الاهتمام، ولا أتبين أية علاقة بينها وبين الروايات البرجوازية، وفكرتى هى أن للإنسان قلبًا، ومن ثم فهو يعانى. فأى خطأ فى ذلك؟ وأقول صراحة إننى شخصيًا مررت بلحظات مشابهة فى حياتى.. إن الكتاب يأسر القارئ،وإن طرحه جانبا أمر لا يفيد فى شىء.»

وفكر ديمترى: «من كان يتصور أن كاتيا الصغيرة الضحوك فى وقتها متسع للمآسى. «للإنسان قلب»، وفجأة توقف عن الإنصات، وتوقف عن رؤية الغرفة، وأمينة المكتبة، والكتب، وشجرة النخيل الشائكة الداكنة الموضوعة، فى أصيص تحت النافذة، وشخص ببصره إلى لينا، وقد اهتاجت فى داخله كل عذابات الشهور الماضية، لم تنظر إليه لينا ولا مرة واحدة، كان يتوق أن تلتقى عيناه بنظراتها، ولكنه كان يخشاها. هكذا انتهت الأمور بينهما هذه الأيام، أما فى الصيف الماضى، فكانا يتبادلان الأحاديث والنكات والمناقشات بانطلاق، ودون تحفظ، كان يزور أسرة جورافليوف كثيرًا، ولم يكن فى أعماقه، ميالا لزوجها «إيفان»، إذ كان يراه مجاملا أكثر مما يجب، وإنما كان يزورهم لأنه يرى الحديث مع لينا ممتعًا، كانت ذكية، ووجدها ديمترى مختلفة عما كانت عليه حين قابلها فى موسكو، من الطبيعى أن تكون الضجة هنا، فى هذه المدينة البعيدة عن العاصمة، أقل منها فى موسكو، وأن يتوافر للناس متسع أكبر من الوقت للقراءة والتفكير، ولكن لينا، فى هذا الجو، كانت متميزة، يمكنك أن تحس بأنها شخصية ذات أعماق، بل

كان من الصعب أن تفهم كيف يمكنها أن تعيش مع جورافليوف. ومع ذلك، فالظاهر أن العلاقات بينهما طيبة، وعندهما طفلة فى الخامسة من عمرها.

فى تلك الأيام، كان ديمترى يرى فى عينى لينا متعة وسلامًا. وذات مرة قال له سافشنكو، وهو مهندس شاب: إنها رائعة الجمال فهز ديمتري رأسه وقال: «لا، ولكن لها وجهًا لا ينسى». كان شعرها ذا خصلات ذهبية يحيلها ضوء الشمس إلى اللون الأحمر، وعيناها خضراوين تفلت نظراتهما من نظرات الآخرين، مثيرة للغيظ حينًا، وللأسى أحيانًا، ولكنها تستعصى على الفهم غالبًا، كان يحس بها أحيانًا، ولكن، إن هى إلا لحظة حتى تختفى، يمسك بها وتضيع منه بين ما يتسرب إلى داخل البيت من خيوط الشمس المائلة المعفرة.

فكر ديمترى: «كم كانت أيامًا جميلة» وخرج إلى الشارع «هو و. يالها من عاصفة ثلجية هوجاء!» هذا، بينما كان الجو هادئًا لطيفًا منذ قليل، وهو فى طريقه إلى النادى، قبل اجتماع القراء.

سار، نصف يقظان، وقد خلا فكره تمامًا من أى شىء عن اجتماع القراء، أو عن الخطاب الذى ألقاه فيه، وازدحم ذهنه بأفكار عن لينا، وعن الدمار الذى أصاب حياته، والأحلام المحمومة للأسابيع الأخيرة، والإحساس بالعجز، الذى لم يشعر بمثله من قبل، كان أصدقاؤه ينظرون إليه إنسان محظوظا تسير كل أموره على ما يرام. والحق أنه حظى فى أثناء العامين الأخيرين، باعتراف من الجميع بمكانته، ولكن كانت هناك سنوات أخرى قبلهما، كان فى

الخامسة والثلاثين من عمره، ولم تكن ظروف الحياة قد دللته فى غالب الأحيان، كان عليه أن يناضل، كانت له إرادة قوية يمكن أن تلمحها فى وجهه الجاف المستطيل، وجبهته البارزة المستديرة، وعينيه الرماديتين بنظراتهما الباردة أو المتلطفة، والخطوط الصارمة حول فمه.

كان ديمترى فى الصف العاشر فى المدرسة عندما واجه أول محنة كبيرة فى حياته، فى خريف ١٩٣٦ اعتقل زوج أمه، وفى صباح اليوم التالى رأى خارج المنزل ميشا جريبوف، أعز أصدقائه، فناداه ليبثه همومه ويسأله النصيحة. ولكن ميشا تجهم، وزمَّ شفتيه، وعبر الشارع إلى الجانب الآخر دون أن ينبس بكلمة، وبعد ذلك بأيام قليلة طرد ديمترى من منظمة الكومسومول، وبكت والدته: «ولكن، ما شأنك أنت؟» ولكنه أخذ يسرى عنها: «لا يجب أن تفكرى فى الأمر على هذا النحو، إنها ليست إلا حالة فردية». وذهب للعمل فى أحد المصانع.

لم يستسلم للإحساس بالمرارة أو ينطو على نفسه، واتخذ أصدقاء جددًا، وأحس بالرضا عن عمله، وكان يدرس فى المساء، ويقول لأمه: «سترين، سألتحق بالجامعة يومًا ما.»

بعد ذلك بسنوات قليلة، فى جو أغسطس الخانق، كان ديمترى يسير فى السهوب، كاسف البال ولكن ليس مخلوع القلب: كانت الفرقة التى يحارب فى صفوفها تتقهقر، وحدث أن وقع عليه اختيار الجنرال ليصب عليه جام غضبه، إذ أخذ يسبه ويتهمه بالجبن

ويهدده بالمحاكمة العسكرية، وكان ديمترى يقول لأصدقائه فى هدوء: «إنها علامة طيبة أن يشتم ويسب. هذا يعنى أن حالنا ستتصلح.» وبعد ذلك بقليل أصيب بجرح فى الكتف، وقضى ستة أشهر فى المستشفى، ثم عاد إلى الجبهة حتى نهاية الحرب، ووقع فى حب ناتاشا، وهى ضابطة إشارة. ولم يكتشف أنها تحبه أيضًا إلا فى بريسلاو، وحين قالت له: «إنك تبدو شديد البرودة، حتى لقد كنت أخافك، ولكنى عرفت منذ البداية أن قلبك يختلف.» وحلم بالسعادة بعد الحرب، ولكن ناتاشا ماتت وهى فاقدة الوعى، لقد انفجر لغم فى (ليبزج) فى العاشر من مايو، فى وقت انتهى فيه تفكير الناس فى الموت[1]، وطوى ديمترى أحزانه وعاش حياة صارمة دون أن يبدى أمام الناس حقيقة ما يعانى، ولم يحدث أن صرح بشىء إلا بعد ذلك بمدة طويلة، حين سألته أمه: لماذا لا تتزوج؟ لقد تجاوزت الثلاثين، وعندما أموت لن تجد إلى جوارك من يرعاك.» فاعترف: «لقد فقدت سعادتى فى الحرب يا أمى، ولم يعد الزواج اليوم يخطر على بالى.»

ولم يجد إلا علاجًا واحدًا لليأس - هوالعمل، درس منهجًا فى صناعة الآلات، وتقبل رؤساؤه البحث الذى تقدم به قبولا حسنًا، وكانت هناك فكرة للإبقاء عليه فى المعهد، ولكن البعض تدخل وأعطى المركز لرجل آخر، وأرسل ديمترى للعمل فى مصنع بمنطقة الفولجا حيث أصبح فجأة الإنسان البارع القادر على النجاح فى كل شىء، وعلى الرغم من أن جورافليوف كان معتادًا على عدم الثقة فى الشبان عمومًا، فإنه قدر مواهبه على الفور، وانتخب فى مجلس

سوفييت المدينة حيث كان يتكلم فى مناسبات عديدة، وكان العمال يثقون فيه ويتحدثون إليه بحرية ويعتبرونه إنسانًا مستقيمًا شريفًا، ولم يفسده المركز.

فماذا حدث له الآن؟ لماذا يفلت منه زمام نفسه؟ لماذا يخطو هكذا كاسف البال وسط العاصفة الثلجية ورأسه ملىء بأفكار عن لينا؟ بل إنها أكثر من مجرد أفكار، إحساس بأنه لن يستطيع أن يخرجها أبدًا من حياته، أية حماقة، وأية صبيانية، وأى تناقض مع ماضيه؟

كانت الريح تهب عنيفة، والثلج يكاد يعمى الأبصار ويصم الآذان. وتوقف ديمترى فجأة. ورفع حاجبيه قليلا، ثم انفجر مقهقهًا. كان يفكر: «إنه لأمر مضحك حقًا، أنا أقف، وأعتلى المنصة لأثبت، فى هدوء، أن هذه أشياء لا وجود لها بكل بساطة، ابتدع خيال المؤلف شخصية زوتوف، وجعله يقع فى غرام زوجة صديقه، ثم أنزل به الخزى علانية، وأخيرًا، لكى يحكم الحبكة، أرسله إلى القطب الشمالى» وبديهى ألا يحتمل كوروتيييف ذلك! «إثارة رخيصة، إنها ليست نمطية على الإطلاق».. عظيم، عظيم. تذكر هذا جيدًا يا ديمترى سرجيفيتش، إن أناسًا على شاكلتك وعلى نمط زوتوف هذا لا وجود لهم. أنت لست إلا فكرة مبتدعة وألعوبة خيال، لا يوجد، بكل بساطة، أناس على هذا النمط!

«ترى كيف تفكر لينا الآن؟ أننى لست إلا بيروقراطيًا؟ وأننى لست إلا كذابًا تافهًا؟ لابد أنها خمنت ووصلت إلى فكرة ما، وأى

شخص فى مكانها لابد أن يصل، النساء يفهمن هذه الأمور، أنا لم أجرؤ على مصارحة ناتاشا بشىء على الإطلاق إلى قرب النهاية، ومع ذلك فقد حدثتنى هى فيما بعد، وأدركت منذ البداية، كان ذلك فى سوجا، هل تذكر؟ حدثت غارة جوية وكان إصرارك على أن تستمر فى حلاقة ذقنك، عندئذ خمنت أن هناك شيئًا؟ أنا أجيد تصنيف الآلات، أما إذا كان الأمر يتعلق بالمشاعر... فلابد أن لينا تضحك منى.

ولكن ما جدوى التفكر فى الموضوع؟ إن لينا هى زوجة جورافليوف، وإن كلينا له طريق يختلف عن الآخر، هذا هراء لا طائل من ورائه، ولكن لماذا صدر عنى القول: إن مثل هذا لا يمكن أن يحدث؟ لست أدرى. لم يكن خداعًا منى، بالتأكيد، وعلى أية حال فإن مشاعرى هى ملكى، من صميم شئونى الخاصة، أما الكتاب فأمره يختلف، فذلك من الشئون العامة، لماذا يكتبون عن مثل هذه الأمور؟ إنهم لا يستطيعون إسداء المعونة لأحد، إذا ارتبك زوتوف فى عمله، فذلك شىء يستطيع القارئ أن يفهمه ويرتب عليه النتائج التى تفيده. أما عن أحاسيس زوتوف تجاه زوجة أحد زملائه فليس هذا، ببساطة، إلا من المتخلفات السخيفة، الحب عنصر التحام وتماسك، كما يقول الناس جميعًا، ولكن هذا عنصر تآكل وهدم، لقد كنت مصيبًا فيما قلت، ليست هذه هى المشكلة، إنما المشكلة أن أمسك زمام نفسى بيدى.»

حول مصباح الشارع المستدير المتألق، كان ندف الثلج مثل أسراب طير مجفلة، وترفرف صاعدة ثم تهبط، ثم ترفرف صاعدة

من جديد، وتحت المصباح وقف محبوبان غارقان فى عناق طويل، وفكر ديمترى أن الفتاة ربما كانت كاتيا، وصاحت الفتاة صيحة خافتة، وسار الاثنان بعيدًا. وابتسم ديمترى.

«كاتيا أو غيرها... هكذا كنت أسير أنا وناتاشا فى تلك الحديقة فى ضواحى برلين، كانت هناك بحيرة رمادية، وزهور السوسن المائى، وذات مرة فاجأنا الرائد... شىء جميل، مادام الإنسان شابًا، يجب أن أطرد هذا الهراء من رأسى، وإلى الأبد.»

كانت الشوارع خالية، لقد آوى الناس جميعًا إلى بيوتهم، سواء منهم من أمضى السهرة فى الحكم على زوتوف أو ذهب لمشاهدة اختفاء السيدة، أو سمع محاضرة عن تربية الماشية أو ذهب لزيارة الأصدقاء، والمنازل الجديدة، التى تبدو فى النهار موحشة مقرورة تبدو الآن وكأنها جزء من ديكور مسرحى مرسوم، بنوافذها الذهبية التى تصطرع مع الثلج المتساقط، وفى الداخل أناس يغطون فى نومهم أو ينشغلون بمشاجراتهم يبتهجون أو يعانون، الحياة فيها كل شىء. ولكن كل هذه أمور ثانوية، إنما المهم هو العمل.

وإذا شعر أن العمل وحده هو الذى يستطيع أن ينقذه فقد أسرع الخطى، وفكر فى حبور وهو يشعل عود ثقاب على السلالم المظلمة: «الآن سأنهمك فى بحث مشروع برينين.» ونشر الرسوم والتصميمات على المنضدة. كانت التدفئة على أقصاها، وأحس أنه لا يستطيع أن يتنفس، وفتح النافذة فاندفعت ندف الثلج طائرة إلى داخل الغرفة، «لابد أننى أصبت بالأنفلونزا... ولكن ربما هذا أيضًا هراء، يجب أن أعمل.»

كان من عادته فى وقت العمل أن يجلس بلا حراك، وباستطاعته أن يظل كذلك نصف ليلة بكاملها، ولكنه الآن لا يكف عن التحرك فى قلق، يضطجع إلى الخلف، يحرك طقطوقة السجائر أو يعدل وضع المصباح، أو ينهض ويذرع الغرفة جيئة وذهابًا، بينما خياله الضخم يثب على الجدران النظيفة البيضاء مثل غريب مذعور.

«إن برينين على حق، الكثير يتوقف على اللحام والخطورة فى الالتواء، غدًا سأناقش الموضوع مع جورافليوف، لابد أنهم الآن يتناولون الشاى. ستقول لينا: «لقد تحدث كوروتييف مثل موظف كتابى ثقيل الظل».. ستضحك، بينما يدافع هو عنى: «إن الروايات ليست من اختصاصاته، ولكنه يعرف عمله جيدًا، وهذا هو المهم». هذا سليم تمامًا يا إيفان فاسيليفتش، إن العمل هو المهم، عندما تضحك لينا فإن عينيها تبدوان داكنتين، وأحيانًا أخرى، عندما تضحك تبدو العينان حزينتين... كلام فارغ! يجب أن أتحدث مع جورافليوف عن تروس التحويل...»

وفى الخامسة صباحًا قال لنفسه وهو راض: «بعد هذه التعديلات يمكن التوصية بقبول مشروع برينين... الأمر لا يستحق محاولة النوم الآن، ولكن من الصعب أن أظل يقظانًا، سيتسرب هذا الكلام الفارغ مرة أخرى إلى رأسى، هل أضع التعديلات فى شكل مذكرة رسمية؟ إن هذا يجعلها أكثر إقناعًا لجورافليوف، كما أن هذا سيقتل ساعة أخرى...»

وعندما خرج من المنزل كان الثلج يتساقط، ولكن الحياة كانت قد بدأت تدب فى الشوارع، والناس يستحثون الخطى فى الطريق إلى

أعمالهم، كان مصباح الشارع مضيئًا متألقًا كما كان، وأسراب الطير الأبيض، ترفرف من حوله كما كانت، غير أن الحبيبين كان قد ذهبا، وترامى إلى سمعه نثار من كلمات يتبادلها السابلة:

«فيلم رائع، لم أستطع النوم طول الليل.»

«قل ليوجوروف إنه سيسمح له بالذهاب. من الحمق أن يفتعل طلب إجازة مرضية.»

«... يا للزحام، لا يمكنك أن تنفذ بينهم...»

كان ديمترى يفكر: «أى كلام فارغ كل هذا، ومن ذلك فإنه يلح على الذهن! هل سيفارقنى فى يوم من الأيام؟ لقد قرأت عنه فى الكتب، ويبدو أنه كتب عليك أن تعيشه.» وعلى غير ما توقع ابتسم وجهه: «إنه شىء سخيف، ولكن أظن أننى سعيد.»

٢

فى المنزل، بعد اجتماع القراء، أعدت لينا المائدة، وذهبت إلى المطبخ لتحضر الشاى وشرائح اللحم الباردة المعدة للعشاء، كان تتكلم، ولكن إيفان لاحظ أنها ليست على ما يرام، ولحسن الحظ، بدلا من أن يسألها مباشرة عما بها، قال: «أنت متضايقة بسبب الدرجات السيئة التى نالتها تلميذاتك اليوم؟» وأحست هى بالارتياح لهذا التفسير، وأجابت: «نعم».

تناول إيفان الصحيفة، لم يكن عنده وقت لتصفحها فى الصباح. كان يقرأ وهو يأكل، ويعلق بين حين وآخر: «نال نكيفوروف تعنيفاً يستحقه». أو : «هناك نقص فى المكابس، ما فى ذلك شك.» ولينا تسارع بالموافقة.

كانت مسرورة لأنه مستمر فى القراءة، فقد أعطاها ذلك مهلة للتفكير، لقد تبينت لتوها أن ما ألم بها شىء يستعصى على العلاج، ومن أفظع الأمور أن تعانيه وحدها.

كانت لينا، وهى طالبة، لها أصدقاء عديدون، أمَّا فى هذه الأيام فإنها كثيرا ما تحس بالوحدة، ويبدو أنه لم يكن بالمصنع من تستطيع أن تتحدث إليه، إنها تحس بالتجاذب نحو من هم أكثر خبرة بالحياة منها وضحكت لهذا الخاطر مدرسة لا تزال بحاجة للتلميذة!. فى المدرسة، إلى سنة خلت، كان هناك بوخوف، وهو من أبرز شخصيات المدينة، بلشفى قديم، خاض غمار الحرب الأهلية، ومدرس موهوب يحترمه الجميع، كانت لينا تعتبره مخلصها، كان يرشدها فى عملها ويسرى عنها عندما واجهت، لأول مرة، الأطفال الصاخبين المعاندين، كان يعاملها كابنته، واعتادت هى الاعتماد عليه أكثر فأكثر، ولكن المرض هاجمه فى الشتاء الماضى، وقال الأطباء إنها الذبحة الصدرية، ومنعوه من العمل، وهو الآن أحسن حالا، ويزور المدرسة بين حين وآخر. فهو لا يطيق البعد عنها، ولكن لينا تعتقد أنه من الخطأ أن ترهقه بمشكلاتها، وقالت لنفسها غاضبة إنها لم تعد فتاة صغيرة، وأنها ستبلغ الثلاثين قريبًا، وقد آن الأوان لكى تعتمد على نفسها، ولكنها أحست، فى الوقت نفسه، أن من أشق الأمور ألا تجد إلى جوارها من تتحدث إليه فيما يشغلها.

كذلك كانت هناك صديقتها الدكتورة فيراشيرر، كانت قد التقت بها قبيل مرض بوخوف، وهى لن تنسى هذا اللقاء أبدًا لأنه تمَّ فى اليوم نفسه الذى تحققت فيه من الغربة التى توجد بينها وبين زوجها، وبعدها ظلت تبكى طول الليل، كانت لينا تميل لفيرا، ولكنها لم تكن تراها إلا نادرًا، فقد كانت فيرا دائمًا مشغولة، ومنطوية على نفسها. لقد فقدت زوجها فى أثناء الحرب، وقالت للينا ذات مرة:

«لا يمكن أن يلتئم الجرح ثانية.» وإنه لأمر محرج أن يقحم الإنسان نفسه عليها، إن لها أحزانها الكبيرة الخاصة.

أما عن ديمترى كوروتييف، فقد كونت صداقة سريعة معه، كان يحكى قصصًا عن الحرب، وعن ألمانيا، وعن أصدقائه، وهو يكسبهم حياة جعلت لينا تحس أنها تعرفهم، وكانا يتناقشان عن الكتب التى يقرآنها، إنها لا تعتقد فى الحظ الحسن الذى صاحب فوروباييف، أما ديمترى فيراه مقنعًا، وهو معجب بلستوباد، أما لينا فترى فيه فقرًا روحيًا. وكان تعليق ديمترى على رواية جروسمان: «إنه يتحدث بصدق عن الحرب، هكذا الحرب تمامًا، غير أن أبطاله يعملون العقل أكثر مما يجب، وهذا ما يجعل المرء، أحيانًا، لا يصدق وجودهم». وضحكت لينا: «كما لو كنت أنت لا تعمل عقلك.» فاحمر وجهه وغمغم: «لا يجب أن نكون ذاتيين... أظن أننى أضجرتك»

لم يصارحها بأى شىء من ناتاشا أو عن طفولته، ولكنها كانت تحس بأنه لم يكن «محظوظًا» بالقدر الذى يتصوره زوجها. كانت ترجح أن فيه قوة كامنة، وقلقًا عميقًا وإن لم يكن باديا للعيان، إنها تراه إنسانًا حقيقيًا.

عندما أعلنت الهدنة الكورية سمعته يقرأ صحيفة تعالج، بمقدرة، إخفاق استراتيجية الولايات المتحدة والنتائج المستخلصة منها: «لقد انتهت تلك الحرب بطريقة تختلف عن الطريقة التى انتهت بها الحرب الأسبانية وإلى نتيجة مختلفة، إن المعتدين، عليهم أن يعاودوا التفكير، كما أن أنصار السلام فى العالم بأسره لهم أن

يرفعوا رءوسهم، وبينما هما يخرجان معًا من النادى قال لها ديمترى: «فى معهدنا كانت هناك فتاة كورية ضئيلة رقيقة كطفل صغير... لا أكف عن التفكير فيها، لها ابتسامة رائعة، أليس من المدهش أن تظل قادرة على الابتسام بعد كل ما عانت...» وتساءلت لينا إن كانت هى الوحيدة التى تعرف كل شىء عنه، عن ديمترى الذى كان يقرأ الجريدة، وديمترى الذى تحدث إليها عن الفتاة الكورية.

ولكن، كانت هناك أشياء لم تستطع أن تفهمها. ذات يوم تحدثت عن فتاة فى الصف العاشر. اسمها بوبوفا، أفلتت من كارثة محققة. «تصور، طردوها من الكومسومول، لم يستمعوا إليها أو يبحثوا الموضوع بجدية أو يتبعوا الوسائل المشروعة، وأخيرًا تدخلت لجنة الحزب فى المدينة وأعادتها إلى مكانها فى المنظمة. ولكن تصور أية محنة تعانيها فتاة فى السابعة عشرة؟ إنها مأساة حقيقية. كانت غلطة فومين، ولكن لم يوجه إليه ولا مجرد لوم. أليس هذا شيئًا لا يمكن احتماله؟» كانت تتوقع أن يوافقها ديمترى، ولكنه لم يعلق بشىء، كان يبدو أنه يتذكر شيئًا ما لو أنه كان زوجها الذى صمت لفكرت: «إنه يخاف.» ولكنها كانت تحترم ديمترى، فقالت لنفسها إنه لا تزال فى الحياة أشياء كثيرة بعيدة عن إدراكها.

أصبحت متعلقة به من حيث لا تشعر. كانت تفتقده إذا تغيب فترة طويلة فتسأل زوجها: «هل أنت واثق من أنه ليس مريضًا؟» كان هذا فى الصيف الماضى، عندما كانت العلاقات بينهما تبدو حسنة

ومستقيمة وبسيطة. ثم ذهب لقضاء عطلة فى القوقاز، وعاد وهو بادى الأسى والكآبة، وتساءلت: «هل قابل فتاة أحبها ثم انتهى الأمر إلى لا شىء؟» وأخذ يتجنب الالتقاء بها، قابلته صدفة مرتين فى الشارع، فقال إن ضغط العمل عليه شديد ولكنه سيزورهم قريبا، بالتأكيد. وأخذت، تخمن تخمينات طائشة عن أسباب ابتعاده إلى أن ضبطت نفسها فجأة تتساءل: «لماذا أفكر فيه كثيرًا إلى هذا الحد؟ هل يمكن أن أكون قد وقعت فى حبه؟» ولكنها هدأت من روع نفسها فى الحال: فى مثل سنها لا يقدم الناس على مثل هذه السخافات، وإنما الأمر ببساطة هو أن الحديث لا يكون ممتعًا إلا مع عدد محدود جدًا من الناس، وعلى أية حال فقد كانت بينهما صداقة طيبة.

لم تكن راغبة فى حضور اجتماع القراء، سيكون مثيرًا للضجر ستلقى كلمات مكتوبة، وتتلى اقتباسات من مقالات النقد والتقريظ، وتقدم تلخيصات لا تنتهى للرواية، ولكن إيفان أصر على ضرورة ذهابها، فإن سكرتير لجنة الحزب فى المدينة سيكون موجودًا، «سيحضر الجميع، ولا داعى للظهور بمظهر سخيف.» كما أن من دواعى الاهتمام أن أمينة المكتبة أعلنت أن كوروتييف سيتحدث فى الاجتماع. وغضبت لينا: «كأن هذا أمر يعنينى»، وغمغم إيفان: يا للنساء! إنها يومًا تكاد ترى فى كوروتييف بطلا معبودًا ولا يعنيها فى اليوم التالى أن تستمع إلى حديث له!

كانت لينا خالية الذهن عما يمكن أن تعنيه تلك الليلة بالنسبة لها.

بعد أن بدأ ديمترى كلمته فى الاجتماع تمنت لينا أن تهرب إلى خارج الغرفة أو أن تخفى وجهها... أليس إليها يوجه كوروتييف حديثه؟ لقد قرر أن يشرح لماذا كان يتجنبها. «لقد اتضح كل شىء، إنه يعتبرنى لعوبًا فارغة الذهن مثل بطلة هذه الرواية. وهو يعتقد أننى وقعت فى حبه وهو الآن يلقى علىَّ محاضرة! إنه إنسان دمث، ولديه أشياء أخرى تشغل تفكيره، وعلى أية حال علىَّ أن أفهم أن مثل هذا الأمر لا يحدث، بكل بساطة، إنه درس لى، ولكن، لماذا يقوله علانية؟ ألم يكن باستطاعته أن يأتى ويتحدث إلىَّ؟ لقد قدَّر الأمر ورأى أن هذه الطريقة أكثر إهانة. وهو يريد أن يضمن أن أكف عن مضايقته. لا عليه، لن يرانى بعد ذلك أبدًا.»

وعندما خرجا بعد ذلك إلى العاصفة الثلجية وأراد إيفان أن يستدعى سيارة تاكسى أصرَّت هى على الذهاب إلى المنزل سيرًا على الأقدام، ظنًا منها أن المشى يحسن حالتها، ظلت طول الطريق تغلى سخطًا على ديمترى، ولكن بمجرد أن دخلت المنزل تفهمت فجأة: لم يكن هناك داع للغضب أو السخط، كانت المشكلة مشكلتها هى. لم تتبين إلا الآن أنها تحب ديمترى، وأنه طيلة هذه الأسابيع كان غيابه عذابًا لها. وأن حياتها لن تعرف بعد اليوم سعادة ولا ذهنها سلامًا، وأسرعت إلى المطبخ، واستغرق الشاى وقتًا طويلا ليغلى، وأمكنها أن تستشعر الأسى قليلا دون أن تحس بنظرات إيفان الحيرى تتبعها، ولم تعد غاضبة، لقد كان ديمترى على حق، كان عليه أن يحذرها، ولا تهم بعد ذلك الطريقة التى يحذرها بها. لقد قام بواجبه فحسب، لقد تبين ما عجزت هى عن فهمه،

وأنهى الموضوع بطريقة سليمة، وعليها الآن أن تواصل الحياة، ولكن كيف؟

وضعت العشاء على المائدة وجلست ترقب إيفان وهو يأكل بينما تظاهرت هى بشرب الشاى، ومن حسن الحظ أنه كان يقرأ وأن المقال كان صفحة كاملة، وسألت نفسها فى دهشة: «أيمكن أن يكون هذا، حقيقة، هو زوجى؟»

تقابلت لينا مع إيفان ذات مساء فى معهدها بعد أن كان الطلبة قد انتهوا من تمثيل مسرحية، كانت تنهى دراستها لتصبح مدرسة، وكان هو قد جاء إلى المدينة منذ فترة وجيزة، وقال إن أسعد لحظاته هى التى يقضيها مع الشباب، وكان كثير الزيارة للمعهد، وكانت لينا تقوم بدور صغير فى المسرحية، ولم تكن ممثلة ناجحة، ولكن بعد ذلك، عندما أقاموا حفلة راقصة، طلب منها إيفان أن تراقصه، ورقصا وتحدثا معًا طيلة السهرة، وبعدها أوصلها إيفان إلى سكنها.

حدث هذا منذ ست سنوات، ومنذ ذلك الحين تغير إيفان تغيرًا كبيرًا، لقد أصبح سمينًا مترهلا، ذا خدين سائبين وصلعة خفيفة، ويظن الكثيرون أنه فى منتصف العمر بينما هو لم يتجاوز السابعة والثلاثين بعد، وعيناه اللتان كانتا حالمتين أصبحتا الآن هادئتين واثقتين، وصوته قاطعًا، وضحكته من النوع الذى لا يحس أى إنسان برغبة فى مشاركته إياه، لقد تغير كل شىء فيه.

أو لعل هذا ما خيل لزوجته؟ إن ما جذبها إليه فى البداية هو إقباله المرح على الحياة، هو تفاؤله، لم يكن كاسف البال أبدًا، حتى فى أشد الأوقات حلكة كان يقول إنه لابد من وجود مخرج، وهوفى ذلك لم يتغير، غير أن هذا أصبح يستثير حنقها، منذ أيام قليلة جاء بجوروف، كبير المهندسين، ووجهه أبيض كالثلج، وقال، وهو لا يكاد يتحكم فى صوته، إن زوجته أصيبت بالسرطان، وتمالكت لينا نفسها من البكاء، بينما قال له إيفان: «لا يجب أن تقلق، إنها ستتحسن، إن الطب يحقق المعجزات هذه الأيام.» وبعد ذلك بلحظات كان يسأل: «قل لى يا يافل كونستانتينوفيتش، ما أخبار الماكينات المطلوبة لستالينجراد، كيف يسير العمل فيها؟ هذه هى المرة الثالثة التى يكلموننى بشأنها.»

هناك حادثة أخرى لا يمكن أن تنساها، فى الصيف الماضى قال له سكرتير لجنة الحزب فى المدينة أمامها إنها لفضيحة أن تظل الأكواخ والعشش التى يسكنها العمال على حالها، بينما ميزانية البناء اعتمدت منذ عام، فكيف أنفقت؟ فأجاب إيفان دون أن تهتز له شعرة: «آلة سبك الدعامات الجديدة، لقد كانت ضرورية جدًا. بدونها كان من المستحيل أن نحقق الرقم المحدد لنا فى الإنتاج. ألم تكن أول من ربت على كتفنا مهنئًا لأننا تجاوزنا الرقم بنسبة١٦٪؟ أما عن المساكن فلا تقلق من أجلها، إن عمرها أطول من عمرنا جميعًا، لقد رأيت أسوأ منها فى موسكو.»

وفكرت لينا: «لا شىء يقلقه، عنده جواب واحد على كل شىء: سنتغلب على الصعاب، إنه شخص أنانى على طول الخط.»

كانت سلامة طبعه فى شبابه وأخذه الأمور ببساطة وبعده عن الهموم، كانت مصدر سحر خاص، ولكن كل هذا زايله بمرور السنين، كان يصادف متاعب فى عمله، فمنذ ثلاث سنوات راجت شائعات بأنه سيفقد مركزه، واضطر إلى السفر لموسكو مرتين، وتمكن من التغلب على العقبات، ربما أصبح أقل ابتسامًا بسبب هذه الصعوبات أو لعله أضبح ينوء تحت وطأة مسئولياته؟ أو لمجرد أنه أصبح أثقل وزنًا؟ وعلى الرغم من ذلك فلا يزال وجهه يتألق إذا تحدث عن المخارط المركبة أو عن الترحيب الذى قوبل به فى موسكو أو عن نكيفوروف الذى حاول أن يخرب بيته فلم يجلب المتاعب إلا لنفسه، غير أن لينا لم تر فى ذلك إلا غرورًا، والحقيقة أنه كان يكرس حياته لمصنعه ويعتز به، ويشعر أنه هو والمصنع شىء واحد، إذا صافحه أحد بود تخيل أنها تحية للمؤسسة الجماعية كلها، وإذا انخفض الإنتاج عن الهدف المرسوم اعتبر أن ذلك من سوء حظه هو شخصيا.

لم تكن له إلاَّ هواية واحدة: أن يذهب لصيد السمك فى صبيحة أيام الآحاد أو يتجادل مع خيتروف بشأن الطعم، إنه عندئذ يبدو وكأنه عاد فجأة إلى سن السابعة عشرة، وكان ذلك يستثير أعصاب لينا ألا يستطيع أن يقرأ كتابًا أو يذهب لمشاهدة مسرحية؟ لا، وإنما لذته الكبرى هى أن يجلس ساعات بطولها يحملق فى غمازة السنارة.

كذلك لم تكن لينا تستطيع فهم صداقته مع خيتروف، إنه كفؤ فى عمله، مستريح فى زواجه، ولكنه سمين أحمر قرمزى كطفل

ضخم، وله طريقه فى حكاية القصة المضحكة نفسها بالطريقة نفسها مائة مرة، وهو يضحك ضحكة فكهة خفيضة، وهو يؤمن إيمانًا لا يتزعزع بمقدرات إيفان الذهنية وحسن طالعه، وهما يذهبان معًا لصيد السمك أو الطير، ويلعبان الضاما وهما يحتسيان الجعة فى استرخاء. ويقول عنه إيفان: «إنه رجل يعرف عمله.» أما سوكولوفسكي، كبير مهندسى التصميم فإنه يعلق بازدراء: «لم يسبق أن اقترب خيتروف من شاطئ أى نهر، ولكنه اليوم يقسم أنه من هواة صيد السمك طول حياته.» وكان خيتروف يثير اشمئزاز لينا، وترى أنه ليس إلا من لاعقى الأحذية، وتسأل إيفان غاضبة: «كيف يمكنك التحدث مع هذا الشخص الذى يوافق دائمًا؟» فيهز كتفيه قائلا: «إن خيتروف ليس غبيًا، وهو كثيرًا ما يقدم أفكارًا غاية فى الأصالة، أنت دائما تأخذين الأمور بخفة، وأنت لا تعرفينه جيدًا.»

كان إيفان مغرمًا بها وبابنتهما الصغيرة، إن لينا متأكدة من ذلك، ولكنه لم يكن ذلك النوع من الإحساس ما كانت تحلم به عندما قررت أن تتزوجه، وكان يعتبرها طموحة أكثر مما يجب، ويقول ساخرًا: «يقولون فى الأمثال القديمة إن الحوذى يطلب «روبل» ويقبل عشرة «كوبكات»». هكذا أنت. أنت تطلبين الكثير من الحياة، ولكن الحياة أكثر بساطة، كما أنها أكثر صعوبة.»

فى السنوات الأولى للزواج حاولت لينا أن تناقش معه موضوعات مثل الحب، والهدف من الحياة، ومكونات السعادة، فكان يبتسم ابتسامة رقيقة ولكنه ينهى الحديث دائما معتذرًا بأن وراءه

عملا يجب إنجازه، كان يعتبرها زوجة طيبة، وهو سعيد معها، حقيقة إن بها ضعفًا، فهى تريده دائمًا أن يتحدث عن مشاعره، ولكن المرأة يمكن أن يكون بها عيوب أسوأ من هذا كثيرًا.

واعتبط إيفان عندما نشأت صداقة بين زوجته وبين كوروتييف، لم يحس بالغيرة، إن لينا إنسان حساس، وهى ببساطة بحاجة إلى شخص يبادلها الحديث، وربما ليقول لها كلمة إطراء، وهذا أمر طبيعى، وهو لا يملك الوقت ولا الموهبة لتسليتها، إن ديمترى يصلح تمامًا، فهو مولع باستعراض معارفه، وإنه مما يرضى غروره أن يحمل لينا على الإنصات إليه وهى مفتونة بحديثه.

وعندما كف ديمترى عن المجىء تعجب إيفان، هل يمكن أن تكون لينا قد ملَّته، على الرغم من أنه على هذا القدر من البراعة؟ وفكر «المشكلة هى أنها شديدة التعلق بى، ما فى ذلك شك.»

واشترطت لينا عند الزواج أن تستمر فى عملها مدرسة، فهى لم تحصل على درجتها العلمية لتصبح ربة بيت، وكانت ترى عملها مثيرًا للحماس وتحاول أن تجعل إيفان يشاركها أحاسيسها، فتطلعه على كتابات الأطفال، وتحدثه عن حبها لبوخوف العجوز أو تشكو إليه من ناظر المدرسة، فكان إيفان يقول: «هل تظنين أن ما عندى من متاعبى الخاصة لا يكفى؟ طبعًا، التدريس ليس مهنة سهلة، ولكن إدارة مصنع ليست بالأمر البسيط كذلك.»

أمَّا عن عمله فإن الآراء تختلف فى تقييمه، فهناك من يرى أنه ليس إلا رجل رسميات ومن النوع الذى يؤمن نفسه، وإذا كانت عجلة

العمل دائرة فى المصنع فالفضل فى هذا يرجع إلى ديمترى ويجوروف وسوكولوفسكى وبرينين، ولا يفعل إيفان شيئًا إلا أنه يعوق عملهم، ويقول آخرون إنه إدارى كفء وإنسان شريف، وهذا هو المهم قبل أية اعتبارات أخرى، غير أن أحدًا لم يكن يتحمس للدفاع عنه أو للهجوم عليه، فلم يكن يستثير المشاعر الحادة.

كانت لينا تظنه شديد الثقة فى نفسه، ومع ذلك فقد كان كثيرًا ما يفتقد هذه الثقة، ولكنه لا يشرك معاونيه أبدًا فى شكوكه، فهو يعتقد أن المسئولية يجب أن يتحملها هو وحده، وكان ديمترى يرى أن تقرير إيفان إلى الوزارة ورديا أكثر ما يجب، فيهز إيفان كتفيه، قد يكون ديمترى بارعًا فى الماكينات ولكنه لا يفهم شيئًا فى أسرار الإدارة، إن إيفان يعرف ماذا يمكن أن يحدث لو صارح موسكو بكل الصعوبات، إنهم سيقطبون الجباه ويقولون: «إن جورافليوف مذعور» إن الناس يحبون الشهد، فإن أطعمتهم الفلفل غضبوا، وهو يقول لزوجته «يجب أن تتعلمى كيف تصمتين.» وكانت لينا ترى أن ذلك جبن، ومع ذلك فإن إيفان اشترك فى القتال ثلاث سنوات، واشترك فى الدفاع عن رجيف فى أحلك اللحظات، وكل من اشترك معه فى القتال يذكر شجاعته، وهو يقول للينا فى حديثه عن الحرب: «نعم، يمكن أن يلقى المرء حتفه، لا جدال فى ذلك، ثم أن يموت، هذا لا يعنى الكثير، ليس هذا كأن توضع على بساط البحث ويقال لك: الآن، حدثنا فى حكايتك كلها، هذه ورطة من نوع مختلف.»

وأيًا كان رأى خصومه فإن المصنع فى حالة جيدة، لم يتوقف عن العمل مرة واحدة خلال السنوات الست الماضية، حقيقة إن نائب

الوزير قال له إنه خالف القانون حين أنفق الاعتمادات المخصصة لمساكن العمال على جهاز الصهر الجديد،ولكن إيفان فكر: «ليس هذا إلا مراعاة للشكل فحسب، إن الوزارة مثلى، يهمها أمر الإنتاج قبل أى شىء آخر.» وبالطبع، فإنه سارع إلى طمأنة نائب الوزير بأن جميع العمال يتمتعون بالمساحات السكنية المناسبة وأن الحالة ليست سيئة على الإطلاق، وعلى أية حال فقد اتخذت الترتيبات لبناء ثلاث عمارات سكنية، والحق أن التصميمات والتقديرات أعدت فى العام الجديد، ولكن إيفان لم يتعجل البدء فى إقامة المبانى، وبعد اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى جاء سيبرزيف، رئيس لجنة العمال يسأله فى حذر: «هل رأيت يا إيفان فاسيلفتش ماذا تقول الصحف؟ إنهم يرون أنه قد آن الأوان لتوفير المساحات السكنية المناسبة للعمال». فأجاب: «إنهم سيحصلون عليها.» ولكنه لم يعط للموضوع أهمية أكثر من ذلك، لم يكن إيفان غبيًا، ولكن لم يكن مشهودًا له بمرونة التفكير.

وفى الخريف نشرت صحيفة إزفستيا مقالا عن المصنع، قال إيفان بحزم للمراسل: «لا داعى للإشارة إلىَّ. لقد أعطيتك أرقام الإنتاج، أقصى جهد ممكن، يمكن أن تشير إلى كوروتييف، إنه يستحق وقبل كل شىء يجب أن تتحدث إلى العمال، وإليك قائمة بالأسماء». ومع ذلك فإن الصحفى كتب عن إيفان: «إنه أحد مديرى الصناعة السوفييتية الذين يجمعون بين الجسارة والخبرة الواسعة والدقة فى التقدير.» واتصل به رئيس مجلس المدينة يهنئه تليفونيًا. وفى ليلة الاحتفال بذكرى الثورة فى ٦ نوفمبر جلس إيفان إلى جوار

القائد العسكرى المحلى، وتحدثت المدينة كلها: «إن نجم جورافليوف فى صعود مستمر.»

لا عجب إذن أن جاء الفنان فولوديا بوخوف ابن المدرس العجوز الذى عاد منذ عام من موسكو، جاء يرسم صورة لإيفان، لعرضها فى المعرض السنوى، وكان فولوديا يحب أن يقول: «أنا لا أقف إلا بجانب الناجحين.» وهو إنما اختار هذا الموضوع لضمان نجاحه الشخصى، فإن الصحيفة المحلية، عندما تتحدث عن المعرض ستخصص عمودًا كاملا للحديث عن بوخوف وستباع الصورة للمتحف، تمثل الصورة إيفان جالسًا تزين صدره، جميع الأوسمة والنياشين التى حصل عليها وأمامه منضدة هائلة عليها نموذج لإحدى الآلات، وإذا لمحت لينا الصورة التى لم تنته، قطبت وجهها. كان إيفان أقرب شبهًا بالديك الرومى.

كانت لينا تظن أنها ترى أعماق زوجها، ولكن الحقيقة أن كان فيه الكثير مما عجزت هى عن رؤيته، لقد اضطرب اضطرابا حقيقيًا عندما توفيت زوجة بجوروف بعد عذاب أليم، وهو الذى ظل يكرر بابتهاج حتى آخر يوم «لا تقلق، ستتحسن.» كذلك كان وجهه يكفهر عندما يلمح الأكواخ الكئيبة الرطبة المقرورة التى يأوى إليها عماله، فهى تذكره بأيام طفولته، لقد نشأ فى قرية فقيرة بإقليم كالوجا. كان يحزنه أن يرى الناس يعيشون فى مثل هذه الظروف، ولكنه يسرى عن نفسه: «هذه المنازل يمكن أن تعيش فترة أخرى، ولو أننا لم نبن جهاز الصهر الجديد، لحدث ارتباك كبير، ما

فى ذلك شك، وعلى أية حال فإن الرجال ليسوا فى حالة سيئة للغاية، لا يمكن مقارنتهم بالظروف التى عاش فيها آباؤهم، وفى العام القادم سنبنى ثلاث عمارات جديدة.» كان يعتقد أنك إذا قلت إن كل شىء على ما يرام فإن هذا فى حد ذاته يصلح الأمور.» إن أهم شىء هو ألا تتدهور المعنويات، لقد كان بجورروف بحاجة إلى شىء يطمئنه عندما مرضت زوجته، ذلك هو السر العظيم، فكلَّما قل تأملك فى الجانب المظلم بدت الحياة أكثر إشراقًا.»

ذات مرة اشتعل حريق فى عنبر التجمع، وعندئذ بدا إيفان فى أحسن حالاته: احتفظ بصفاء ذهنه واتخذ جميع الإجراءات اللازمة بمقدرة إلى أن أمكن إطفاء الحريق بسرعة، وبعد ذلك، لكى يعوض المصنع التلف، سهر إيفان وردية ليلة كاملة مع الرجال ليستثير حماسهم للعمل، وفى معرض الكلام عن هذا الحادث، الذى استثار الجو فى المصنع، قال ديمترى لسوكولوفسكى: «ألم يدهشك جورافليوف، هناك رجل ليست عنده أية قدرة على المبادرة، ومع ذلك فهو لم يفقد صفاء ذهنه.» عندئذ أجاب سوكولوفسكى، وهو الذى لا يكف عن السخرية من المدير فى كل الأحوال: «هذا صحيح، ولكن البستانيين يتحدثون عن نوع نائم من البراعم، ويمكن أن يظل نائمًا سنوات، فإذا قطعت الغصن الرئيسى فإنه يتفتح فجأة، هكذا جورافليوف، إنه بيروقراطى عادى جدًا، ويتطلب الأمر هبوب عاصفة لإيقاظه.»

جاءت نقطة التحول فى موقف لينا من زوجها فى مناسبة لا تتعلق بديمترى، ولكن منذ عام، فى حوار عابر مع إيفان، فى ذلك

اليوم ارتفعت درجة حرارة ابنتهما شورا، وحدث أن كان طبيب الأطفال بالمدينة «فليمونوف» مريضًا، وذعرت لينا. فقد كانت تعتقد أن شورا أصيبت بالتهاب رئوى، واتصلت بإيفان تليفونيا فاقترح عليها: «اطلبى طبيبة مستشفانا، الدكتورة شيرر.» وجاءت فيرا شيرر وقالت إنها مجرد أنفلونزا عادية، أما لينا فقد غلبتها الفرحة، وإن استمرت تلح فى غمرة اضطرابها: «هل أنت متأكدة يا دكتورة، إنها تتنفس بطريقة غريبة.» وعلى غير المتوقع ثارت ثائرة فيرا: «إن لم يكن عندك ثقة فى، فلماذا أرسلت فى طلبى؟» فاحمر وجه لينا خجلا: «اعذرينى، أنا لست على وعى تمامًا بما أقول. حقيقة، أنا لم أقصد جرح مشاعرك، هذا فظيع!» وامتلأت عينا فيرا بالدموع، وقالت بهدوء: «بل أنت التى يجب أن تعذرنى، الخطأ خطئى أنا، إن أعصابى ستنهار، أحيانًا يقول الناس أشياء رهيبة... منذ صدر هذا البيان فى الصحف، إنه أمر بالغ السوء. لا يجور أن يكون سلوك الطبيب على هذا النحو، وازداد وجه لينا احمرارًا.. واصطحبت فيرا إلى المنزل، ومنذ ذلك اليوم أصبحتا صديقتين.

منذ ذلك اليوم أيضًا ولينا تحتقر زوجها. عاد إلى المنزل متأخرًا، ومتعبًا، وجائعًا، وسأل عن حالة شورا، ونقلت إليه لينا حديثها مع فيرا شيرر عن مشكلتها فى العمل وما نشر بصددها فى الصحف، فلم يعلق هو بشىء، ولكن لينا ألحت:

«ألا تعتقد أن هذا أمر فظيع؟ ما علاقة ما حدث بالطبيبة شيرر؟»

فقال إيفان مهدئًا روعها: «لا داعى للانزعاج، لقد طلبت أنا نفسى منك أن تستدعيها، المفروض أنه لا غبار عليها، ليس عندى أى شىء ضدها، ومع ذلك يجب أن تكونى حريصة فى اختيار الأشخاص الذين تثقين فيهم، لا جدال فى ذلك.»

تركت لينا الغرفة دون أن تجيب بكلمة، وقد اهتاجت فيها كل عوامل السخط فجأة، وراحت تنتحب وهى تردد: «وهذا الرجل هو زوجى.»

وبعد حادث الحريق بشهور، كانت لينا تستمع إلى ديمترى وهو يمتدح تصرف إيفان، فمنعت نفسها بصعوبة من أن تصيح فيه: «آه لو تعرف كم هو جبان، مخلوع القلب.»

وعندما نشرت الصحف خبر رد اعتبار أطباء الكرملين، سارعت لينا على الفور إلى المستشفى، وسألت عن فيرا، وارتمت بين ذراعيها.

فى تلك الليلة قال إيفان وهو يتثاءب: «لقد تبين أنهم لم يكونوا مذنبين. وما كان لصديقتك شيرر أن تنزعج.»

وهى لا تختار البقاء معه إشفاقا عليه، على الرغم من علمها أنه متعلق بها، ولا لأنها تهاب الصعاب، فإن عملها يمكن أن يكفل لها، هى وشورا، أسباب الحياة، إنما هى تختار ذلك من أجل شورا. فالبنت تحب والدها، وهوأيضا يتحول إلى شخص آخر وهو يلاعبها: أكثر صبا وأخف روحًا، كيف يمكن أن تفترق إذن؟ «إنها ليست غلطة شورا، إنها غلطتى، أنا التى اخترته، وعلىَّ الآن أن أدفع ثمن غلطتى.»

حاولت أن تقنع نفسها أن الحب ليس ضروريًا إلى هذا القدر، إن لديها عملها وأصدقاءها وابنتها، وليس هذا زمن قصص العواطف الشخصية، حقيقة أن إيفان شخص أنانى وجبان، ولكنه ليس خائنا أو لصًا، وهى ببقائها تحتفظ لشورا بوالدها.

وكانت صداقة ديمترى تخفف عنها بعض مرارة حياتها، وعندما امتنع عن المجىء انشغلت بشكوكها عن التفكير فى زوجها. لم تحدث أية تغيرات فى الظاهر فهى تواصل صب الشاى فى فنجان زوجها وسؤاله عن أحوال المصنع. كانت مقتنعة أنها لا تواصل الحياة إلا من أجل شورا، والمدرسة.

ولم تفهم إلا الآن، بعد اجتماع النادى، أن قلبها كان ملكًا لديمترى، وما كان أقل ما توقعت هذه الحقيقة، حتى إذا تبينتها ذُهلت وجلست بائسة تنتظر انتهاء زوجها من فنجان شايه الأخير.

وضع الصحيفة جانبًا وقال فجأة:

لماذا لم يعجبك حديث كوروتيييف؟ أنا أعتقد أنه حسن جدًا، أنا لم أقرأ الكتاب، ولكنه كان على حق فى حديثه عن الأسرة السوفييتيه ما فى ذلك شك.

فأجابت بهدوء غريب:

ما سمعت شيئًا تقريبًا، قلت إننى لم أكن أرغب فى الذهاب، وأنا قلقة بخصوص الصف السابع، المنهج مزدحم ومن الصعب رعاية مثل هذا العدد الكبير من الأطفال،. هل انتهيت؟ سأذهب لألقى نظرة على شورا.

كانت الطفلة نائمة وقد ألقت غطاءها جانبًا، غطتها لينا، وجلست إلى جانبها، ثم انفجرت باكية، هل يمكن أن تعانى شورا أيضًا هذه المحنة؟. إن الأمر يغدو أيسر على الرجل، طبعًا، أنا عندى حياتى، والمدرسة، والتلاميذ، ولكن، آه لو تعرفين كم هو شاق ومؤلم... مجرد أن نقضى أيامنا... شورا يا حبيبتى، ماذا يجب أن نعمل؟ لا أعرف. أنا لا أعرف فعلا.»

٣

كانت ليلة اجتماع القراء ليلة مشهودة أيضًا فى أسرة المدرس العجوز، أندريه بوخوف، على الرغم من أن أحدًا منهم لم يذهب إلى النادى، كانت ابنته سونيا تنوى الذهاب، ولكن الليلة هى عيد ميلاد أندريه (٦٤ سنة) وأصرت زوجته نادجدا على عمل حفلة مهما حدث. ولمدة ثلاثة أيام متتالية ظل أندريه يستمع إلى نحيب زوجته: الدقيق نادر الوجود، ولا يمكن الحصول على أوزة أو ديك رومى من أى محل بالمدينة، وكما لو كان الأمر مقصودًا: البيض أيضًا عزيز المنال!

وضحك أندريه: هذا شأنها دائمًا، إذا سمعتها تظن أننا لن نأكل شيئًا. ومع ذلك فإن الضيوف سيملأون بطونهم إلى درجة أنهم لن يستطيعوا النهوض من المائدة.

كانت «نادجدا» تريد دعوة ابنة عمها وزوجها، الناظر السابق، والمحال إلى المعاش الآن، وهو من جيل أندريه، ولكن أندريه قال: «لندعُ أصدقاء سونيا وفولوديا ليقضوا وقتًا طيبًا، أما أنت وأنا فيكفى أن نستمتع بالنظر إليهم.»

كان أندريه اجتماعيًا ألوفًا، يحب برينين والناظر السابق، ويجلس ساعات ينصت لحديث ابنة عم زوجته عن مرضها بالروماتيزم وعلاجه بحمامات الطين ولدغات النحل، وهو كثيرًا ما يزور الأرمل يجوروف، الذى يسكن بالقرب منهم ويسرى عنه بعد مصابه الأخير، ويتبادل معه الحديث حول الماكينات أو خطاب أيزنهاور الأخير أو ابنة يجوروف التى تتعلم الموسيقى، لكن أسعد أوقاته هى التى يقضيها بين الشباب، ربما لأنه يحتفظ بشىء من حمية الشباب، أو ربما لأنه مارس مهنة التعليم أكثر من ثلاثين عامًا ويعرف الشباب حق المعرفة، لم يكن عليه شىء مما يعانيه النشء من أهوال الامتحانات، أو مآسى الحب الأول، أو أحلام الشباب عن الشهرة.

لم يكن بالوحدة إلا وهو بين أسرته، أحيانًا.

عاش سعيدًا مع زوجته ثلاثين عامًا، وفى شبابها كانت هى أيضًا تعمل بالتدريس فى مدرسة للكبار، وأنجبا أكبر أبنائهما، فولوديا فى ١٩٢٠، عام المجاعة وعندما حملت الطفل إلى مقر القيادة لتريه لأندريه أوقفها الديدبان وقال: «تنبهى أيتها الصغيرة، احذرى أن يقع منك»، فقد كانت هى نفسها تبدو كالطفلة، بقامتها القصيرة وجسمها النحيل وشعرها المقصوص، وبعد عام أنجبت طفلة ماتت بعد شهر، ومرضت نادجدا مرضًا خطيرًا وأجريت لها عمليتان جراحيتان، وعندما عاد أندريه إلى عمله فى التدريس كرست هى حياتها للقيام بواجبات الزوجة والأم، وعندما أنجبت سونيا كانت

قد نسيت، منذ مدة طويلة، أحلامها وهى فتاة، كما نسيت اليوميات التى كتبتها والكتب التى قرأتها، لقد سمنت ونعمت، وفى المناسبات النادرة التى تتذكر أيام شبابها كانت تصاب بالدهشة البالغة، وكأن امرأة أخرى هى التى كانت تخطب فى اجتماعات الجنود، وتركض على ظهور الخيل فى البرارى وهى حامل، أو تساعد زوجها فى طبع المنشورات، زمان طويل مضى على تلك الأيام! لقد صغرت دنياها من حولها، وأحكمت حدودها.

وعندما هاجم المرض أندريه شعرت، «نادجدا» أن من واجبها أن تبذل قصارى جهدها لإنقاذ حياته، وراحت تشكو للجميع إهماله فى مراعاة تعليمات الأطباء، وأنه يتصرف كطفل لا يدرك المخاطر، والحقيقة أن أندريه كان يدرك أنه لم يبق من أيامه الكثير، ولذلك فقد رفض أن يتحول إلى قعيد، كان يشعر أن الآلة ستتوقف فى اللحظة التى يستسلم فيها.

وأعلن أندريه أن حالته حسنة، وأنه سيعود إلى عمله، وجن جنون «نادجدا» لأول مرة فى حياتهما الزوجية، صرخت، وبكت، وجرت إلى الأطباء وقالت الدكتورة فيراشيرا: «يجب أن يلزم الفراش طبعًا، لقد قلت له ذلك، ولكن الإنسان يعرف أحيانًا عن نفسه أفضل مما يعرفه أطباؤه، قال لى إنه لا يستطيع الحياة بعيدًا عن عمله، لو كنت مكانك لما أزعجته» ولكن نادجدا لم تهدأ، ذهبت لمقابلة ناظر المدرسة، ومديرها، وسكرتير لجنة المدينة، ولم يعد أندريه إلى العمل.

ولكنه لم يكن خاملا، كان يرعى تلاميذه السابقين ممن فقدوا آباءهم فى الحرب، ومن كانت ظروفهم سيئة بنوع خاص، واحد منهم أمه مضاربة أرسلت ولدها للعمل فى السوق، وآخر يعول أخته الصغيرة المريضة، وثالث أهمل فى نشأته واجتمع عليه رفاق السوء، كما كان أندريه يعاون الأمهات وهن يعملن الواجبات مع أطفالهن، ويحكى عن الأيام الغابرة الحافلة: كيف بدأت الثورة، وكيف رأى لينين مرة، وكيف هزمت القوات البيضاء.

وكانت نادجدا ترقب زوجها والوهن يدب فيه يومًا بعد يوم، وتتوسل إليه دامعة: «ألا تستطيع أن تمكث فى السرير ولو يومًا واحدًا؟» وكان أندريه يذكر نفسه بأن هاتين العينين، على الرغم من قسوة توسلاتهما، هما عينا التعاطف والحب، فكان يتحامل على نفسه ويحملها على الابتسام بدلا من الأنين، عندما تهاجمه أزمات القلب.

فولوديا هو الابن الأثير لدى نادجدا منذ طفولته: كان ولدًا وسيمًا ماهرًا، عيناه ساخرتان، وكانت تقول لجيرانها: «هو يبدو هادئًا، ولكنه يضايقنى كثيرًا» لم يكن من الأولاد الأشقياء، ولم يكن يتعارك مع غيره من الصبية، ولكنه كان دائمًا وقحًا مع والده بصوته الوديع وابتسامته المتلطفة، ويسميه «الحرس القديم». كما كان يعاكس زملاءه فى المدرسة ويؤلف أزجالا وقحة عن البنات الصغيرات، ويرسم صورًا كاريكاتورية للمدرسين، وكان ميله للرسم واضحًا منذ الصغر، وكانت أمه تتساءل فى غبطة: عساه يكون موهوبًا موهبة حقيقية».

ودرس فولوديا التصوير فى موسكو، وكان يقضى العطلة مع أسرته ويحكى لوالدته قصصًا هزلية عن مدرسيه، وعن لياليه الأولى فى العاصمة وعن الفتيات اللاتى يعملن فى مطعم (ردبوبى)، وهو يتحدث كعجوز سئم الحياة، وتفزع نادجدا، وتروح تتوسل إلى زوجها، «أرجوك أن تكلمه، لابد أنه وقع على صحبة سيئة». ويتنهد أندريه: لقد سبق أن جرب كل شىء. من المناقشة الهادئة إلى التوسل والتعنيف. كان القدر يسخر منه. كان الناس يقولون: «إن بوخوف قادر على إعادة تربية المجرمين». وهو ليس عاجزًا إلا مع ابنه، ولم يكن فولوديا يعترض على أى شىء، وإنما يكتفى بنظرة ساخرة من عينين مضيقتين، فيعلم أندريه أن ابنه يضحك منه.

وبعد انتهاء دراسته فى مدرسة الفنون، رسم فولوديا صورة كبيرة موضوعها: «الاحتفال فى المزرعة التعاونية». نالت إطراء كبيرًا، وأعطى ستوديو فى موسكو، وأرسل إلى والدته بعض النقود وكتب إليها يقول إنه اعتزم الزواج، ولكن فتاته تركته لتتزوج، من منتج سينمائى، فأصيب الشاب باستياء بالغ، ولم يكن استياؤه أقل عندما رفضت لجنة التحكيم صورته «اجتماع فى المصنع» عندئذ خانته أعصابه، وعلى غير ما توقع منه هو ذاته لم يتمالك نفسه فى اجتماع للفنانين وهاجم كبار الأساتذة المحترمين، الحائزين على ألقاب وأوسمة مرتين أو ثلاثًا أو أكثر، بعد ذلك تبينوا أنهم أخطأوا فى توفير الاستوديو له، وأن الاستوديو مطلوب لفنان كبير حائز على أعلى التقديرات حديثًا وألغيت، فى الوقت نفسه، المهمة التى كانت قد أسندت إليه لرسم عامل الصلب المثالى، وتبين فولوديا أنه

أخطأ القول، وشرع يحاول استعادة مركزه، فأخذ يهيل المديح على الفنانين الذين جرحهم، وانقلب على أعماله هو، مسميًا نفسه جلفًا ورفيقًا سيئًا. وأخيرًا، أعلن باختصار أنه راحل إلى الأقاليم ليكتسب خبرة بالحياة اليومية لمؤسسة صناعية.

هكذا عاد فولوديا إلى المنزل بعد غيبة طويلة، لم يتحدث بشىء عن فشله، بل على العكس، فإنه أسعد والدته بادعاء أنه أرسل بتفويض خلاق، وأن فى جعبته عملا عظيمًا عن موضوع طليعى.

بعد ذلك بستة أشهر، رأى رئيس تحرير الصحيفة المحلية لوحة رسمها فولوديا لاثنين من العمال يقرآن صحيفة، وأعجب بها جدًا: «موهوب جدًا! انظر إلى تعبير العيون! يجب أن نكتب عنها فى صحيفتنا.» وقيل إن اسم بوخوف سيرشح لجائزة ستالين. وهنأته والدته على نجاحه، فهز كتفيه قائلا: «أتعجبك هذه اللوحة؟ أنا أعتقد أنها من سقط المتاع، لا لأنهم يقدمون ما هو أفضل من هذا فى موسكو. وعمومًا، أنا أفضل ألا أشغل ذهنى بهذا الأمر.»

وذات مرة أسرَّت نادجدا لزوجها: «هذه الفتاة التى كان فولوديا ينوى الزواج منها لابد أنها شديدة الغرور، أنت تعرف أنه سهل التأثر بالآخرين... هل تحب لوحاته؟» فأجاب أندريه على كره منه: «إن طريقته فى التفكير هى التى لا تعجبنى، سمعته بالأمس يتناقش مع سونيا حول أحد الكتب، وكانت سونيا تقول: إن الكتاب ليست فيه أية أفكار، فقال فولوديا: إن الكتّاب لا تدفع لهم الدولة لكى يقدموا أفكارًا «إن الأفكار لا تجلب لصاحبها إلا كسر الرقبة،

إن ما يهم البحث عنه فى أى كتاب هو الأيديولوجية، إن كانت موجودة فماذا تريدين أكثر من ذلك؟ إن المجانين هم الذين يقدمون أفكارًا.» أنت مخطئة حين تظنين أنه يتأثر بالآخرين، الأرجح أن له هو تأثيرًا مفسدًا على غيره، كان هكذا حتى وهو صبى، إنها تلك السخرية اللاذعة الرهيبة...» واختلج صوت أندريه، فانزعجت نادجدا وقالت: «يجب ألا تستسلم للانفعال».

وكانت نادجدا تعتقد أن أندريه، كشأنه دائمًا، يقسو فى الحكم على فولوديا، بينما ينحاز دائمًا إلى جانب سونيا، ولكنها لم تتبين كيف أنه على الرغم من عبادته لسونيا، فإنه يشعر الآن تجاهها بغربة أليمة، وكان أندريه يعتقد أنها غلطته، لابد أنه لم يعد قادرًا على فهم الشباب، وأنه يريدها أن تكون على مثاله عندما كان فى مثل سنها، ومن الأمور المعروفة عمومًا أن الآباء يستعصى عليهم فهم أبنائهم. «لى الحق فى أن أحكم على فولوديا، إنه وصولى، ولابد أن هناك عددًا كبيرًا من أناس فى مثل سنه لا يقرون موقفه، ولكن ما ذنب سونيا معى؟ - لا شىء وإذا كنا لا نتفاهم أحيانًا فليس ذلك إلا لأنى أتكلم بلغة الماضى، إنما الغريب هو أننى لا أشعر بمثل هذا الحاجز بينى وبين تلاميذى، أو بينى وبين سافشنكو أولينا، وربما كلما زاد حبك للناس قلت قدرتك على فهمهم!»

كانت سونيا شديدة التحفظ، نادرًا ما يتحرك حماسها لشىء أن تفتح قلبها لإنسان، ولم يكن خافيًا على والديها، بالطبع، أنها كانت تكن بعض الميل لـ «سافشنكو»، وهو مهندس شاب كان

يتردد على المنزل كثيرا لزيارتها، ولكن، عندما حاولت نادجدا أن تتحدث معها بشأنه، أجابت بهدوء: «إنه إنسان لطيف ولكن لا يجب أن يتجه ذهنك إلى شىء... إن العلاقة لا تعدو أن تكون معرفة عادية.» ودعت والدتها سافشنكو عدة مرات للغداء، مرة فى عيد ميلاد سونيا، وأخرى بمناسبة عودة فولوديا إلى المنزل، وكانت سونيا تعامل سافشنكو معاملة لا تختلف عن بقية المدعوين ولا يطرأ عليها أى تغيير إلا عندما يكونان وحدهما معًا، وعندئذ يصبح وجهها رقيقًا وعيناها أكثر دفئًا، خرجا مرة للنزهة فى أحد أيام الخريف الماضى، ومن حولهما غابات (سبتمبر) مليئة بالألوان الحزينة الرائعة، وتوقفت سونيا لتلتقط غصنًا ذهبى الأوراق، ثم واصلا السير فى صمت، وفجأة أخذها سافشنكو بين ذراعيه، وذهلت هى لحظة فقبلته، ولكنها تمالكت نفسها بسرعة وعادت إلى الطريق، فى مساء ذلك اليوم قالت له: «علينا أن ننتظر. سأعرف فى فبراير مكان عملى... ليس من المفيد أن نرتبط إذا كنَّا فى مكانين مختلفين... أو هل تريدنى زوجة تقضى حياتها فى المطبخ؟ على أية حال فلن تتمكن من الحصول على شقة، لن يعطيك جورافليوف شقة أبدًا، فأنت مازلت حديث العهد فى المصنع.» وانصرف سافشنكو وقد أصابه شىء من الضيق. لماذا هى على هذا القدر من التعقل؟ وما كان ليعرف أنها، بعد انصرافه، انطرحت بوجهها على السرير وبكت: «هل كنت شديدة الغباء؟ نعم، بالتأكيد، ولكن كان لابد أن تفكرى فى المستقبل، المعتاد أن الرجال عمليون، ولكنه ليس إلا فتى صغيرًا، فلابد أن أكون أنا التى تتحدث عن هذه

المسائل، ألا يستطيع أن يفهم أننى أفعل هذا كارهة؟ لا، إنه لا يفهم شيئًا على الإطلاق، ومع ذلك فلا يمكننى الاستغناء عنه.»

هل هى منطقية «باردة» حقًا بالصورة التى يتصورها والدها وسافشنكو، أو أن الأمر لا يعدو مجرد محاولة الظهور بهذا المظهر، اعتقادًا منها بأن كل شىء آخر يجب أن يشطب عليه باعتباره كلامًا فارغًا ومثالية وبلاهة من طراز بلاهة دون كيشوت؟ كانت تحب الأدب بينما هى تدرس الهندسة، وهو أمر لم يستطع والدها أن يتفهمه، فقالت له: «هذا أفيد. يمكن أن أحصل على عمل أفضل.» وإذا بدأت دراستها الهندسية، فقد أصبحت شديدة الشغف بالآلات الكهربائية، ولكنها لم تتوقف عن ترديد: «هذا هو الشىء الذى يزداد عليه الطلب فى هذه الأيام». كانت تحب الشعر، وبخاصة أشعار «بلوخ» و«لرمنتوف»، ولكنها كانت تقول لوالدها: «إذا كان قد بقى مكان للشعر فلا مكان إلا لأشعار ماياكوفسكى.» وهى تساعد والدتها فى أعمال البيت، فإن أمها تستثير إشفاقها، وهى أكفأ من «نادجدا» كثيرًا، تستطيع دائمًا أن تصل إلى خزينة أى محل مهما كان الزحام، وتعرف كيف تستثير مدير العمارة التى يسكنون فيها، وعندما ترى أمها منزعجة لأن والدها يرهق نفسه، تقول: «يجب أن يهتم بشىء ما. إن هذا يساعده على الحياة». وعندما تستمع إلى والدها يتحدث عن التقدم الذى يحرزه «ميشا» ودروس الكيمياء التى يتلقاها «سينيا» فإنها تسأل نفسها: «لكم أبدو مسنة بالقياس إليه؟!»

وعندما هنأته بعيد ميلاده (٦٤)، ابتسم أندريه: هل هناك ما يدعو للابتهاج؟ لقد عشت طويلا ولم أعمل إلا قليلا.» وضحكت سونيا: «إنى أراك فى أتم شبابك.»

وصل ضيوف مأدبة عيد الميلاد، كانوا ضيوف فولوديا: الفنان سابوروف وزوجته، وممثلة فى المسرح المحلى تسمى أورلوفا، وهى مشهورة أيضًا باسم تانشكا، وطبيعى أن «نادجدا» كانت قد دعت سافشنكو ولكنه قال إنه سيلقى كلمة فى النادى وسيمر عليهم متأخرًا.

وعندما جلسوا إلى العشاء استدرج فولوديا برفق صديقه سابوروف لإلقاء كلمة، وحاول هذا أن يملأ مركزه، ولكنه أخذ يتمتم ويتلعثم فلم يفهم أحد كلمة مما قال!

كان فولوديا وسابوروف صديقين من أيام الدراسة ولكن الأيام فرقت بينهما، كان فولوديا يحلم بالشهرة والمال، ويعرف دائمًا أى الموضوعات هى «الطليعية» وأى نوع من الفنانين يكافأ وأيهم يلام، بينما سابوروف يواظب على رسم مناظر طبيعية لا تعرف طريقها إلى المعارض أبدًا، ويبدو أن شيئًا لا يعنيه فى الحياة إلا لوحاته وزوجته جلاشا، وهى امرأة رقيقة وكسيحة، وهى تعمل مصححة فى مطبعة، وتتقاضى أجرًا ضئيلاً يعتمدان عليه أساسًا فى حياتهما، وغنى عن البيان أن ظروف حياتهما سيئة، ومن الطريقة التى يلتهم بها سابوروف قطع الفطير، التى واظبت نادجدا على وضع المزيد منها أمامه، يبدو أنه نادرا ما يأكل حتى الامتلاء، وكانت

جلاشا تنظر إليه نظرات هائمة. ومند زواجه رسم سابوروف، بالإضافة إلى مناظره الطبيعية، عددًا من الرسوم لزوجته، يصورها فيها قبيحة، ولكنه يكسب قبحها سحرًا خاصًا. كان فولوديا كثيرًا ما يقول لوالديه: «إن سابوروف موهوب، ربما أكثر من كل الآخرين، ولكن كانت عنده (صامولة مفكوكة)، إنه ببساطة لا يعرف ما هو المطلوب الآن، وهو لن يصل أبدًا إلى أى شىء.»

وفولوديا يسخر الآن من سابوروف:

«هل ما زلت تحاول تحقيق دورنا التاريخى؟»

وتمتم سابوروف متحدثًا بحرارة عن رفايل، والإحساس باللون، والتكوين، إلى أن قالت نادجدا: «كُلْ» إن فطيرك سيبرد.

وظلت تحتجز الشامبانيا إلى نهاية العشاء، منتظرة مجىء سافشنكو.. وعندما جاء اختلست نظرة إلى سونيا التى كانت تتجادل مع تانشكا حول إحدى المسرحيات، ولم تكلف نفسها عناء رفع بصرها للنظر إلى القادم، وسأل بوخوف عما تم فى الاجتماع، قال سافشنكو:

«لقد دهشت لما قاله كوروتييف، كنت أعتقد دائمًا أنه إنسان ذكى وحسَّاس، ومع ذلك فقد تكلم وفقًا للقواعد المحفوظة، هل قرأت الرواية؟»

وتنهد بوخوف: «لا، ولم أتحدث مع أحد بشأنها. يقولون إنها جيدة.»

«لا أعرف إن كانت جيدة أو رديئة، ولكنها تحرك مشاعرك. فيها قصة حب تعس، وهذا ما لا يستطيع كوروتييف أن يهضمه، كما لو كانت الروايات لا مكان فيها للمآسى الشخصية... فهو لايفتأ يتساءل: (لماذا التنقيب فى العواطف؟، ونحو ذلك، لو كان برينين هو الذى تكلم على هذا النحو لما أثار دهشتى، ولكنى لم أنتظر ذلك من كوروتييف.»

فابتسم فولوديا: «إنه شخص بارع، فلماذا يقول مايعتقده حقيقة؟» ولم يتمالك أندريه نفسه: «لا يفكر الجميع بالطريقة التى تفكر أنت بها. إن كوروتييف رجل شريف، ويبدو أن هذا لايخطر لك على بال.»

وسادت لحظة صمت مربك، كان أندريه قد تكلم بحدة غير مألوفة، ثم عاود سافشنكو الحديث من جديد:

«لقد أسفت أن جاء ترتيب كلمتى فى الاجتماع قبل كلمة كوروتييف، ولكن كانت هناك فتاة تولت الرد عليه، وكان حديثها ممتازًا، أعتقد أنك أخطأت يا فلاديمير أندريفيتش، كان الجميع يتكلمون بصراحة، ربما لم تحضر مثل هذه المناقشات، أخيرًا، لقد تغيرت الأمور بشكل محسوس... إن الرواية تطأ أرضًا غير مطروقة، كثيرًا ما يفعل الناس فى حياتهم الخاصة أشياء تتناقض مع أقوالهم، إن الجمهور يتوق إلى مثل هذه الكتب.»

وصاحت تانشكا: «الشىء نفسه بالنسبة للمسرحيات. تصوروا، عندنا ثلاث مسرحيات جديدة كلها فاشلة... ولا واحدة منها تستحق أن تمثل... الفن...»

وقاطعها سابوروف: «أنت على حق. لقد آن الأوان أن نتذكر أن هناك شيئًا يسمى الفن، قل ما شئت يا فولوديا، لا أستطيع أن أجادلك. ولكن فن رافايل شىء آخر غير التصوير الفوتوغرافى الملون.»

ورد فولوديا باستخفاف: «إن رافايل لن يقبل عضوًا فى اتحاد الفنانين، لا يمكن أن نكون كلنا مثلك، نرسم تحفًا لعام ٢٠٠٠. ولا أكون مغامرًا إذا راهنت على أن تحفك سوف تستثير اهتمامًا كبيرًا عام٢٠٠٠.»

وغمغمت جلاشا: «لا تقل هذا يا فلاديمير أندريفيتش. لو رأيت لوحته الأخيرة لمنظر خلوى، إنه معجز»

واستمر سافشنكو: «ومع ذلك لا أستطيع أن أفهم كوروتيبف، لقد اشتغلت معه ما يقرب من عام. إنه إنسان صادق وحَيىّ، تحس ذلك فى كل كلمة يقولها. لماذا هاجم زوتوف؟»

وقالت سونيا: «لقد قرأت الرواية، وأنا أتفق تمامًا مع كوروتيبف، لا يكفى أن يسيطر الإنسان السوفييتى على الطبيعة، وإنما عليه أن يسيطر على مشاعره أيضًا، إن الحب عند زوتوف نوع من الحب الأعمى. ومهمة الرواية هى أن تثقف القارئ، لا أن تشوشه.»

وتجرع سافشنكو، فى غمرة انفعاله، ما فى كوبه دفعة واحدة:

«إنه ليس حبا أعمى، ولكنه حب كبير، ولا يمكنك أن تضعى كل الأشياء، ببساطة، فى خانات»

وفكرت نادجدا: «إنه يحبها فعلاً، كم هى باردة، تشبه من يا ترى؟ لا هى تشبه أندريه ولا هى تشبهنى..!»

وفجأة شرع الجميع، ربما من أثر الشراب، يتكلمون فى الوقت نفسه، وبصوت مرتفع، كان سابوروف يصيح بكلام عن «قوة الألوان»، وقفزت تانشكا وهى تردد: «الحب هو الحب، قولوا ما شئتم. وفولوديا يقلدها، وكفَّاه متعانقتان يلوح بهما فى حماس.

وقف أندريه إلى النافذة ينظر إلى الثلج المتساقط فى الخارج، تلفه أضواء حادة بيضاء، وفكَّر «لا أستطيع أن أفهم سونيا. هل قالت هذا الكلام لمضايقة سافشنكو؟ لا، إنها تتكلم بالطريقة نفسها فى غيابه، لابد أنها على صواب، بطريقتها الخاصة، ومن أكون لأقيم ما تقول؟ لقد تقدمت بى السن كثيرا.»

وانتهزت سونيا فرصة الضجيج وتسللت إلى غرفتها دون أن يلحظها أحد. وجلست على السرير دون أن تضىء النور. أحست بالحاجة إلى أن تنفرد بنفسها، ولو برهة وجيزة، وفكرت: «لقد فقدت صوابى حقًا. يكفى أن ينظر إلىَّ لكى أصبح غير طبيعية، وأعجز عن الكلام والتفكير، هذا مخيف! يجب أن أتمالك نفسى وألا يختلف سلوكى إزاءه عن سلوكى إزاء الآخرين، وإلا فإنه سيحتقرنى، أهاننى الليلة مرة أخرى إذ قال لى لا يمكنك أن تضعى كل الأشياء فى خانات... ياللسخف! لو أن هذه هى فكرته عنى فإنه لا يفهنى على الإطلاق. عندى مشاعر لا تقل عن الآخرين، بل إن حساسيتى أكثر من اللازم، ولكنى أكره المظاهرات العاطفية، أنا أكرهها حقيقة.»

ودخل سافشنكو الغرفة، ولم يستطع رؤيتها، فمد يده ومس كتفها وأخذها بين ذراعيه وقبلها.

«أنت مجنون، ربما يدخل علينا أحد.».

«إلى متى ستظلين منطقية إلى هذه الدرجة؟ لو أنك تحبينني..»
نهضت، وأضاءت النور، ونظرت إليه وهى فى أشد حالات الغضب:

«حسن، هذا يدل على أننى لا أحبك. اسمع، يجب ألا نعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى.»

«اصبرى. سأقول لك...»

«لقد قلت ما فيه الكفاية يجب أن أعود الآن وإلا فإنهم سيلاحظون سيتألم والدى، إنها ليلته.»

سار سافشنكو عائدًا إلى منزله كاسف البال، مغطى بالثلج، وهو يتذكر كيف أسرع من النادى إلى منزل أسرة بوخوف، وهو يحلم كالأبله بالسعادة. «أنا فى الخامسة والعشرين من عمرى، لقد انتهى شبابى، يقول كوروتييف إننى رومانتيكى، وإننى ميال للمبالغة، وإننى أترك نفسى تميل مع الهوى، إنه على صواب، من المستحيل أن تسير الحياة على هذا النحو. ربما هو على حق تمامًا، لماذا يكون الحب مهمًا إلى هذا الحد؟ أنا أقوم بعمل مهم، وأنا موضع ثقة كوروتييف. ولاتزال أمامي اختبارات عديدة، نحن نعيش في زمان عجيب، هل يتصور شاب مثلى يتحسر على حبه التعس فى ربيع عام ١٩٤١! وبعد ذلك بفترة وجيزة يحارب دفاعًا عن ستالينجراد! أنا

أتذكر عمى «لينيا» حين جاء يقضى إجازة. كنت أتابعه وهو يجيب على أسئلتى، ويشرح كيف يستخدمون مدافع المورتر ويبنون جسرًا عائمًا، أرانى صورة فتاة وقال: «جيريشا»، لقد عثرت على سعادتى.» وقتل بعدذلك بستة أشهر، إن الحياة عملية شديدة التعقيد حقًا... ها أناذا، أفكر طول الوقت فى سونيا، وبسببها تذكرت العم لينيا، أنا الآن عاجز عن الذهاب لرؤيتها، هل يمكن أن تكون مشغولة بحب شخص آخر؟ لن تقول أبدًا إنها كانت تحب، فهى شديدة الكبرياء، أما أنا فلست كذلك، فأنا على استعداد للاعتراف لأى إنسان، لقد عثرت على سعادتى، وأنا الآن أفقدها.»

وقالت سونيا لوالدتها إن الشمبانيا سببت لها صداعًا، وإنها ستستيقظ مبكرة لتعيد تنظيف المكان وترتيبه، أما الآن فيجب أن تذهب إلى الفراش.

واستلقت على السرير من غير أن تخلع ملابسها وهى تفكر فى سافشنكو. «لقد فقدت صوابى، بالتأكيد، وأعتقد أنه أيضًا كذلك... ولكن لماذا ينتهى الأمر بيننا دائمًا بالشجار؟ إن شخصيتينا جد مختلفتين. والحب وحده لا يكفى، كيف يمكن أن تشاركى الحياة إنسانًا لا يفهمك، يجب ألا أفكر فيه، إنه إنسان طيب ومستقيم وشريف، ولكن ليست هذه هى القضية، ولا حتى أننى أحبه، يجب أن يتحكم الإنسان فى مشاعره. وهو على صواب فى شىء: من أسوأ الأمور أن يفعل الإنسان غير ما يقول. من الأفضل أن يرسلونى بعيدا، إلى الأورال، أو إلى سيبيريا. عندئذ ستختفى

المشكلة، أنا على يقين من ذلك. ولكن هذا ضعف، ليبقونى هنا وسأتمكن من مواجهة المشكلة، هذا أشبه بامتحان آخر وسأرى إن كنت أستطيع السيطرة على نفسى. أستطيع قطعًا، ولكن كم فى ذلك من تعاسة.»

قال فولوديا لتانشكا إنه سيوصلها إلى منزلها، كانت تسكن بعيدًا، وفاتهما آخر أوتوبيس، وأراد فولوديا أن يركبا تاكسى ولكنها قالت إنها شربت كثيرًا، وإنها بحاجة إلى شىء من الهواء النقى، وكان فولوديا يحس بضيق، فلا بأس من تمضيه بعض الوقت، سيرًا فى العاصفة الثلجية! وظلت تانشكا تتكلم دون انقطاع، إنها تحب والد فولوديا، فهو عطوف وسيم لا، إنها لا تمزح، فهى تعنى أنه وسيم ومرموق، وهى لم تفهم كلمة مما قاله سابوروف، ولكنها تحبه أيضًا، إن الإفراط فى الشرب فكرة سيئة، إنها تشعرك فيما بعد بالابتئاس، كان واضحًا تمامًا أنها تحس بتعاسة، ولكنها ما كانت لتفكر فى ذلك، فهذا أمر لا يستحق التفكير.

إن تانشكا لا تزال تحتفظ باستقامة طفل، على الرغم من أنها فى الثانية والثلاثين من العمر، اشتغلت منها تسع سنوات فى مسارح الأقاليم بين أناس لا ينفرون من شىء مثل نفورهم من الحذق وسلامة النية، كانت تعمل بضمير حى، وهى تعتبر قديرة وتمكنت من شق طريقها بالتدريج، وهى الآن غالبا ما تقوم بأدوار رئيسية، ولكنها كانت تشعر فى أعماق قلبها بالتعاسة.

«لماذا؟»

كانت فى طفولتها تحلم بحياة المجد والمأساة، ويمكن أن نستنتج ماحدث ليعيد إليها تعقلها. لقد أخذت تتبين أن الموهبة تنقصها، والحق أن المواهب عمومًا نادرة، والناس الآخرون يقنعون بالمهارة الحرفية، ورأت بعينيها الدسائس و«الشلل»، والممثلين الهواة والمبتدئين، والغرف الصغيرة فى الفنادق القذرة، والأعمال التافهة والتعاسة الوفيرة، وأصبحت تانشكا حزينة، وغطت وجهها تجاعيد صغيرة من أثر الأصباغ، هكذا تطمئن نفسها. كانت تبدو فى الظاهر مستسلمة مستكنة، ولكن فى أعماق قلبها لا يزال يعيش حلم: فى مكان ما لابد أن توجد حياة أفضل وأكثر رحابة، وأن تانشكا ببساطة قد ضلت طريقها.

منذ مدة طويلة، حوالى سبع سنوات، قررت أن تتناول السم بعد أن قال لها الممثل جروموف، الذى كانت تعبده: «يجب أن نفترق، فقد أصبحت العلاقة بيننا متلفة لأعصابنا.» كان جروموف هو حبها الحقيقى الأول، وكانت تعتبره زوجًا، وبعده كان هناك آخرون: كولسنيكوف، وبورودين، وباتيا، وقد تعلمت أن تعطى نفسها بلا أوهام، وتفترق بلا حزن كبير، وقبلت فولوديا علاجًا لوحدتها، دون أن تسأل نفسها إن كانت تحبه، فضلا عن أنه كان لحوحًا، فلقد أخذ يجادل ويتوسل.

كان لطيفًا معها، فلم يكن يثير غيظها إلا بقدر، بينما هو غالبًا ما يثير البهجة فى نفسها، كان يأخذ المسائل بخفة تنقصها، وحين

تشكو من افتقارها إلى الموهبة، ومن انعدام الأدوار المهذبة الراقية، ومن أنها ضاقت بكل شىء، كان يلهيها بقصص هزلية أو نوادر خبيثة عن ممثلين مشهورين ممن عرفهم فى موسكو، أحيانًا كانت أفكاره عن الحياة تضايقها، وأحيانًا أخرى تضحكها، كان من رأيه أن الجميع (أرزقية)، وأن هذا أمر لا يجب أن يثير الدهشة، إن نبات «اللفت» أكثر ضرورة من الفن، ومع ذلك لم يفكر أحد فى إحاطة «اللفت» بالهالة التى تحاط بها الأشياء المهمة، ولا فكر أحد فى عمل دراما عن عرض قضية اللفت، إن الناس يكتفون بزراعة اللفت وتقديمه فى وجباتهم. يجب أن يحيا الإنسان حياة طيبة بقدر استطاعته، وليس فى الحياة إلا أشياء قليلة طيبة قطعة من سماء تمزقها السحب ينظر إليها الإنسان من شباك أو صوت صفارة سفينة يصل إلى الأسماع ليلا.

تعود كلاهما على الآخر، إذا تغيب فولوديا طويلا تنزعج تانشكا.

وكان فولوديا يقول لنفسه فى دهشة: «ليس فيها شىء غير عادى، ومع ذلك فأنا أشعر بميل نحوها.»

سارا طويلا، العاصفة تزمجر، وفولوديا يحس برغبات مضطرمة، وتانشكا تواصل الكلام.

«حدثنى عن لوحات سابوروف، ما شكلها؟»

«منزل وشجرتان، أو شجرتان ومنزل، إنه لا يؤمن بأى نوع آخر».

«لماذا؟»

«يقول إن هذا هو التصوير.»

«وما رأيك أنت؟»

«فى رأيى أنه مصاب بالشيزوفرينيا (الفصام العقلى)، لم يحدث أن اشترى أحد شيئًا من لوحاته.»

«سأقول لك لماذا ترى هذا الرأى. إن لوحاتك ليست إلا (أكل عيش). نعم، إنها كذلك، أما هو فليس مصابًا بالفصام العقلى، ولكنه فنان، يمكن أن ترى ذلك على الفور، أريد أن أرى لوحاته. منزل وشجرتان، ليس فى هذا ما يدعو إلى التندر، كفاك ادعاء، ولا تقل لى إن الخمر قد لعبت برأسى، لقد شربت كثيرا، طبعًا، ولكنى سأقول هذا الرأى نفسه غدًا، أنت ترسم من أجل الحصول على نقود، لماذا تريد الحصول على هذا القدر الكبير من النقود؟ إن سابوروف...»

«هل تحبينه؟»

«لا تثر اشمئزازى، ولكنى أحسد زوجته، إنه يحبها.»

«لا. هو يرسمها وهى تحبه، هذا هو تقسيم العمل فيما بينهما، لابد من وجود شخص يطرى أعماله، وقد عثر على جلاشا، إنها تحملق فى روائعه وتصيح: «هذا إعجاز».

ليس فى هذا ما يدعو إلى التندر على الإطلاق. هذا شىء مؤثر. ومن أحسن الأمور أنها قبيحة وعرجاء... أما أنت فليس فى مقدورك أن تحبى أبدًا...»

«آه. لقد وصلنا إلى صميم الموضوع، التحليل النفسى، ورؤية البخت فى الفنجان فى الساعة الثالثة صباحًا، البطل رسام «أرزقى» عجوز، والبطلة ممثلة مخلصة مزقتها الحياة قليلا.»

توقفت تانشكا ونظرت إليه عابسة: «أنت تعرف أن حركاتك هذه تمرضنى، إن لم يكن بإمكانك أن تتكلم كإنسان فخير لك أن تصمت.»

وظلا صامتين إلى أن وصلا إلى منزلها، وأراد فولوديا أن يدخل ولكنها صفقت الباب فى وجهه.

جلست وهى لا تزال تلبس معطف الفراء،دون أن تخلع وشاح الرأس. وانصهرت ندف الجليد وتحدرت قطراتها على وجهها ممزوجة بدموعها، وقالت لنفسها: «هذا من أثر الشمبانيا.» ثم: «إن سابوروف إنسان مرموق. لابد أنه يزدرينى، لقد قلت لفولوديا إنه يرسم من أجل النقود، فماذا أفعل أنا؟ سقط! الفرق هو أن فولوديا عذره أقل، أنا لست إلا ممثلة متوسطة، مم يسمونه ترس فى العجلة، ولكنه من أولئك الذين تناقش أعمالهم، ويكتب عنهم، ويؤخذون مأخذًا جديًا، ليس هناك من يعرف أنه أجوف، وأن قلبه فارغ، لذلك فهو يضحك من كل شىء، ولو شنق نفسه فلن يكون فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة، وأنا لا أستطيع أن أساعده، أنا أيضًا جوفاء فارغة، إن جلاشا تحب سابوروف، فهل أحب أنا فولوديا؟ ليس هذا حبا، لقد عقدنا مجرد اتفاق لأنه من المخيف، جدًا أن يكون الإنسان وحيدًا، وهو لا يحبنى أيضًا. ما أسوأ ما انتهى إليه

كل شىء، عندما كنت فى معهد التمثيل كنت أسير فى الشارع وأفكر، لابد أن هناك، عند المنعطف القادم، السعادة... جاء وقت النوم، عندنا «بروفة» فى وقت مبكر... يقولون إن الخمر تبعث النوم فى الجفون، ولكن أثره علىَّ معكوس. كيف يمكن أن تنامى إذا بدأت تفكرين فى كل شىء... لتحاولى العد من واحد إلى ألف.. وعلى أية حال، إن سابوروف على حق، هناك شىء يسمى الفن.»

جلس فولوديا فى التاكسى كاسف البال، «عندما تشرب تانشكا فإنها لا تطاق، ومهما يكن فأنا أميل إليها، هذه حقيقة، لابد أنها عرفت أننى لاأريد أن أكون وحيدًا هذه الليلة ولذلك لم تدعنى أدخل، ليلة فظيعة. ومناقشات فظيعة عن الفن، إن سابوروف موهوب، هذا صحيح، ولكن الشخص الذى يرسم ليضع لوحاته فى الدولاب لا يمكن إلا أن يكون مصابًا بالفصام العقلى، لمن يرسم هذه اللوحات؟ ربما لزوجته الكسيحة؟ كل الناس يتصايحون عن الفن ومع ذلك ليس هناك من يوليه أدنى رعاية، هذا من سمات عصرنا، لا عجب أن تكون تانشكا متأثرة، إنها تحلم فى أعماق قلبها بالفن تحيطه هالة من الجلال، يا حبذا لو أمكنها أن تحب إنسانًا متماسكًا صلبًا كيماويا أو مهندسًا زراعيا، إنها فى أمس الحاجة إلى شىء من السعادة. لماذا حملت علىَّ بهذا الشكل، أنا أنتج فنًا للارتزاق، هكذا يعمل الجميع، وإن كان لا يعترف الجميع بذلك، وهى تظن أننى مولع بجمع النقود، حسن، ولكن يجب أن يدبر الإنسان أمر معاشه، هذه حقيقة، لقد رأيت أيامًا رهيبة فى موسكو قبل أن أغادرها... من المضحك أنه إذا كان معك نقود فأنت تدعى

هنا وهناك ويستضيفك الناس ويرحبون بك، أما فى تلك الأيام فلم أجد من يكلف نفسه مأونة النظر إلىَّ، وكان من حسن حظى أن تمكنت من التسلق زاحفًا بمثل هذه السرعة، فهل هذا جريمة؟ هل آذيت أحدا؟ لو كان الأمر بيدى لعرضت أعمال سابوروف على الفور، إنه موهوب حقًا، ولكن ليست هذه هى القضية، ليست هناك أية عدالة، وأنا أراهن على أن سابوروف أيضًا، يريد أن يعيش، لماذا قلت إنه مصاب بالفصام، هو ليس إلا رجل عادى، وكل ما به أنه عنيد كالبغل، كان مضحكًا أن يشرب سافشنكو كأسين من الشمبانيا ثم يتعلق برقبة سابوروف، إن سافشنكو جامد العقل، ماذا ترى سونيا فيه؟ إنها ليست غبية، عندما يتحدث والدى عن الأفكار، فذلك وضع سليم، لقد نشأ فى ذلك الزمان الذى كانت فيه ثورة رومانتيكية، ولكن سافشنكو ليس إلا مهندس عادى. وإن عمله يتعلق بالآلات لا بالأفكار، لماذا يتناصح؟ هذا الأحمق، كل واحد يحاول أن يسير أموره، ويناور، ويكذب، والفارق الوحيد هو أن البعض يتقنون الصنعة بينما الآخرون يفسدونها، أنا متأكد أن سافشنكو يحسدنى، لا أتذكر متى بالضبط ولكنى أتنبه عندما ينتابنى هذاالشعور، عندما أبيع إحدى لوحاتى بمبلغ يعدل أربعة أمثال ما يتقاضاه هو فى شهر، وربما يعتقد أننى سعيد، ولكنه أسعد منى كثيرًا لأنه أشد غباء بمراحل، لقد ضجرت بكل شىء، بالمناسبة، لابد أن أستيقظ مبكرًا،غدًا آخر جلسة فى صورة جورافليوف. إن له وجهًا مثل قطن التنجيد القذر، ومع ذلك فقد صنعت منه شخصًا وسيمًا ـ أحد قادة الصناعة السوفييتية، رأس مرفوع ونظرة تعبر عن إرادة حديدية، لو

اشتراها المتحف حقًا، كما يقول ماسلوف، فمعنى هذا أننى سأحصل على عشرين ألف روبل، هل أشترى سيارة «فيكتورى» ما أجمل أن تقود سيارتك على الطريق. كل شىء يهف مسرعًا على جانبيك، ولا يتسع وقتك للنظر إلى أى شىء، كلا، إن الأمر لا يستحق، ربما كان من الأفضل أن أعطى نصف المبلغ لوالدتى، هى لا تقول إن شيئًا ينقصها، وأبى مستمر فى إعطاء كل ما يصل إلى يديه للآخرين، إن جورافليوف عنده زوجة وسيمة، رأيت صورة لها رسمها تنتوريتو؛ شعر أحمر، وبشرة شاحبة، وعينان زرقاوان، ولكن أى شىء تشبه حقيقة؟ ربما تسبُّ حين تذهب لشراء حاجات من السوق، وتثرثر بسرور مع صديقاتها: «إن مخازن الجمعية فيها أحذية من باريس»، شىء مزعج، أنهى سابوروف الفودكا، يمكن أن أقنع بكأس الآن، فى اللجنة الدائمة فى موسكو، لعن كريوكوف الفنانين لتشاؤمهم وصاح: «يجب أن يكون عندنا تفاؤل»، ثم أخذ يشرب ويشرب إلى أن حملوه إلى المستشفى... لماذا توجد كل هذه الكميات الهائلة من الثلوج؟ ما أتعس أن تحس بأنك لم تعد تريد أن تستمر فى الحياة...»

جلس أندريه بوخوف فى كرسيه ذى المساند وعيناه مغمضتان. وتذكر كلمات فولوديا وهو فزع. «إنه من الخداع! يخطب فى اجتماعات المناضلين، ويطالب بأن يكون للفن مضمون، ويرسم العمال ثم يتحدث بهدوء عن أن كل الناس كذابون، لا، لا يجب أن أعود إلى التفكير فى هذا الأمر، ما أعظم سرورى أن سونيا إنسانة

مستقيمة، طبيعى أن أجد التفاهم مع سافشنكو أسهل... ولكنها مستقيمة، وهذا هو المهم، لا يجب أن نتوقع أن يكون الناس جميعًا متشابهين لماذا يجب أن تكون سونيا مثل سافشنكو؟ هذا ما أتمناه أحيانًا، ولكنه أمر سيئ، إنه التضجر عند الشباب، أنا فى حالة مزاجية سيئة، حفلات أعياد الميلاد شىء لطيف عندما تكون طفلا، ولكنها الآن تخيفك، والآن هذا القلب التعس...»

لقد قال لزوجته إنه يشعر بأنه على خير حال، وكانت فكرة لطيفة منها أن تحتفل بعيد ميلاده، وكانت الحفلة رائعة... والآن يجب أن ينام.

فى الآونة الأخيرة أخذت تنتابه المخاوف من الليل، كخوفه من رحلة إلى بلد بعيد مجهول، وتزداد مخاوفه سوءًا إذا رقد، ضربات القلب، والآلام فى ذراعه اليسرى، ودوار الرأس. إنه لا يستطيع أن يرتاح، كما لا يحب أن يتقلب خشية أن يوقظ زوجته.

من المؤلم أن يعيش ليتحمل كل هذا، وفكر: «ليس الموت هو ما يخيف، ولكنها تلك الحال، وتنسى أنك تريد أن تقوم بعمل ما ولا تستطيع.» وغمرته موجة من الكآبة، لم يكن مصدرها ذهنه وإنما جسده، وشعر أنه يريد أن يتثاءب بصوت مرتفع، أن ينفجر باكيًا، وكانت نادجدا نائمة، وبعث تنفسها المنتظم مزيدًا من الخوف فى أوصاله، وجاءته لحظة أحس فيها: «أنا أموت. لا يجب أن يصدر عنى صوت، ناديا نائمة.»

وحمل نفسه على التفكير فى أمور سهلة بسيطة، غدًا، يجب أن يرى والدة سيريوجا، لا عجب أنها كانت تعانى المتاعب، ولا يمكنها أن تكسب أكثر من ستمائة روبل كل شهر من عملها فى الآلة الكاتبة، ولكن سيريوجا له موهبة فذة فى الرياضيات ويجب ألا يترك المدرسة. وقد تحدث أندرى إلى نادجدا، وسيحاولان تقديم شىء من المساعدة،

ولسبب ما حضرته صورة زوجته وقت أن كانت فتاة صغيرة. كان شعرها يشبه شعر سيريوجا، حتى فى خصلته العالية، وكانت تلبس معطف جندى. «كانت ناديا شجاعة، عندما كنَّا محاصرين فى روستوف كانت تتوسل إلينا طالبة بندقية، متى حدث ذلك؟ شىء رهيب أن تمتد الحياة كل هذا الزمان، وأنت تلقى نظرة على الماضى ولاتستطيع أن تصدق، وفضلا عن ذلك فأنت تظل على حالك، بلا تغيير، وتنسى أن عمرك قد تغير، إن ناديا لا تزال شجاعة، كل ما هناك أنها تخاف علىَّ، وأنا أخاف عليها، كيف يمكن أن تواصل الحياة وحدها؟ لقد عشنا حياتنا كلها معًا.»

الآن، إن تنفسها الرتيب يحرك فى نفسه جنينًا حزينًا، وعنَّ له أنه يود لو يحيا فترة وجيزة أخرى، حتى وهو على هذا القدر من المرض والوهن، وخفت آلام قلبه، وأصبحت هى الآلام المزمنة التى تعودها، وأحس بارتياح إذ تبين أنه ربما ينام بعد قليل، وفجأة أحس بخدر يملأ الدنيا ودب الكرى فى جفنيه وهو يفكر: «أنا مسرور أنه ليس الليلة. يبدو أنك ستظل دائمًا تريد أن تحيا، إلى آخر لحظة.»

٤

لم تنم لينا إلا فى الصباح الباكر، واستيقظت متأخرة فى اليوم التالى. وكان يوم أحد. وفكرت من فورها: «يجب أن أصارحه بكل شىء اليوم. ليس هذا من الأمانة فى شىء». ولكن، عندما توجهت إلى غرفة المكتب، وجدت فولوديا يضع اللمسات الأخيرة فى الصورة. وأصر إيفان على أن تراها.

«إنها جيدة فى رسم الشبه. أنا أكثر سمنة فى الواقع، ولكن التعبير سليم تمامًا. لا شك فى ذلك».

وابتسم بوخوف متلطفًا:

«إن ملامح زوجك ليست حادة، وتصويره صعب. ولكنى حاولت أن أنقل المحتوى الداخلى».

لم تقل لينا شيئًا، وغادرت الغرفة. وتساءلت فى عجب: «لماذا قال «المحتوى الداخلى» وهو يبتسم هذه الابتسامة الصغيرة؟... عجيب أن يكون لأندرى إيفانوفيتش ومثل هذا الابن. هل يمكن أن يكون فى العالم عدد كبير من الناس يكذبون بشكل مستمر؟ مثلى...

«سأذهب لشراء شئ من عسل النحل. إن شوار تحبه. يجب أن أتنسم شيئًا من الهواء الطلق، فرأسى ثقيل، ولا أستطيع تركيز ذهنى فى شئ. والجو جميل، لا يكاد يصدق بعد ليلة كهذه. عند عودتى سيكون الرسام قد انصرف... ،سأقول: «يجب أن أقول لك كل شئ...».

كان الجو صافيًا ومثلجًا، والشمس قرمزية كما تظهر فى كتب الصور، وأكوام ثلج بيضاء تكاد تخطف الأبصار. وفى مناسبات أخرى كان مثل هذا الجو يسعدها، أمّا اليوم فهو يثقل على نفسها. كان الثلج فى كل مكان، وفكرت: «كم يبعد الربيع عن اليوم؟ زمانًا لا ينتهى! وماذا سيكون قد آل إليه أمرى عندما يأتى؟».

لم تتمكن من رؤية إيفان بمفرده. كان خيتروف قد جاء، وأعلن الاثنان أنهما ذاهبان للصيد، على الرغم من أن الوقت متأخر. ونفخ إيفان من منخره فى حبور وهو يقول: «ربما أحضرت معى أرنبًا بريًا للعشاء». فأحست بارتيا: «سيأتى متأخرًا، يجب أن أؤجل الموضوع إلى غدٍ... فعلى أية حال أنا لم أبت فى أى شىء بعد، ولست أدرى ماذا أقول...».

وفى اليوم التالى كان ثمة اجتماع طويل للجنة، وأجلت المحادثة مرة أخرى.

وفى كل صباح، بمجرد أن تستيقظ وتسمع كحة زوجها الصغيرة، تتذكر كل شىء وتفكر: «يجب أن أحزم أمرى. لايمكن الاستمرار على هذه الحالة». ثم تذهب إلى المدرسة، وتستحث ميشا لبدكين على مذاكرة دروسه، وتتناقش مع ضابط الدراسة، وتقرأ أبياتًا من

أشعار «نكراسوف» لتلاميذها محاولة أن تعبر عن الرومانسية الحزينة من كلماته، ويغلبها التأثر بها. وبعد الحصة الأخيرة غالبًا ما يكون ثمة اجتماع لمجلس الآباء، أو ندوة لمناقشات فى الماركسية اللينينية، أو اجتماع لجماعة هواة المسرح. وهكذا تمر الأيام.

قطَّب إيفان وجهه: «لقد فقدت لينا إحساسها بقياس الأمور. من المستحيل أن يرهق إنسان نفسه إلى هذا الحد». على الفطور، وعند المساء، كان يحاول أن يجذب انتباهها. لقد جاء برينين، ومعروف عنه السرحان، هذا الصباح إلى المصنع وهو يلبس معطف زوجته، وكان فى غايةالانزعاج إذ تصور أنه فقد جزءًا كبيرًا من وزنه، فالمعطف فضفاض عليه. وبعد قليل جاءت زوجته مهرولة. وكادا يموتان من الضحك... وضحك إيفان عاليًا، ولكن دون بشاشة، وحاولت لينا أن تبتسم.

وقالت لنفسها وهى فى الطريق من المدرسة إلى المنزل: «إن سلوكى لا يتصف بالأمانة. كيف يمكن أن أواصل الحياة مع رجل لم أعد أحبه، بل ولا أحترمه؟ كان يجب أن أصارحه منذ وقت طويل. ولكنه لن يوافق على أن يترك لى شورا. وستحدث مشاجرات لا تنتهى، وتعانى الطفلة الكثير. ليس من حقى أن أفسد عليها حياتها. وإذًا، فماذا يجب أن أعمل»؟

وفى يناير هب مزيد من العواصف الثلجية، وكبرت أكوام الثلج، وبينما هى تجتاز طريقها إلى بيتها كانت تحس: «لا أستطيع تحمل هذا العبء. أظن أن يومًا آخر يكفى لكى ينهار قلبى».

وبمجرد أن تعود إلى المنزل تتوجه إلى غرفة شورا. فإن كانت نائمة أو هى تلعب مع والدها، فإن لينا تتنقل فى أرجاء الشقة

بفتور. وكانت الغرف تبدو غريبة وكأنها لم تعش فيها. وهى تنظر حولها إلى الستائر التى حاكتها يداها بكل عناية، وإلى التحف الصغيرة التى جمعتها، والكرسى ذى المساند الموضوع تحت المصباح . كل هذه الدعة التى خلقتها والتى تبدو أمامها الآن كأشياء معادية.

وكانت تطمئن نفسنها أنه ليس لشىء مما هى فيه علاقة بديمترى، فهى لا تفكر فيه: لقد كفا عن رؤية بعضهما وماذا سيترتب على ذلك؟ غير أنها فى الحقيقة كانت تفكر فيه طول الوقت. «هذا هو الكرسى الذى كان يجلس عليه وهو يحكى لى كيف احتلوا، فى مدينة (بريسلاو)، الطابق العلوى لأحد البيوت بينما الألمان لا يزالون فى الطابق الأسفل. حدث ذلك عندما قتل الملازم بابوشكين، كان عازف بيانو. ثم انتقلنا إلى الحديث عن الموسيقى. وفجأة وتف ديمترى وقال بصول خفيض: «أنت مازلت صغيرة يا إلينا بوريسوفنا، من الصعب عليك أن تفهمى... هناك لحظات يتجمد فيها القلب، ثم فجأة يبدأ شىء ما فى الحركة...»».

لماذا انتهى كل شىء على هذا النحو السيئ؟ كانت غلطتها، فهى التى أقحمت شيئًا مخيفًا لا علاج له فى صداقتهما. وقد أوقفها عند حدها فى الوقت المناسب تمامًا. ولكنها الآن لن تراه. ومع ذلك، فإن أقل من القليل يكفى لإنقاذها: ليته يأتى ولو نصف ساعة، وليتحدث عن أى شىء يحب، ليقل إن الجو بارد أو إنه لا توجد روايات جيدة، إن هذا يكفى طالما هى تشعر بوجوده... لا، هذا شىء سخيف ومهين. هكذا كانت بطلات الروايات يسلكن فى الماضى عندما لم يكن يشغلهم أى شىء آخر. إنها امرأة سوفييتية وعندها إحساس بالكرامة، وهى ليست بحاجة إلى صدقة منه. ليس ديمترى

هو المشكلة. ولو أنهما تقابلا صدفة فى الشارع أو فى النادى لابتسمت وقالت كلمة ود أو كلمتين لكيلا يتصور أنها جرحت. إن مشكلتها هى زوجها.

إنها ترفض أن ترى أى علاقة بين إحساسها نحو كوروتييف وبين ما تشعر به إزاء حياتها الزوجية. ألم تلتق به بعد أن كفت عن حب إيفان بفترة طويلة؟ غير أن قربها من إيفان أصبح لا يطاق بعد تلك الليلة فى النادى التى تبينت فيها أنها تحب ديمترى. فى الصيف الماضى كانت تنظر إلى ديمترى كصديق، وها هى تشعر الآن أنها بلا أصدقاء، وأنها لو تركت زوجها فلن تجد من يفهمها أو يسرى عنها. ومع ذلك فإن الفكرة تلح عليها الآن بالذات، وبعدما أن فقدت ديمترى، أن تفترق عن إيفان، وأن الكشف عن كل ما فى صدرها نحوه سيزيح عنها أدرانًا قاتمة ومشينة. غير أن كل مرة تصل فيها إلى هذه النقطة كانت تفكر فى شورا، وتؤجل الموضوع. لو أنها تعثر فقط على إنسان تتحدث إليه!

ضحكت من نفسها غاضبة. إنها فى الثلاثين من عمرها ولا تستطيع أن تحزم أمرها، هى تريد أن يبت غيرها فى أمورها. «هذا شىء مخجل. لو قال لى أحد، يوم انضممت إلى الكومسومول، إننى سأصل إلى هذه الحال لكنت أول من يقول: «ألقوا بى إلى الخارج، فورًا». ومع ذلك فقد ظلت تتمنى أن تجد إنسانًا تثق فيه، إنسانًا تسأله إن كان من حقها أن تتصرف فى مصير شورا.

وفكرت أن تكتب بالموضوع إلى والدتها، خطرت لها الفكرة فى وقت مبكر يعود إلى الخريف الماضى، ولكنها عدلت عن ذلك،

وصرفت النظر عن فكرة الحديث إلى والديها إذا ذهبت لزيارتهما». «والدتى أحكم منى. هى أكثر خبرة بالناس، غير أنها لن تفهم مثل هذه المشكلة على الإطلاق. كل ما سيحدث هى أنها ستحزن أن يكون لها مثل هذه البنت».

كانت أنتولينا بافلوفنا كلاشكوفا، والدة لينا، رئيسة المزرعة التعاونية المسماة «الطريق الأحمر». وهى امرأة ذكية محنكة. تزوجت فى سن مبكرة. وكان زوجها رجلا رقيقًا حالمًا يهوى تدليل الأطفال ويمضى أمسياته يحفر على الخشب حيوانات صغيرة. وتسأل أنتونينا: «ما هذا؟ خنزير؟» فيبتسم فى خجل ويجيب: «فيل. لتلعب به لينا...» كان سلوكه دائمًا اعتذاريًا، إن كان يحفر لعبًا على الخشب، فهو إنما يفعل ذلك من أجل الأطفال. وعندما كبرت لينا وأخوها سيريوجا، وجد سربًا آخر من الأطفال يرعاهم ويهديهم حيواناته الصغيرة. وكانت لينا تعامله كما لو كان ندًا لها وتمعن فى إغاظته. وإذ تصل إلى منتهى الشقاوة والعناد يهمس أبوها: «كفى يا حبيبتى، وإلا قلت لماما.» ومنذ طفولتها المبكرة تعودت أن تنظر إلى والدتها كرأس الأسرة. كانت تحبها بحرارة وغيرة (فقد كانت تظن أنها تفضل سيريوجا)، ولكنه حب ممزوج بشىء من الرهبة والخوف.

كانت لينا سريعة فى تحصيل دروسها، كما كانت تقرأ بشراهة وكانت تسمع «الشيطان» لوالدها وتقول له: «عندما أكبر سأكتب كتبًا». وبعد ما انتهت من المدرسة ذات السبعة صفوف أرسلت إلى خالها الذى كان يشتغل فى المدينة.

وكان هذا قُبيل الحرب. واستدعى والد لينا للجيش فى الحال، كما ذهب سيريوجا إلى الجبهة فى ١٩٤٢. وتركت أنتونينا وحدها. وانتخبت رئيسة للمزرعة التعاونية. كانت أيامًا صعبة، لا يوجد إلا النساء والعجائز. وشحت البطاطس وانهار المحصول. بعضه تجمد والبعض الآخر لم يزرع أصلاً. وهنا ظهرت مواهب أنتولينا: كانت بارعة فى الإدارة، ناجحة فى التخطيط المربح، قادرة على التشجيع، أو على التفريع، إن دعت الضرورة. واستجابة لما أشار به أحد المهاجرين من لتوانيا، بدأت فى تربية النحل، واستحثت الفلاحين على ذراعة محصول مبكر من الخضراوات لسوق المدينة قبل أن تتحدث الصحف عن الموضوع بكثير. وسددت مزرعة «الطريق الأحمر» كل ما عليها وأصبحت من أحسن المزارع التعاونية فى الأقاليم. وأشير إلى أنتولينا فى الصحف. ولكنها لم تكترث بالشهرة، وعندما قرأت المقال المكتوب عنها قالت: «وماذا يثير الاهتمام فى ذلك؟... خير لهم أن يكتبوا عن رجالنا هناك».

وكانت الأيام تدخر لها محنًا قاسية. فى صيف ١٩٤٤ قتل سيريوجا بالقرب من (منسك). وأصيب زوجها بصدمة إثر انفجار قنبلة فعاد إلى بيته قعيدًا بيدين ورأس مهتزة. وسألها فى جزع: «تونيا، هل تقبلييننى هكذا؟» فألقت بذراعيها حوله وانفجرت باكية بصوت عالٍ.

كانت لينا هى كل ما بقى لها. وكانت فخورة بابنتها. ولم يكن هناك من لا يعلم أن لينا قد أنهت دراستها الثانوية بامتياز وأنها دخلت الكلية. وفى اليوم الذى عادت فيه لقضاء العطلة كانت أمها تعجن فطائر بالجبن، وتدعو الجيران، وتجعل ابنتها تتحدث

بالتفصيل عن دروسها وزميلاتها، وعن المسرحيات التى رأتها. وكانت لينا تتكت وتضحك، ومع ذلك فقد ظلت على خوفها الغامض من والدتها.

وبعد حصولها على الشهادة عادت لتتحدث إلى والديها عن إيفان، ولكنها ظلت مترددة لمدة يومين، فربما تغضب والدتها. وأخيرًا أخبرت والدها، وأخذتها بين يديها: «لينا يا حبيبتى. أى فرحة! لقد جاء اليوم الذى أرى فيه أحفادى. ولكن لماذا لم تقولى لأمك؟». وتم الاتفاق على أنها ستقضى، فى الشتاء التالى، أسبوعين مع الزوجين الجديدين.

لم تشعر أنتونينا بميل نحو جورافليوف. وطبيعى أنها لم تنطق كلمة بهذا المعنى ولكن لينا لاحظت ذلك من الطريقة التى كانت تزم بها شفتيها لتصبحا كالخيط الرفيع. وعلى العكس، كان إيفان مسرورًا من أنتونينا وقال للينا: «إن والدتك لها عقلية رجال الدولة. لا شك فى ذلك». وعندما جاء وقت رحيلها، قبلت الأم إيفان، ولكن لينا أحست أن والدتها لم تكن موافقة على اختيارها.

والحق أنها ظلت بعيدة وقت ولادة شورا، وانتظرت إلى أن حملت لينا الطفلة إليها لتراها بعد ذلك بعامين. وكانت لينا حينذاك قد بدأت تتبين الوهم من الحقيقة فى أمر زوجها، واعترفت بذلك لأنتونينا: «كنت أتصوره بشكل يختلف. ربما أنا دائمًا أرى الأشياء من بعيد أكثر جاذبية». وصاحت أنتونينا فى وجهها: «انزعى هذا الهراء من رأسك. لقد عشت مع والدك طيلة حياتى ولم تداخلنى مثل هذه الأفكار أبدًا. املكى زمام نفسك. إن أمامك مهمة هى

شورا. ماذا تريدين أكثر من هذا؟» وحنقت لينا على نفسها حنقًا شديدًا، ما الذى دهاها حتى تصارح أمها؟ لقد كانت والدتها امرأة مرموقة حقًا، ولو وجد مثلها مثلها كثير لجاءت الشيوعية سريعًا. أما عن المشاعر والأحاسيس فلا هى مستطيعة، ولا هى ترغب فى أن تفهم من أمرها شيئًا. وربما كانت أمها على صواب. على أية حال ليس هذا أوان تلك الأحاسيس».

وتنهدت لينا: «ما أحلى أن تكون للإنسان أم محل ثقة. لابد أن سونيا بوخوف تصارح أمها بكل شىء، ولكن كيف يمكننى أن أكتب لوالدتى وأقول إنى أريد الطلاق؟ ستقول إنها أنشأتنى لأصبح سيدة محترمة لا لأكون فتاة حمقاء طائشة. أما عن ديمترى، فإننى أفضل الموت على أن أصارحها من أمره بشىء!».

وفى إحدى الليالى شديدة الاضطراب، قررت نهائيا أن تتحدث إلى جورافليوف. بل إنها تفوهت بالجملة التى تفتح بها الموضوع: «أرجو أن تنصت إلى بهدوء» ولكنها لم تجد فسحة من الوقت لتكمل. كان المكتب أمامه مكدسًا بالدوسيهات، وأخرج كراسة من تحت أحدها وقال وهو يبتسم: «أنظرى، هذه صورة قط رسمتها شورا».

وجرت لينا خارجة من الغرفة، وقد تملكها خوف من أن تنفجر بالبكاء.

وإذ بلغت بها التعاسة حدًا لم تعد معه تتحمل البقاء فى البيت، فقد قررت الذهاب لزيارة ڤيرا شيرر. ستصارحها بكل شىء. إن ڤيرا التى كابدت الكثير يمكن أن تساعدها.

٥

كان من النادر أن تيتقبل «ڤيرا» ضيوفًا. ولو أن «سوكولوفسكى» كبير المصممين، كان يأتى لزيارتها بين حين وآخر، ويجلس خجلا، تتخلل كلماته فترات صمت طريلة. وكانت ڤيرا تقدم له الشاى مع الفاكهة المسكرة إلى أن يأتى مريض يستدعى فيرا، أو قد ينهض سوكولوفسكى فى منتصف جملة فى حديثه ويقول: معذرة، لابد أننى أرهقتك...» وكانت تسأل نفسها بعد كل مرة يذهب فيها: «أى دافع يدعوه لزيارتى؟» كانت تعتبره إنسانًا شريفًا، وأحاديثه تثير الاهتمام، وأحيانًا تدهشها فكرة «إن أفكاره تلتقى مع أفكارى تمامًا». ولكن كانت تؤرقها فكرة أنه ربما يجىء بدافع الفضول، لمجرد أنها لا تميل للاختلاط بالناس، ليتفرج على «الراهبة الحادة الطباع». كما يسميها يجوروف، أو ربما هو يعطف عليها لأنها شديدة الوحدة؟ ولكن هذا يكون أمرًا سخيفًا، فهى ليست طفلة، أو أن الأمر ببساطة أنه يشعر بالضجر فى منزله؟ إنها لا تتمكن من تبين حقيقة الأمر. لقد مضت ثلاث سنوات منذ بدأ يزورها. والممرضة «باريخينا»، التى تسكن إلى جوارها، لا تتحدث

عنه إلا باعتباره «الخطيب». ومع ذلك لو يدخل فى ورع ڤيرا أبدًا أن يكون سوكولوفسكى قد أحبها.

كانت ڤيرا فى الثالثة والأربعين من عمرها، وقد بدأ الشيب يدب فى شعرها الأسود الضارب إلى الزرقة، ولم يكن سوكولوفسكى هو الوحيد الذى يرى فيها جاذبية خاصة. كانت فيها فتنة أكسبتها سنوات من المعاناة الصامتة لامرأة تركت سن الشباب؛ وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة، لا تكاد تلحظها، تكسب ملامحها الصارمة شيئًا من الرقة.

كانت طبيبة مشهود لها بالبراعة، تفهم مرضاها وتعرف كيف تسرى عنهم وترفع معنوياتهم، وفى الشتاء الماضى، عندما أثار اثنان من المرضى فى المستشفى شجارًا، وأخذا يصيحان قائلين إن أطباء، من نوع ڤيرا، ليسوا محلا لثقة، جاءها المهندس يجورروف وشد على يدها وأخذ يكرر القول: «أوه، أوه، أوه، يا لها من عملية مشينة. لا يجب أن تبتئسى لما حدث. الكل هنا يحبونك». وفى هذا الوقت تقريبًا تلقت (فازة) زهور صغيرة عليها بطاقة مكتوب عليها: «من مجموعة من العمال».

ومع ذلك، فعلى الرغم من أنها ظلت طبيبة بالمصنع لمدة سبع سنوات، وأنها كانت تحظى باحترام الجميع، إلا أنها لم تتخذ أصدقاء. وباستثناء سوكولوفسكى، لم يكن أحد يزورها سوى لينا».

وكانت لينا تعتقد أن تحفظ «فيرا» يرجع إلى فقدانها الرجل الذى تحب. والحق أن فيرا كانت قبل الحرب، محاطة دائمًا بالمعارف والأصدقاء، وإن كان هذا يرجع أساسًا إلى شخصية

زوجها، إلا أنها لم تكن قد بدأت تعتزل العالم، متأثرة بطباع زوجها الجسورة. ومع ذلك فقد كان يعجب أحيانًا: «ما الذى يجعلك صامتة طيلة الوقت»؟ فتقول مرتبكة: «لا أدرى. أتمنى ألا أكون هكذا. يخيل إلى أحيانًا أننى ولدت غريبة الخلقة، كما لو كنت شخصًا بأربع أصابع». ويضحك هو ويقبلها: «أنت غريبة الخلقة! كونى صموتة كما تحبين، فلست بحاجة إلى كلماتك لكى أفهمك».

كانت متحفظة منذ طفولتها. وكان والدها، وهو شخص حالم من سكان إحدى المدن الصغيرة فى الأقاليم، ورجل هازل، مضى حياته فى دكان أحذيته يغنى أغنية هزلية عن «مارييت وعقدها الكهرمان»، كان يقول عنها إن ملاكًا ختم على شفتى ابنته بشمع الختم. وكانت فيرا تعانى كثيرًا من تهيبها، وكثيرًا ما عاهدت نفسها على أن تتغير وأن تتخذ صديقة تكون موضع ثقتها، ولكن كاتيا أو فنيا أو ماروسيا ممن حاولت أن تتخذ منهن بطلة معبودة، كانت لا تلبث أن تتبين أنها بنت صغيرة عادية، فتعود فيرا لتكتب فى مذكراتها: «يوجد كذب كثير فى كل مكان. أو هل ترانى أظن ذلك لأنى مصابة بكساح أخلاقى؟ إنها ليست غلطتى، ليس من حقى أن أعيش».

وتركت بلدتها لتصبح طالبة فى الكلية. وكانت تلك سنوات تغير، و«فورة»، وبحث فى مكنونات القلوب، وتحليق فى آفاق سماوية، وتعثر فى أعماق طينية. وغيرها من فتيات فى مثل سنها نضجن نضجًا مبكرًا،وتزوجن ثمتطلقن بنفس السهولة. أما فيرا فكانت شهرتها «لا تمسسنى»، وهى لذلك كانت موضع سخرية من صديقاتها. كانت تحلم بحب عظيم. وبدأ وجهها يكتسب مسحة

منالتوتر والمرارة، وأحيانًا كانت تغيم عينيها الداكنتين بنظرات الغضب.

ومال إليها فاسيا، أحد زملائها فى الكلية وكانت «فيرا» هى الوحيدة التى تناديه فاسيا، أما الجميع فكانوا يسمونه فاسيا العجوز. وجهه مستدير، وبشرته منمشة حتى فى منتصف الشتاء، وصوته مرح ذو جرس. كان ينتظرها عند مدخل الجامعة ويأتى لزيارتها فى مسكنها. وكانت كلماته الرقيقة اللحوحة أشبه باتهمام موجه إليها. وقالت لنفسها: «لابد أننى غريبة الخلقة فعلا. لا يمكن أن استمر على هذا الشذوذ، يجب أن أكون كغيرى من الناس». واستسلمت له، لا لأنها كانت تحبه ولكن لأنها قررت أن تجبر نفسها على القبول. وربما أمكنهما أن يرتبطا مع الزمن، ولكن فاسيا كان صغير السن، جاهلا بالعواطف، فدمرّ كل شىء فى لحظة كانت فيرا ما تزال راقدة فيها تدفن رأسها فى وسادتها، وهى لما تجرؤ بعد على مواجهة فعلتها، قال فاسيا وهو يتمطى أمام المرآة: «والآن، هيا نتناول بعض الآيس كريم». وعانت فيرا شهورًا من العذاب والألم، وقد قررت ألا تسلم نفسها بعد ذلك أبدًا.

وخرجت على قرارها هذا بعد أربع سنوات. فى سن السابعة والعشرين وقعت فى حب جيولوجى يسمى «ياستربزيف». وما كان يمكن أن يكونا أشد اختلافًا، ومن الصعب فهم كيف يمكنهما الحياة معًا .كان ياستربزيف شديدة الجلبة، كثير الكلام، واسع المعارف، سريع التعبير عن مشاعره، يحضر معه إلى المنزل حشدًا من الأصدقاء يظل يجادل معهم إلى منتصف الليل. كانت كل أحواله

تثير دهشة فيرا وفرحتها. فنقول له: «ما كنت أتصور أبدًا وجود مثل هذه السعادة».

فرقهما الحرب. فى اليوم الرابع أرسل ياستربزيف إلى كييف وظلت فيرا تشتغل فى مستشفى للاجئين فى موسكو، وبعد ذلك أرسلت للعمل فى (كراسنودار) التى كانت ما تزال خلف الخطوط بكثير، وبعد أن أصبحت المؤخرة هى الميدان وجدت نفسها تعمل فى كتيبة طيبة. وقابلت ضابطًا أخبرها أنه رأى ياستربزيف فى الجبهة البيلوروسية الأولى. وبعد ذلك بستة أشهر جاءتها أنباء أخرى بأنهقتل فى (دارنتزا). غير أن الأمل ظل يراودها، ربما حدث خطأ ما، إلى أن جاء يوم النصر، وهى تبتهج مع الجماهير بانتهاء مآسى الحرب، فتحققت أخيرًا أنهما لن يلتقيا أبدًا. واندلعت فى السماء الداكنة نهيران قرمزية وصفراء. وكان وجهها غير الدامع ينضح بعذاب جعل طبيبًا يقف إلى جوارها يقول: «ارقدى فى السرير،وسأحضر لك دواء منومًا مفيدًا». ولم تتحدث عن أحزانها لأحد. ولا هى تحدثت عن أمها وأختها الصغيرة، اللتين قتلهما الألمان فى (أورشا). واستمرت فى عملها بهدوء حتى ظنها الناس جامدة الحس. وما كان أحد يخطر بباله أن طبيبة الجيش شيرر تتساءل يائسة حين تنفرد بنفسها: «لماذا بقيت على قيد الحياة»؟

لم يقسّ الألم قلبها. منذ مدة طويلة، وقت أن كانت ما تزال طالبة، سألت كبير الجراحين هل يمكن عمل شىء من أجل مريض اشتد به الألم، وقيل له إن الدواء ليس سحرًا، فنصحها كبير الجراحين أن تتحكم فى أعصابها وإلا فإنها لن تستطيع أن تكون طبيبة. وكان مستشفى الجيش مدرسة قاسية: رأت أجسادًا ممزقة،

ووجوهًا محروقة، ورجالا فقدوا أبصارهم وآخرين فقدوا عقولهم، وكل يوم يموت ناس بين يديها. ومع ذلك فهى ما تزال حتى الآن تقاسى عذابًا كلما رأت أنها عاجزة، بعد أن تفحص زوجة يجورروف وتتبين أن هذه الروح المرحة الطيبة، سرعان ما ستواجه الآلام والموت، أو أن ابن كودرافتسيف قد أصبح موته محققًا أو أن شيئًا لا يستطيع إنقاذ بوخوف، عندئذ تحس وكأن آلام الآخرين تحيط بها، وتكاد تخنقها.

ويوم قررت لينا أن تسرّ إليها بمشكلتها كانت «فيرا» قد عادت من المستشفى بعد أن رأت المحاسب فدوسييف وهو يموت.كان مصابًا بالتهاب رئوى. وكان قد تخطى حالة الخطر بعد أن عولج بابنسلين وقال لزوجته أن تنتظر عودته إلى البيت فى الأسبوع التالى، ولكنه توفى فجزة بالجلطة الدموية.

كانت فيرا تتنقل فى غرفتها حين دق جرس الباب. وظنت أنه لابد أن يكون سوكولوفسكى. وهى عادة تشعر بمزيج من الضيق والسرور لاستقباله. ولكنها الآن فكرت فى اضطراب: «اليوم بالذات يستحيل».

دخلت لينا الغرفة.

وحاولت فيرا أن تحمل نفسها على الترحيب بضيفتها. فهى تعلم أن لينا يمكن أن ترتبك كطفلة، وأنه من أيسر الأمور أن تشعر بأن إحساسها قد جرح.

«جميل منك أن تزورينى يا لينا. مرت دهور لم أرك. ما أخبارك؟»

وشرعت لينا على الفور تتحدث عن أن ناظر المدرسة لا يفهم شيئًا، وأن منهج تدريس الأدب سيئ التخطيط، فكثير منه فوق مستوى فهم الأطفال، وأن منهجو السنة السابعة شديدة الصعوبة، طبيعى أن يوجد عدد من الكسالى، ولكن ليست هذه هى المشكلة.بوخوف كانت له طريقة خاصة فى معاملة كل طفل بالأسلوب الذى يلائمه، ولكنها تتعثر فى معاملتها لهم، والناظر يطبق نفس المعايير على الجميع. كانت تتكلم بسرعة كبيرة، وبصوت رتيب، كما لو كانت تستظهر محفوظات، ثم توقفت فجأة.

وأحست فيرا بالقلق وهى ترقبها، كانت تبدو مريضة. عيناها تبرقان، وخداها يتوجهان.

«هل أصبت ببرد يا لينا؟ الأنفلونزا منتشرة».

نهضت لينا وأسرعت إلى الباب. «لا، لا، أنا على ما يرام. اسمحى لى لقد نسيت، عندنا اجتماع... سنبحث فى أمر الصف السابع، كالعادة، أنا متأسفة. أرجو ألا أكون قد ضايقتك. لابد أن أكون قد فقدت صوابى...».

مانت قد وصلت إلى المدخل، وكان صوتها دامعًا.

وصاحت فيرا: «لينا يا عزيزتى، انتظرى»!

وردت الجارة بارخينا بصوت عال من على البسطة: «لا فائدة لقد ذهبت».

وأنبت فيرا نفسها: «لماذا سمحت لها بالانصراف؟ كان هناك مايشغلها طول الوقت. هل تشاجرت مع زوجها؟ إنها شديدة الصدق

والإخلاص، مفرطة الحساسية والتأثر، كما عرفتها فى الشتاء الماضى. أما جورافليوف فهو بيروقراطى بكل معنى الكلمة، وهى لا تتحدث عنه أبدًا، ولكن الأمر ليس سهلا. أو ربما تعانى بعض المتاعب من عملها بالمدرسة. وقد ترك ناظر المدرسة انطباعًا سيئًا عندى أيضًا، إنه أشبه بأحد شخصيات تشيكوف (الرجل فى الصندوق الزجاجى) يا للفتاة البائسة... وهكذا انتهى بى الأمر، أن أنتقد الآخرين بينما أبدو وكأننى فى قوقعة، وكأننى تحولت إلى حجر. كيف لم أتمكن من حل عقدة لسانها، والتسرية عنها؟ ما كان يجب أن أدعها تذهب وهى على تلك الحال».

التقطت جريدة طبية، وطالعت صفحة، ثم تبينت أنها لم تفهم حرفًا. لم يكن يومها يومًا طيبًا.

وتحت حاجبيها البارزين أظلمت عيناها الداكنتان فى وجهها الشاحب، وازداد غور الخطين اللذين يحيطان بفمها الدقيق المرسوم، ويكسبان وجهها مظهره الصارم.

ودق جرس الباب ثانية. وكان الطارق فى هذه المرة هو سوكولوفسكى.

٦

عندما عين جورافليوف مديرًا قال له تاراسيفيتش، المدير السابق الذى نقل إلى منصب فى الوزارة،وهو يصف مساعديه:

«سوكولوفسكى يملك دماغا فوق كتفيه، وهو من العاملين الجيدين. كما أنه يملك لسانًا حادا أيضًا، ولكن لا تُلق إليه بالا. إنه شخص أصيل». وكان جورافليوف كثيرًا ما يتذكر هذه الكلمات. لم يستطع أن يرى أى شىء أصيل فى شخص سوكولوفسكى، وإنما هو يعتقد أنه مجرد شخص قليل الأدب. اشتكى مرة للينا: «جاء سوكولوفسكى يطلب منى أن احتفظ بكرابيفا فى المصنع، وقال إن زوجته مريضة، ومصابة بنوع من الاضطراب الوظيفى. فقلت له إن كرابيفا تأخر أربع مرات وأنه لا داعى لأن يكون «دون كيشوتيا». فهل تعرفين ماذا كان رده؟ لقد قال «إيفان فاسيليفتش، هل قرأت حقا رواية دون كيشوتيا؟ لا يمكن أن أصدق هذا على الإطلاق». بهذا الشكل. على مرأى ومسمع من الجميع. إنه شديد الوقاحة. لاشك فى ذلك». كان بوده لو تخلص من سوكولوفسكى منذ وقت طويل ولكنه كان يعرف أنهم. فى الوزارة، يعتبرونه مصممًا جيدًا.

ومن المؤكد أنه يوجد من يقف إلى جانبه، وجورافليوف لا يحب المتاعب.

وكان زملاء سوكولوفسكى، شأنهم فى ذلك شأن رئيسه السابق، يرون فيه إنسانًا غريب الأطوار. حتى نظراته كانت غريبة. كان طويلا إلى درجة تقريب من الإفراط، وشعره الأشيب قصير حليق، وعيناه زرقاوان فى وجه نحاسى يبدو، فى وسط الشتاء، وكأنه عائد من الجنوب، وعلى أحد خديه أثر جرح قديم؛ وبين أسنانه دائمًا غليون قصير طرفه نصف متآكل، على الرغم من أنه لا يدخن إلا قليلا وهو فى المنزل فحسب. وهو يعمل فى صمت. إنه ينصت إلى برينين يتجادل مع يجوروف، هل سينجح الأمريكان فى ترويض تشرشل؟ فلا يقول شيئًا. وهو يشرب الفودكا ويمعن فى صمته، والحق إن أحدًا لا يبذل جهدًا خاصًا لحمله على الكلام، كانت غرابة أطواره معروفة للجميع.

ولا يكاد أحد ممن عمل معه سنوات يعرف شيئًا عن حياته السابقة. كان يعتقد أنه من أهل الشمال؛ وأن والده كان صيادًا، وأنه أصيب بهذا الجرح القديم فى الحرب الأهلية. ويبدو أنه يهوى الموسيقى والفلك. وكانت له أسرة ولكن زوجته لم تستطع تحمل طباعه فهربت. وكان عنده كلب صغير سيئ الطباع. وكان المفروض أن ينال جائزة، ولكن الاختراع الذى توصل إليه سرق منه. لم يكن فى ماضيه إلا شىء أكيد واحد، كان آخر عمل له فى منطقة الأورال، وهناك تشاجر مع رئيسه الذى شهر به، بل إن إحدى الصحف نشرت مقالا بعنوان: «صقر بلا ريش» صورته كجاهل

يدّعى الحكمة. وأخذ الموضوع وقتًا طويلا ليسوى فى موسكو، وانتهى الأمر بنقله.

ولعل أغرب غرائبه، على كثرتها، أنه اعتاد أن يشرب الفودكا مع فولوديا من حين لآخر، بل وأن يتنازل بالنقاش معه، ولم يكن ثمة شىء غريب فى تقدير فولوديا لصحبة سوكولوفسكى، فقد كان يعتقد أنه قد ألقى به فى غابة بعد حياته فى موسكو، وأنه من الصعب أن يعثر على شخص آخر ذى أفكار مستنيرة. وكانت تعليقات سوكولوفسكى الساخرة تبعث السرور فى نفسه، كما كان يظن أنه يزدرى كل شىء مثله. غير أن سوكولوفسكى لم يكن يرى الأشياء السيئة فيما حوله فحسب، ولكن السرور بل الإعجاب كان يملأ قلبه أحيانًا، وفى هذه اللحظات كانت عيناه الزرقاوان تطرفان وهو يجذب أنفاسًا عنيفة من غليونه المطفأ، ولا يقول شيئًا لاعتقاده أن الجميع يرون الحسنات، بينما تكاد توجد مؤامرة صمت وعمى بإزاء الأمور السيئة. وكم من العفن لا يزال موجودًا! ومن أجل هذا فهو يهوى التنقيب فى هذه الأمور. وهذا ما يجعله عزيزًا على قلب فولوديا. ولكن كيف يمكن أن يشعر سوكولوفسكى بميل نحو فولوديا بينما فتاة فى مثل قدرات «تانشكل» أمكنها أن تتكشف دخائله؟

كان فولوديا يبدو على غير طبعه فى حضور سوكولوفسكى. كان إذا تحدث إلى والده ينكر المثل العليا، وإذا تحدث إلى تانشكا يسخر من الحب، ومع يابوروف يتهكم على الفن. ولكن ما كان والداه، وما كانت تانشكا، وما كان أصدقاؤه فى موسكو ليروه على حال من الخجل والوداعة كما يرى وهو مع سوكولوفسكى الذى كان يتأثر لما يلمسه من تبرم فولوديا وقلقه الداخلى. وعندما طلب سوكولوفسكى

أن يتفرج على لوحاته، ارتبك فولوديا وقال: «لن أريك إياها أبدًا. إنها مجرد أعماله من أجل الكسب. ربما وفقت يومًا فى عمل شىء له قيمة». لم يحتد عليه سوكولوفسكى إلا مرة واحدة، حين تساءل فولوديا: «هل جورافليوف أسوأ من برينين أو يجوروف»؟ عندئذ صاح فيه سوكولوفسكى: «أنت لست فتى فى العشرين يا فلاديمير أندريفيتش. هل تطمح إلى أن تصبح من الزهاد الكلبيين؟ سأقول لك صراحة: هذا أسلوب قذر. فى الماضى كان الساخرون الكلبيون يزدرون متاع الدنيا ويتنقلون من مكان إلى مكان يصارحون الناى بحقائق تصدمهم. ولكنى أخشى أنه ليس متاع الدنيا الذى تزدريه، وإنما أنت تزدرى الناس الذين يعرضون عنه». احمر وجه فولوديا خجلا، وفكرّ قليلا، ثم اعترف أنه أحيانًا ما يقول هراء كثيرًا لمجرد إظهار البراعة، والحق أن برينين ويجوروف من الرجال الصادقين الشرفاء. فغمغم سولوكوفسكى: «حس. إشرب فودكاك».

وأتيحت أمام بوخوف كل الفرص ليلمس بنفسه ما يشاع عن سوكولوفسكى من غرائب. فالكلب الهجين «فومكا» مثير للحنق حقًا، لم يكتف بتمزيق بنطلون بوخوف الجديد وإحداث ثقب فيه، ولكنه عضه عضة أليمة جعلته يعرج أسبوعًا بأكمله. وكشر سوكولوفسكى: يلقد حاول ذل؛ك معى مرتين». وخاطر فولوديا بقوله: «عجيب أمر كلبك الصغير هذا، فالكلاب عادة لا تهجم على أصحابها». وقال سوكولوفسكى إنه عثر على فومكا فى الشارع ولا يعرف شيئًا عن نوع الحياة التى اعتادها قبل ذلك. «لابد أنه كان رمة ليصبح على هذا القدر من الحماقة. ولكنه طيب حقيقة، فهو شديد الإخلاص لى، وهو كلب حراسة ممتاز، ولكن الأمور قد

تختلط عليه بين حين وآخر فلا يدرى من الذى يحمى، وضد منْ؟ وهذا يحدث للبشر أيضًا ـ كثيرًا. فالناس قد يقصدون إسداء يد العون لذويهم، فإذا بهم ينقلبون عليهم...».

وكان صحيحًا أيضًا أن سوكولوفسكى مهتم بالموسيقى. ذهب فولوديا لزيارته ذات ليلةفرجده جالسًا مستغرقًا إلى جوار الراديو إلى درجة أنه لم يرد التحية، كان يستمع إلى السيمفونية العاشرة لشستاكوفيتش. وعندما انتهت ظل فى مكانه صامتًا. وأخيرًا قال: «رائعة. رياضة بحتة، وبلا حدود». ولم ينطق كلمة أخرى طيلة تلكالليلة.

وكان فولوديا يرى على منضدته أشد الكتب تنوعًا وغرابة: أطلس، فلكى ضخم، تاريخ الهند، مشكلات علم البللورات، أشعار بترارك. ويتساءل فى عجب «متى يجد وقتًا لقراءة كل هذا؟ لابد أن الضجر ينال منه، مثل...» ولعلّ أشد ما أذهله هو أن سوكولوفسكى كان يتعلم الإنجليزية. قال: «كانت الألمانية هى اللغة الأجنبية فى مدرستى. أود لو تمكنت من قراءة بعض الأعمال فى لغتها الأصلية.».

حدث مرة أن جاء برينين، الذى لا تفوته مقالة فى الشئون الدولية ويهوى النقاش فى المسائل الدبلوماسية، جاء يسأل سوكولوفسكى سؤالا (فلم يجد فى النادى من هو أنسب منه حينذاك): «هل تعتقد أن هذه الخلافات الفرنسية الأمريكية لها أى أساس، إن صحّ التعبير»؟ وابتسم سوكولوفسكى، وأجاب: «أنت خير العارفين، فأنت الخبير فى الشئون الدولية. يقول المثل الفرنسى:

«الشباب لا يعرف، وكبير السن لا يقدر». ويبدو لى أن الأمريكيين قادرون ولكنهم لا يرغبون، بينما الفرنسيون راغبون ولكنهم لا يقدرون». ولم يفهم برينين شيئًا، ولكنه ضحك أخذًا بالأحوط.

وفى مناسبات كان سوكولوفسكى يبادر بالكلام دون انتظار أن يفاتحه أحد. ويكون ذلك عندما يثور سخطًا على أشكال من الفوضى، أو الإهمال فى العمل، أو على موقف قاس أو غير مبال بالبشر، وهو عندئذ لا يعنيه من السامع أهو برينين أم بوخوف الصغير أم جورافليوف أم العمال؟ إنه يلعن المنظم النقابى: «لماذا لم يتكلم فى مشكلة الكانتين، إنه فى حالة مزرية.» أو جورافليوف: «إن المساكن يمكن أنتنهار فى أية لحظة». أو دبوجينسكى، المسئول عن النادى: «لماذا لا يقدم حفلة موسيقية أو محاضرة محترمة، وفى أى وقت تذهب إلى النادى فإماأن تسمع برينين يلقى تقريرًا والجميع يغطون فى نومهم، أو ترى ثلاثة أزواج تعسة من الراقصين والراقصات على صوت جهاز تسجيل ذى صرير!».. أو لوبشكين: «لماذا كل هذه الكميات الهائلة من العادم والنفاية، إن وجهك ليحمر خجلا حين تراها، ثم يأتى الناس ويلقون اللوم خطأ على التصميم.»». أو الصحفيين: «ماذا يقصدون بالمبالغة فى الكتابة، حتى لكأن المصنع هو الجنة؟» وكأن جورافليوف سينبت له جناحان كالملائكة. إن مثل هذه الملاحظات هى التى تجعل الناس يتخوفون منه قليلا.

ولسبب ما، بدأت هجماته تقل فى الآونة الأخيرة، وفكر جورافليوف راضيًا: «إن سوكولوفسكى تتقدم به السن، وتهدأ نفسيته.» وهو كثيرًا ما يقول الآن وهو يقرأ صحيفته: «هذا سليم». ومنذ قليل جاءه برينين يشكو المدير: «قلت له إن فاسيليف لا يمكن

الاستغناء عنه، كما أننى لن أفرط فى ناموليان. نحن بحاجة إلى وحدة إدارية جديدة بعد أن أصبحنا ننتج سيور التحويل، وهو يعرف هذا تمامًا ولكن هل سيقبل؟ يقول إنه لا يحلم بتوفير ذلك، وأنه يجب أن نضغط الإدارة لا أن نضخمها. ماذا بإمكانك أن تعمل معه؟» وابتسم سوكولوفسكى: «فى رأيى أنه سيطرد قريبًا». فتهلل وجه يجوروف: «هل سمعت شيئًا؟» وهز سوكولوفسكيرأسه: «لا، لم أسمع أى شىء، ولكنى أحس أن هذا سيحدث. لقد قرأت القرارين الأخيرين مرتين، سليم تمامًا، هذا الذى يقولونه عن الأوانى وأوعية الطبخ. إنهم يقصدون أن يحيا الناس حياة لائقة». وبدت الدهشة على وجه يجوروف: «ولكن ما هى العلاقة؟» فأجاب سوكولوفسكى: «الواحدة تترتب على الأخرى». ولم يقل شيئًا آخر.

وعلى حائط غرفة سوكولوفسكى علقت صورة فوتوغرافية لفتاة جميلة، حار فولوديا فى أمرها ولكنه لم يجرؤ أبدًا على سؤال سوكولوفسكى بشأنها. والحق أن كلافا، التى تنظف غرفة سوكولوفسكى هى الوحيدة التى قال لها: «هذه ابنتى. لم أرها منذ اثنين وعشرين عامًا».

تزوج سوكولوفسكى فى عام ١٩٢٨ من فتاة جميلة شقراء اسمها مايا، كانت طالبة فى كلية الآداب، أسرته بنظراتها الحزينة وخجلها الشارد. هل كانت حقا كما تصورها أو أنه زينها فى خياله؟ وكان يعمل فى موسكو، وكانت أيامًا صعبة لا يملك فيها فراغًا. ولم يلحظ أن الفتاة الحالمة الخجول تحولت إلى امرأة قاسية مغرورة، فصار يردد كلماتها فى دهشة: «تشعرين بالضجر؟ لماذا لا تشتغلين؟» وأجابت مايا بالبكاء. ثم رزقا طفلة هى ماشا، وظن

سوكولوفسكى أن حياتهما يمكن أن تنصلح، ولكن «مايا» لم تتغير. وفى كل ليلة كانت تعيد على مسامعه نفس الشكايات: كل صديق له أكثر إملالا من سابقه، وهو نفسه فى جفاف العصا. وهى لم تر الحياة الحقيقية إلا مرة واحدة، فى فيلم أمريكى عرض فى حفل نظمته جمعية ڤوكس، يجبأن تترك الطفلة لجدتها وترحل إلى الجنوب، وإلا فإنها ستصاب بانهيار عصبى، كما قال طبيبها. وأول شىء قالته بعد عودتها من كسلوفودسك أنها لم تتحسن، على الرغم من أنها أخذت حمامات طين، وأنها عانت مأساة رهيبة. ثم قالت إنها يجب أن تطلق فى الحال وإلا فإنها ستموت أو ستفقد عقلها، وثالثًا: لقد التقت برجل جذاب للغاية، وهو يعمل الآن بالتجارة ولكنه أتم دراسته فى الكلية وكان محاميًا. وطبيعى أنه ليس شيوعيًا، ولكنه يميل إلى الحزب؛ وهو يملك جواز سفر بلجيكيًا ويعيش فى بروكسل ولكنه كان روسيًا. وقد قام بالاستفسارات اللازمة، وبإمكانها أن تحصل على جواز سفر وترحل معه فى خلال أسبوع. وسيأخذان «ماشا» معهما طبعًا، فهو شديد التعليق بالأطفال، وستحصل البنت الصغيرة على التعليم المناسب. وبصفة عامة فإن الأوضاع هكذا تصبح فى صالح مايا، وفى صالح ماشا، وفى صالح سوكولوفسكى. والشىء الوحيد الذى طلبه سوكولوفسكى هو أن تحيطه «مايا» علمًا بأخبار ماشا. وتأثرت زوجته وقبلته، تاركة شريطين أحمرين صغيرين على ذقنه غير الحليقة.

بعد أن رحلت زوجته، تبين «سوكولوفسكى» أنه لم يكن يحبها فى يوم من الأيام. وكف عن تذكرها، ولكنه استمر يفكر كثيرًا فى ماشا. وفى البداية واظبت مايا على إرسال بطاقات مصورة إليه، لكنائس

وقلاع قوطية، وعلى طمأنته على حسن أحوال البنت. ووصلت آخر بطاقة إليه قُبيل الحرب. كتبت تقول فيها إن ماشا شديدة الحب لزوج أمها، وأنها لا تزال تعرف الروسية، وأنهم يسمونها الآن «مارى»، وهو اسم ألطف من «ماريه»، وأنها ناجحة فى دراستها، وأنها لم تتمكن من كتابة سطرين فى آخر الرسالة لأنها ذهبت إلى سينما مع مربيتها. وقال سوكولوفسكى بصوت عال «مارى». وارتجف هو نفسه لرنة الأسى فى صوته.

وظل سنوات لا تصله أية أخبار، ولا يدرى إن كانت زوجته وابنته لا تزالان على قيد الحياة أو لا. ثم. منذ ثلاث سنوات جاءه مهندس كان عضوًا فى أحد الوفود التى سافرت إلى بلجيكا، حاملا إليه خطابًا من مارى، قالت فيه الابنة إن أمها ماتت منذ وقت طويل، قبل أن تنتهى الحرب، وأن الحالة فى بلجيكا كانت فظيعة، وأن الروس قد أنقذوا الجميع، وأنها فخورة لأنها روسية، وأنها درست فى الجامعة ولكنها تركتها لتتفرغ للرقص البلاستيك (التشكيلى)، والجميع يقولون إنها موهوبة. وهذا النوع من الرقص يربط بين الريقاع الحديث والجمال التشكيلى للإغريق القدامى. وهى تأمل أن تعود يومًا ما إلى روسيا وتقدم للناس رقصاتها. وقالت إن المستقبل للاتحاد السوفييتى وإنه لا يفوتها فيلم سوفييتى أو تقرير عن الحياة الروسية. ووضعت فى الغلاف صورتين فوتوغرافيتين، الأولى لها وهى فى الجامعة، والثانية لقطة لها وهى فى زىّ إغريقى فى مدرسة الرقص. وأخفى سوكولوفسكى، وهو غاضب، صورتها الراقصة فى درجه، ثم راح يتأمل الصورة الأخرى مليًا فى دهشة وحنان. وبعد ذلك علقها على الحائط، وفى كل مرة ينظر إليها

بتعجب: ما أغرب أن تكون هذه الفتاة الحلوة الوجه هى ابنته، وأنها تدعى مارى، وأن لا شىء مشترك بينه وإياها؟... ثم كتب ردًا على خطابها، وبعد ذلك بعام أرسلت رسالة مختصرة سريعة: كانت على وشك الرحيل فورًا إلى باريس، وكان كل شىء رائعًا. وبذلك انتهت المراسلة.

فقد سوكولوفسكى الثقة فى نفسه بعد زواجه غير الموفق، وفى كل مرة تعجبه امرأة كان يكف عن رؤيتها. وأخذ يتزايد ميله للوحدة فلم يعد يحلم بالحب أو الصداقة، هكذا عاش حتى تجاوز الخمسين، إلى أن حدث ذات ليلة أن قابل امرأة فى نادى المصنع حركت قلبه. وهو لا يستطيع أن يتذكر ما الذى دار حوله الحديث بينه وبين «فيرا» الطبيبة فى تلك المرة الأولى، ربما كانت الموسيقى، وكان الموضوع هو «باخ». وبعد ذلك بقليل قابلها فى الشارع وسألها إن كان يمكنه أن يزورها. وهكذا بدأ يراها، وتنمو فى داخله حاجة تزداد إلحاحًا إلى رؤية الابتسامة التى ترقق تعبير وجهها الصارم، وإلى سماع صوتها الهادىء، والإحساس بوجودها معه.

كان نومه مضطربًا قد بلغه النوم فجأة ثم يصحو مبكرًا فى الساعات الأولى من الصباح، وهو عاجز عن مواصلة النوم وعاجز عن اليقظة. وفى مثل هذه اللحظات يستعيد كل مقابلاتها معه: فرحتهما، الممزوجة بالدهشة والامتنان، عندما يتكشفان أن كثيرًا من أذواقهما وأحكامهما وميولهما متشابهة. وما كان قد حدث بينهما من سوء فهم، ثم انطواءها، وبرودها، وحاجبيها الغاضبين، وعينيها الرقيقتين الدافئتين الملغزتين، كليلة عاصفة فى نهاية الصيف. واحتاج لوقت طويل لكى يتحقق كم يشعر نحوها بميل

عميق. وذات صباح، عندما استيقظ قبل الفجر، قال لنفسه: «إنها هى حبى، حبى الوحيد، جاءنى متأخرًا. ظللت أحمد بها وانتظرها طيلة حياتى. لن أصارحها بذلك أبدًا. سأقابلها غدًا، أو بعد أسبوع، وسأجلس صامتًا، أو أتحدث عن جورافليوف، أو عن سكان المريخ، أو عن تشرشل، أو عن الشيطان، عن أى شىء إلا هذا. يا فرحتى، يا حب أصيل حياتى، يا فيرا، كما أجرؤ على مناداتك فى قلبى، ما أعظم سرورى أن عشت حتى آراك!».

وما كان يسمح لنفسه برؤيتها كثيرًا، كان يخشى أن يضجرها. وكان فى كل مرة كأنه يهىء أعماق نفسه بمزيج من الفرحة والألم، وهو يشعر أن الكلمات غير المنطوقة هى أشد الأعباء وطأة على النفس. وهكذا فإنه يدخل الغرفة، ويجلس إلى أن تستدعى فيرا لعيادة مريض، وحتى لو لم تستدع فإنه ينهض من جلسته بعد قليل، لقد حان وقت الذهاب، وأمامه أسابيع أخرى من الآلام، والحمى، والانتظار.

وفى هذه المرة تبين فى الحال أنه جاء فى لحظة غير مناسبة. كانت فيرا مبتئسة، وما كان ليعرف أسباب ذلك، فهو عاجز عن التسرية عنها.

تحدثت إليه عن موت فروسييف، وعن الولد الصغير ابن كدريا فتسيف الذى ظهرت عليه علامات التحسن اليوم، وفرحت أمه، ولكن لن يعيش. حقيقة أن اكتشافات كثيرة قد تمت فى السنوات القليلة الماضية، والناس يؤمنون بالطب، ويتطلعون إليك بأمل فى انتظار الخلاص. ولكن، ما أفظع أن تشعر بمثل هذا العجز.

وقال سوكولوفسكى إن الإنسان لا يزال فى بداية تعلمه للتفكير، وإن انشطار الذرة الذى يبدو معجزة، سينظر إليه زطفالنا كشىء عتيق وبسيط،كنظرتنا نحن إلى القداحة الحجرية أو العجلة. هناك حركة مطردة إلى الأمام ومن ثم يجب أن يوجد الأمل.

وقالت فيرا: «هذا صحيح. ولكنه كلام شديد التجريد. علىّ أن أتصرف معناس أحياء. وهؤلاء الناس هم الذين أريد أن أجد ما ينقذهم فلا أستطيع. قلت لى فى زيارتك الأخيرة إنك تهوى الفلك. وقد فكرت فيما بعد أن لابد وأن يكون فى هذا شىء من العزاء. فربما تطل علينا فى المستقبل وأنت فى كوكب المريخ أو الزهرة.» وابتسمت: «وهذا كفيل بأن يهبك طمأنينة ذهنية».

فأجاب: »كيف تقولين هذا؟ إن العكس هو الصحيح. إذا فكر الإنسان فيس اللانهاية، أو إن شئت فى أعظم المفهومات كما لقُناها فى المدرسة، فهل يحد هذا من أبعاد اللحظة الراهنة أو يفقرها؟ يبدو لى أن هذا التفكير يكسب هذه اللحظة أهمية وأبعادًا لا نهائية، أولا لأنها ستمر، وثانية لأن وراءها عددًا لا نهائيًا من اللحظات الأخرى، والفترات، والعوالم، والحيوات».

كانت فيرا تنصت، غير أن كلماته لم تحرك فيها شيئًا. وتذكرت عينى لينا المتعبتين: «كيف حدث أن تركتها تذهب؟ ما أصعب أن تحاولى فهم إنسان آخر،ذلكأصعب بكثير من أن ترى بحار كوكب بعيد فى الفضاء. ها هو سوكولوفسكى يشعر أنه يجب أن يمد إلىّ يد العون، كما لو كنت «لينا»... كم هذا مقبض ولا داعى له!»

قالت بلا مقدمات: «ما أشد برودة الجو.»

وهزّ رأسه موافقًا.

وقالت: «وفقًا للتنبؤات الجوية: ٣٥ درجة تحت الصفر فى أواخر الليلة».

وسكت الاثنان، وجلس سوكولوفسكى ينظر إلى فيرا. لم يستطع أن يحوّل ناظريته عنها، وهو يشعر أن هناك شيئًا يجب أن يقوله لها، ويعلم أنه لن يقوله. وأحست بالاضطراب أمام نظرته، وعبرت ملامح وجهها عن ابتئاس أعظم.

وكان على وشك النهوض عندما قال فجأة:

«رأيت ذات يوم فى بساتين تربية النباتات فى موسكو نباتًا من فصيلة الصبار أنت تعرفين هذا النوع، الناس يقتنونه فى بيوتهم، وهناك واحد منها فى النادى، قرأت فى مكان ما أن له استخدامات طبية. حسن، على أية حال، قالوا لى إن فتى من الطلائع هو الذى جاء به إليهم... عندما عثر عليه أخذه إلى منزله ووضعه فى أصيص صغير عليه. ولم يكن قد سبق له أن اقتنى زهورًا، ولا كان يعرف كيف يرعاها. وأحضر الفتى كتابًا قرأ فيه أن الصبار ينمو فى المناطق الصحراوية، ولذلك فلا يجب أن تسقيه إلا قليلا جدًا، كما لا يجب أن تزرعه إلا فى تربة شديدة الفقر. ولكن الفتى يحب صباره ويضايقه ألا يستطيع منحه من فيض رعايته. فألقى الكتاب بعيدًا، ونقل الصبار فى إصيص آخر، وأخذ يسقى تربته ويسمدها، كما لو كان نبات الأركيديا. فماذا تظنين أنه حدث؟ معجزة. نما الصبار، وكبر إلى الحد الذى لم يستطع أن يحتفظ به فى غرفته، فحمله إلى البساتين حيث وضعوه فى بيت النباتات الزجاجى. لا

أعرف لماذا خطرت ببالى هذه القصة الآن بالذات. أرجو ألا تكونى قد تضايقت، لقد أضجرتك بكلامى الكثير. لقد كنت فى أمس الحاجة لرؤيتك.»

أدارت فيرا رأسها بعيدًا وقالت بصوت لا لون له:

«أنا لا أصدق هذا، أقصد عن الصبار. لو أنه من نباتات الصحراء لقتله مثل هذا التغيير. وإن كنت فى الحقيقة لا أعرف شيئًا عن علم النبات، معذرة، أنا منهكة جدًا. عندى صداع».

غادر المكان مسرعًا، وفى الخارج برد صقيع يكسوه ضوء القمر، حيث تتحول أنفاسك إلى ثلج فى الحال، وحيث تتجمد الطيور وهى محلقة فتسقط كالأحجار. وفى حزن عميق راح سوكولوفسكى يخطو فى الشارع الخالى الذى يغمره ضوء لا يُفيد، وشفتاه تتحركان وتنفثان سحبًا صغيرة من بخار. هل كان يقول شيئًا، أو تراه يحرك شفتيه فحسب، صامتًا حزينًا، بلا كلمات أو أحلام؟.

٧

بعد انتهاء الحصة الأخيرة التقت لينا بأندريه بوخوف فى حجرة المدرسين العامة. ولأول مرة خلال شهر، ابتسمت فى سرور. وغنى عن البيان أنها شرعت تحدثه عن متاعبها: تلاميذ الصف السابع الذين تخلفوا كثيرًا، وبوركوف، ثم شيجكوف الذى عجزت معه تمامًا. لقد انقطع عن المدرسة، وأخذ يدخن السجائر، وضاع مع الشبان المنحلين.

هدأ بوخوف من روعها، ونصحها أن تقابل والدة ميشا، وقال إنه سيتكلم بنفسه مع شيجكوف: «أنا أذكره منذ كان فى الصف الثالث. ولد ذو طباع استفزازية ولكنه ليس سيئًا».

غادرا المدرسة معًا، وقالت لينا إنها ستوصله إلى منزله. أرادت أن تظل معه بعض الوقت ولم تكن فى عجلة من أمرها. إنها دائمًا تتلمس المعاذير فى هذه الأيام لتظل فى الخارج إلى أن يتناول جورافليوف غداءه.

مضت أيام كثيرة منذ أن تحققت أنها يجب أن تترك زوجها، ومع ذلك لم يتغير شىء فى حياتها، وعجزت عن الوصول إلى أى قرار.

وراحت فى يأسها تلعن نفسها لأنها أصبحت لا تساوى شيئًا. «وهكذا سأظل طيلة حياتى. وستصبح شورا أشد الناس احتقارًا لى عندما تكبر».

كان بوخوف يتحدث إليها:

«عندى أخبار رائعة. هل تذكرين كوستيا، كان تلميذك، ترك المدرسة فى الصيف الماضى. لا، ليس لقبه بونين، ولكن كوستيا آخر، شرينشيف، ذو شعر أحمر، ولد بائس لا تنتهى متاعبه، ولكنه طيب، وموهوب فعلا، يقرأ كثيرًا ويفكر. ظروف حياته رهيبة: الأب قتل فى الحرب،والأم انشغلت بشخص عديم الشرف يعمل مخرنجيًا ولا يفيق من الخمر. وتقدم كوستيا للالتحاق بالمعهد، ولم يكن ثمة أدنى شك فى أنهم سيقبلونه، فهو حاصل على ميدالية. ومع ذلك رفضوا طلبه تصورى! قالوا إنه لم يكن عندهم أماكن كافية، وكان عليه أن ينتظر حتى يحين موعد امتحان القبول. واستبد اليأس بالفتى، ومما زاد الطين بلة أن هذا المخزنجى طرده من المنزل. مأساة حقيقية. ونصحت الولد بأن يتابع دراسته كما لو كان قد قبل، ثم ذهبت إلى مدير المعهد. أنت تعرفينه، إنه ينصت ويوافق على كل شىء، ثم لا يفعل شيئًا. فذهبت إلى مجلس المدينة فقالوا إنه من المستحيل عمل شىء فى منتصف العام الدراسى. وقلت، لِم لا؟ وكوستيا يتابع الدراسة بالمراسلة ولن يكون متخلفًا فى شىء. فقالوا إن الوزارة هى التى تستطيع أن تبت فى الحالات الاستثنائية. وردت الوزارة بأنها لا تمانع، غير أن القرار بيد مدير المعهد. وعدت ثانية إلى المدير، فألقى نظرة على الخطاب، وهزّ رأسه، وقال نعم، وإنه لأمر مخجل أن نرى الفتى يضيع، ولكن الوزارة لم تصدر أية

تعليمات صريحة، ومن ثم فليس من حقه أن يستثنى أحدًا ... حسن، ثم واجهت الأمر مباشرة وكتبت إلى الوزير رأسًا، وقلت إننى درست للولد بنفسى، وإن له موهبة عظيمة، وإنه ليس من العدالة أن يرفض طلبه، كما تحدثت عن ظروف حياته. حدث كل هذا فى العام الماضى. والآن، اليوم،أحضرت لى زوجتى خطابًا، إنه من نائب الوزير يقول إنهم أصدروا تعليمات بقبول كوستيا فى المعهد. تصورى يالينا! تصورى أى عمل عظيم!»

نظرت إليه لينا وابتسمت: كان إنسانًا يثير الدهشة. كانت تعرف أنه فى أشد حالات المرض، قالت لها فيرا إنه لا يوجد شىء يمكن أن ينقذه، يمكن أن يظل على قيد الحياة إلى العامالقادم إذا التزم التعليمات الطبية، ولكنه لن يلتزمها. وقالت إن مرضه يسبب له آلامًا ولكنه يكتمها ولا يريد أن يعرف أحد عنها شيئًا. وها هو ذا فى قمة السعادة لأن كوستيا قبل فى المعهد، وفكرت لينا: «الآن أستطيع أن أفهم الناس الذين صنعوا الثورة. ليتنى أستطيع أن أتعلم منه. إن مجرد السير إلى جواره يجعلنى أشعر بأننى كائن أفضل».

وقال بوخوف: «سأذهب إلى كوستيا الآن لأخبره. إن سانيكوف، وهو أحد أصدقائه ومن تلاميذى القدامى أيضًا، أخذه ليشاركه غرفته فى منزل بشارع لينين».

وانزعجت لينا: «ولكنها مسافة كبيرة. هل ستمشى كل هذا؟ لماذا لا تدعنى أذهب لأحضره لك؟».

«ولماذا أنت؟ سأصل إلى هناك وأنا فى أحسن حال. وستكون فرصة لأطمئن على أحوال سانيكوف أيضًا. لا يجب أن تعتبرينى

كسيحًا. سأنطلق إلى هناك! عندما تلقيت هذا الخطاب صباح اليوم شعرت، حقيقة، أننى صغرت عشر سنوات. أقول لك الحق، لم يكن عندى أمل كبير، وفكرت أنهم سيكتفون بتحويل خطابى على المعهد للتصرف. وهذا ما يحدث غالبًا. ولكن ها أنت ترين، لقد قاموا بفرزها جميعًا بأنفسهم. هذا عمل عظيم حقًا!».

كان يخطو بحذر وكأنه يتحسس الأرض بقدميه أولا، على الرغم من أن عينيه سليمتان، وبين وقت وآخر يتوقف أمام فاترينة أحد المحلات وكأنه يتفرج على نماذج حلوى مسكرة، أو يتظاهر بالفرجة على إعلانات الجدران. وفكرت لينا فى جزع: «إنه يمشى بصعوبة».

وتأبطت ذراعه لتسنده.

ضحك وقال: «ألم أقل لك إننى عدت شبابًا مثل فاوست، أسير متأبطًا ذراع شابة؟».

كان فى حالة معنوية رائعة، يضحك وينكت ووجهه يبدو أصغر حقًا.

وسارت إلى منزلها بعد أن تركت بوخوف وهى ما تزال تفكر فيه. وكانت إذا اقتربت من المنزل عادة تبدأ فى التململ والنظر إلى ساعتها، وتتساءل إن كان جورافليوف قد خرج. أما الآن، فقد نسيت تمامًا أن الوقت كان ما يزال مبكرًا وأنه سيكون موجودًا بالمنزل.

كان جوراجليوف جالسًا فى كرسيه ذى المساند، وضوء المصباح على صحيفته. هزّ رأسه وقال:

«جميل أن تعودى الآن. خطر ببالى منذ قليل أننى ربما اضطررت إلى تناول الغداء وحدى مرة أخرى».

وقفت جامدة فى مكانها، وكأنها تحولت إلى حجر، فلا هى تجيب ولا هى تذهب إلى المطبخ. وسألها فى دهشة:

«ماذا جرى؟».

جلست على كرسى فى مواجهته وقالت بهدوء:

«لا شىء... أعنى أنه يجب أن أتحدث إليك. حسن أن وجدتك. كنت أنوى أن أحدثك فى هذا الموضوع منذ مدة طويلة، ولكننى ظللت أؤجل. لم يعد أى منا يصلح للحياة مع الآخر أكثر من هذا. لا تغضب. أنا متأكدة أنك تشعر نفس الشعور. ظللت مترددة مدة طويلة من أجل شورا، ولكنى أرى أنه لا يجب التأجيل أكثر من هذا. هل فهمت؟»

واختلج صوتها، ولكنها تماسكت فى الحال واستطردت بنفس هدوئها السابق:

«هذا شىء مؤلم جدًا، صدقنى، ولكنى فكرت فى الأمر جيدًا، لا أستطيع أن أستمر. ليس من الصدق فى شىء».

وظن جورافليوف فى البداية أن لينا لا تعنى ما تقول. كان يعتبرها غير متزنة ويقول لنفسه أحيانًا إنها ربما تكون مصابة بنوع من الهستيريا. حاول أن يصيح فيها ولكنها قالت إنه لا داعى للشجار، وإنهما يجبأن يفهم كل منهما الآخر، ومن الأفضل أن يفترقا كصديقين.

تناولا الغداء فى صمت، وقال جورافليوف إنه لن يذهب إلى مكتبه وسيعكف على دراسة مشروع برينين فى البيت. وتركته لينا وحده. وجلس هو يفكر فيما حدث. لابد أن السبب هو أن لينا وقعت فى حب شخص آخر. منذ أسابيع وهى لا تكاد تمكث فى البيت. «لابد أنها عثرت على شخص ما. هل يمكن أن يكون هو بوخوف الشاب. إنه يرفع الكلفة معها. ورجل مثله فى موسكو لابد وأن كانت له مائة عشيقة، لاشك فى ذلك. أنا مهذب أكثر من اللازم، أنا أثق فى الناس جميعًا. ولكن تصور كيف كانت تضحك علىّ».

وعادت لينا إلى المنزل فى ساعة متأخرة. وظل إيفان ينتظرها وقابلها بنظرة فاحصة، فأشاحت بوجهها بعيدًا: وفكر: «لابد أنها عائدة لتوها من عنده». وأحس برغبة فى أن يسبها ولكنه منع نفسه. كانت على حق فى شىء واحد: هو أنه من الحمق أن يتشاجرا. قال بهدوء بل شىء من الرقة:

«لينا، ربما أنت تحبين شخصًا آخر؟»

فالتفتت إليه غاضبة:

«وما علاقة هذا بك أنت؟ لا علاقة. قلت لك بصدق إننى لا أستطيع مواصلة الحياة معك. لقد حاولت وعجزت، لا بسبب أى شخص آخر، ولكن بسببك أنت، فأنت الذى لا أستطيع أن أعاشر، أنت فاهم ؟»

«لا تهاجى. هذا أمر خطير، وسنناقشه غدًا، وإلا فإن كلينا سيبدأ فى الصياح، ولا جدوى من ذلك».

ومرة أخرى نشر أوراقه على المنضدة وانحنى عليها محاولا التفكير فيما يجب عليه عمله. لم يعد يخامره شك فى أن لينا لها رجل تحبه: «لقد اتضح أنها لعوب لا قيمة لها، لا شك فى ذلك. ومع ذلك فأنا الذى اخترتها. لا أحد غيرى يلام. والحق أنه ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة. الناس يساء ترتيبيتهم، ولا ينشّأون على المبادىء السليمة. ثم يتسرب إليهم الملل. العاصمة بعيدة، وحتى هناك لا توجد وسائل لهو كافية. زوجة خيتروف تدبر شئونها على ما يرام؛ إنها مشغولة ببيتها وأطفالها، وما ذلك إلا امرأة مسئولة وليست لعوبًا فارغة العقل. أنا سيئ الحظ. وعلى أية حال، من الحمق أن يتم الطلاق، أنا عندى ابنة. كيف يمكن أن أتركها بلا أب. أنا باختصار لا أتصور مثل هذه المصيبة».

نهض، وذهب إلى الغرقة التى تنام فيها شورا. وهناك وقف ينظر إليها مدة طويلة، وهو يمسح بكمه العرق المنحدر على خديه المنتفخين، وهو يتنفس تنفسًا مرتفعًا، ذا أنين: «لن يأخذوا ابنتى».

رقد فى سريره ولكنه لم ينم طول الليل، وفى الصباح قال للينا:

«عيشى كما تشائين، لن أقول شيئًا، ولكن لا يمكن أن نطلق. يجبأن نفكر فى شورا».

فقالت لينا إنها كانت تفكر فى «شورا» طيلة الوقت، وأن جورافليوف يمكن أن يأتى ليراها، أو يمكن أن تذهب بها إليه. وستظل لينا تحتفظ بعملها فى المدرسة، ولن تترك المساكن التابعة للمصنع، بينما تحاول الحصول على غرفة فى مكان قريب.

ولم يقل جورافليوف شيئًا . وذهب إلى عملهولكنه ظل طول اليوم لا يفكر إلا فى كلمات لينا . «لابد أنها فقدت عقلها حقً. إنها تخشى أن تفترق عن الرجل. يا للفضيحة! زوجة المدير تنتقل إلى شقة حبيبها . ستسخر المدينة منى إلى أن أخرج منها وهم لا يحبون مثل هذه الأمور فى موسكو على الرطلاق.

حاول أن يخاطبها بالعقل: «فى صباى كان الناس يهرعون إلى مكاتب التسجيل بنفس السهولة التى يذهبون بها إلى مكاتب البريد، يتزوجون اليوم ويطلقون غدًا . أما الآن فالأمر يختلف. لقد تغير القانون. الناس فى هذه الأيام يستنكرون مثل هذه الأمور، وقد يقولون: «كيف يمكن أن تكون هذه مدرسة؟ هذا فضلا عن وضعى وما يمكن أن يصيبنى من خسائر، أنا عضو فى الحزب، وأنا مسئول عن منشأة كبيرة. عواطف أو لا عواطف، عليك أن تفكرى فى هذا أيضًا».

والتزمت لينا الصمت.

ولم تعد إلى الموضوع فى اليوم التالى. ومر أسبوع. وبدأ جورافليوف يطمئن قليلا : «يبدو أنها ستغلب العقل، لقد تبينت أن هناك حدودًا معينة». وتصرف هو بتعقل وحذر، فلم يوجه أية أسئلة، وحاول أن يخفف من عبء وجوده عليها بقدر ما يستطيع . «من يدرى. لعلنا نستطيع أن نواصل الحياة معًا . وعلى أية حال، لم يحدث شىء فظيع. ما زلت أحتفظ بعملى، وأنا موضع ثقة، لا شك فى ذلك، وأنا، عمومًا، لا تعنينى مسائل الحب. أنا متعلق بشورا، والبنت لن تغير عواطفها نحوى. وإنه لشىء طيب ألا تحدث فضيحة. لابد أن هناك عائلات كثيرة فيها نفس الأمور المقززة،

ولكنهم لا ينشرون غسيلهم القذر أمام الناس. لقد كان كوروتييف على حق عندما هاجم كتاب الروايات، نحن نعيش فى فترة تاريخية هامة. وليس عند الناس المهذبين وقت للمغامرات الغرامية الخفية، إنه عاقل لأنه أعزب، فما يمكن أن يتعرض لمثل هذه الأشياء. هو إنسان عاقل فى جملته. كانت تعليقاته على مشروع برينين فى الصميم، عملوا حساب مواصفات الإنتاج، وإن كان الموضوع برمته سيرسل إلى موسكو، ليفعلوا ما يرونه مناسبًا هناك».

وبمجرد أن استعاد جورافليوف سلامه الذهبى أعلنت لينا:

«لقد عثرت على غرفة، ولكنها مؤقتة، حتى الصيف، عند فيدورنكو. إنه سيذهب فى دورة تدريبية. سأرتب كل شىء يوم الأحد، ثم أذهب».

تحقق جورافليوف أنها لن تتزحزح عن قرارها. ومن السخف أن يثير شجارًا، فالأحوال سيئة بما لا يتحمل المزيد، ومن الأفضل ألا تتعقد الأمور، قال بهدوء:

«افعلى ما ترينه مناسبًا».

انتقلت لينا يوم الاثنين. وعندما عاد هو فى مساء ذلك اليوم أحسَّ أن المنزل مهجور،على الرغم من أن كل شىء كان مرتبًا فى مكانه. وراح يحدق بعصبية فى الأشياء الصغيرة:«غريب أنها لمتأخذ شيئًا. لقد كانت تحب هذا الصندوق الخشبى الذى اشتريته لها من موسكو، ومع ذلك لمتأخذه معها.». وعثر فجأة، وهو فى غرفة المائدة، على عروسة شورا المكسورة. هل نسيتها؟ أو أن لينا قد رمتها؟

التقط العروسة وأحس فجأة أنه لا يستطيع أن يتحمل لحظة أخرى ويمكن أن ينفجر باكيًا. «هذا سيئ. وما أسوأ الطريقة التى انتهت بها الأمور. وقد كنت أظن أن لينا تحبنى. وفى احتفال رأس السنة الأخير قلت لبرينين «لنشرب نخب لينا، إنها زوجة رائعة». لا يمكنك أن تنقذ أبدًا إلى قلب الآخرين،لا شك فى ذل. ولكنما أشد كآبة المنزل، وشورا ليست هنا. بودى لو خرجت إلى أى مكان وتناولت كأسًا».

ودخلت الخادمة جروشا بصينية عليها الشاى والسلامى وخبز وجبن، فأخفى العروسة بسرعة: «يجبأن أتمالك نفسى. يمكن أن تحدث أشياء أسوأ. لقد فقد يجورروف زوجته ولكنه ما يزال يحتفظ بعمله. إن حياتى تكمن فى المصنع. يمكن أن يستمر سوكولوفسكى، وليس هو. وعلى أية حال، فإن سمعته ليست طيبة، قال زيتزيف فى الخريف الماضى إنهم يتحدثون فى أمر نقلى إلى موسكو. لا بأس، لن يكون هذا سيئًا. وأيًا كان الأمر فليس المصنع إلا واحدًا من وحدات عديدة،أما فى المكتب الرئيسى فيمكن أن تمتد خبرتى لتتدرب على نطاق الاتحاد كله. هذا، طبعًا، إن لم يكن الموضوع من اختراع زيتزيف. ولكن، لماذا يخترعه؟ ترى ماذا سيكون رد الوزارة على مشروع برينين؟».

نزلت لنا فى غرفتها الجديدة، وآوت إلي فراشها مبكرة، ومع ذلك فقد كادت تتأخر عن موعد المدرسة فى اليوم التالى. فكرت وهى ترتدى ملابسها بسرعة: «نمت فى الحادية عشرة، والساعة الآن الثامنة، وما زلت نعسانة». كانت تحس بإرهاق لا حدود له كما لو كانت قد عملت فى قطع الأخشاب طول اليوم، أو سارت ثلاثين ميلا!

«كيف حدث هذا؟ لست أدرى. ظل الموضوع يختمر ويختمر إلى أن تم فجأة. تركت المدرسة سيرًا مع بوخوف، وبحثت معهعن غرفة كوستيا، وعدت إلى المنزل وأنا لا يخطر على بالى أبدًا أن أقول شيئًا. ما أغرب ما حدث!».

سارت مسرعة لتلحق موعدها، وابتسمت فجأة، تذكرت كيف قال لها كوروتييف: «أنت مازلت صغيرة، من الصعب أن تفهمى». لقد تقدمت بها السن منذئذ، وفقدت سعادتها، ولكنها لم تستسلم، لقد تصرفت وفق ما أملاه عليه ضميرها. وفكرت: «إنه لا يحبنى، بل ربما هو يحتقرنى. وهو يظن أننى حاولت أن أفرض مشاعرى عليه. حسن، ليكن.هذا لا يغير من الأمر شيئًا، لقد كانهو الذى ساعدنى، رفع هذا العبء عن كاهلى. وأنا أشعر بانتعاش فى اللحظة التى أفكر فيه».

- «لينا».

كانت فيرا تنتظرها خارج المدرسة.

«لقد كنت قلقة عليك، وذهبت إليك مرتين، ولكنك لم تكونى موجودة. حس، يبدو أنك أكثر انشراحًا. رأيتك تبتسمين وأنت ماشية. لابد أنك تشعرين بتحسن».

«لقد غيرت عنوانى يا فيرا جريجوريفنا، انتقلت عند فيدرونكو، فى بلوك ج. أظن أنك تعرفينه، قالت زوجته إنك طبيبّها».

فهمت فيرا فى الحال، ولانت ملامح وجهها الصارمة، ورقت إلى درجة تقرب من العجز. ورجت لينا أن تقيم معها إلى أن تعثر على غرفة دائمة.

«ستشعرين براحة أعظم بكثير. إنها غرفة كبيرة ويمكننا أن نقتسمها، وهى قريبة من المدرسة. أنا أعرف زوجة فيدورنكو، لن تشعرى باطمئنان أبدًا حين تتركين شورا معها. وهى لم توافق إلا لأنها بحاجة إلى النقود. وعندى امرأةعجوزلطيفةفى الغرفة المجاورة لى، اسمها باستيا، مساعدة الدكتور جورخوف، سننظم الأمر معها، سترعى شورا وأنت فى الخارج. أنا مصرة، وستنتقلين عندى الليلة».

كان يومًا من أيام فبراير الباردة، ولكن الشمس كان فيها شىء من الدفء، ودخلت الفصل وهو صاخب مثل حظيرة الدجاج، ورأت الشبورة رمادية من أثر الطباشير الشمس وأشعة الشمس ترقص عليها. وفكرت لينا: «بعد قليل يقبل الربيع».

٨

اضطر بوخوف العجوز، بعد انفعاله العاطفى، إلى أن يلزم الفراش. هاجمته أزمة قلبية فى المساء، فأخفى الأمر عن «نادجدا»، مكتفيًا بأن قال لها إنه مُتعب ويود لو بقى يومًا أو اثنين فى الفراش، فاستدعت له الطبيبة فيرا شيرر، ثم استدعت جوروخوف، واستحثت زوجها على تناول النقس التى قررها الطبيب، ولفته بالأغطية، وراحت تتنهد بصوت عال. ولام بوخوف نفسه، كان يجب أن يبذل شيئًا من الجهد وينهض من الفراش.

وجاء فولوديا بالأخبار: تركت زوجة جورافليوف منزلها. قالها ضاحكًا. حسن، أليست قصة طريفة! وسُرّ بوخوف إلى درجة أنه لم يلتفت إلى تعليقات فولوديا، بل قال لزوجته: «هذا حسن. لم أفهم على الإطلاق كيف كانت تستطيع الحياة معه. أنا أعرفها، اشتغلت معها عامين، عندها ضمير، وتقوم بعملها بجد وإخلاص، والأطفال يحبونها. كنت كثيرًا ما أسمع أولادى الصغار يقولون: «إلينا بوريسوفنا ساعدتنى». أما عن جورافليوف فهو بيروقراطى بكل معنى الكلمة، كم من دموع ذُرفت بمرارة بسبب رجال من أمثاله،

ولكن هذا لا يعنيهم. إذا استؤصل أحدهم نبت عشرة آخرون، مثل عيش الغرابيعد المطر!. غريب جدًا، لقد رأيت لينا أخيرًا، يوم جاء الخطاب الخاص بكوستيا،ولم تقل لى أى شىء.. لا يمكن أن تتصورى كم أنا مسرور».

دخل فولوديا غرفة سونيا وسألها:

«هل تعرفين زوجة جورافليوف؟».

«لا، أعنى أنها جاءت هنا مرات عديدة لترى والدى، ولكنى لم أتحدث معها أبدًا. هل تحدثت أنت معها؟»

«قليلا. أنت تعرفين أننى أرسم صورة له. رأيت مثلها فى موسكو. من الطريف أن والدى يصور الناس جميعًا فى صورة مثالية. لعل ذهنه لا يزال مليئًا بذكرى الفتيات اللاتى كنيذهبن للنضال بين الشعب أو ينغمسن فى النشاط الثورى ويحكم عليهن بالأشغال الشاقة. إنهن اليوم يسعين للزواج من منتجين سينمائيين أو جنرالات أو مديرى مصانع مثل هذا. إن والدى فى غاية السرور لأنها تركته».

«من أين لك بهذه الفكرة ».

«إنها حقيقة، هذا هو الشعور العام هنا حاليًا. أرى أنه لا مجال للمفاضلة بينهما كثيرًا. ألا توافقنى؟».

«قلت لك إننى لا أعرفها، كما لا أكاد أعرفه أيضًا. والآراء حوله تختلف. فسافشنكو مثلا يرى أنه يفتقر إلى المبادرة. وعلى أية حال، أنا عندى ثقة فى أحكام والدى».

«إذن، فأنت مسرورة؟».

«أوه. كف عن مضايقتى. قلت لك إننى لا أعرف أيتهما. ولكن إذا كانت عند والدى فكرة حسنة عنها فهذا يعنى الكثير بالنسبة لى. غير أن الطلاق شىء مقزز، كثير من الكلام، والقيل والقال، وإعلانات الصحف، وقرارات المحكمة. فيما مضى ربما كان الأمر يبدو طبيعيًا، ولكنه الآن مخجل على نحو ما. مهما يكن، فالناس ليسوا أطفالا عندما يقررون الزواج، يمكنهم أن يختاروا وأن يفكروا فى الأمر بترو».

وانفجر فولوديا بالضحك: «وأن يجروا تحليلات، ويستشيروا خبراء».

«وماذا يضحك فى ذلك؟ كيف حال والدى؟».

«أظن أنه أحسن. عندما أخبرته بنبأ أسرة جورافليوف كاد يقفز من مكانه».

«هذا، بالضبط هو ما يؤذيه. إنه يقتل نفسه. حدث أن خرج يمشى ثلاثة أيام مهرولا إلى شارع لينين ليتحدث إلى بعض تلاميذ الصف الأول. أليس هذا فظيعًا؟! اعتدت أن أقول لوالدتى إن طاقته العصبية هى التى تبقيه على قيد الحياة، ولكنى أتنين الآن كم هى على حق. يجب، باختصار، أن نحمله على التعقل بأى ثمن».

تلاشت الابتسامة منعلى وجه فولوديا،وقال:

«أنا لا أوافقك. إن أبى ليس مثل بقية الناس. كما أنه ينتمى إلى جيل مختلف. فى أيامنا هذه لا يكاد الشخص يرهق نفسه قليلا

حتى يصاب بانهيار قبل أن ينتبه أحد إلى شىء. أما هؤلاء الناس كبار فهم مصنوعون من معدن مختلف. وكنت دائمًا أسأل نفسى: من أين جاءوا بكل هذه القوة؟ إن الأمر يبعث على الخوف طبعًا، وأنا أيضًا قلق من أجل والدى. ربما تظنين أننيلست خائفًا لأننى زضحك. غير أن المشكلة هى أنكلا تستطيعين أن تفعلى أى شىء ، لقد عاش بطريقته الخاصة، وسيموت بطريقته الخاصة، وسيموت بطريقته الخاصة أيضًا».

خرج فولوديا. واستقلت الأم لتنام، كان القلق قد أرقها طول الليل. ودخلت سونيا تطل على ولدها فوجدته يقرأ. وحزمت رأيها على أن تتحدث إليه.

كانت قد استعدت لهذا الحديث. وكانت تتصور أنأمها عاجزة عن التأثير عليه لأن حجتها الوحيدة فى أحاديتها معه هى صحته، وهو يرد بالنكت أو بالصمت، وبعد ساعة يعاود الخروج ليرى «الذين يشملهم بحمايته». وهذا محض طفولة. كان يبدد ما بقى من عافيته على حفنة من التلاميذ. لقد طلب منه مرتين أن يكتب مقالا عنخبرته فى التدريس، وفى إمكانه أن يكتبه فى السرير أو أن يمليه لسونيا، إن كان فى ذلك إرهاق له. وبصدق، إنهذا أكثر أهمية من أن يجرجر نفسه إلى شارع لنين ليثرثر مع بعض المراهقين.

كل هذا قالته سونيا لوالدها بصوت يختلج قليلا بالانفعال.

وظل بوخوف ينصت باهتمام، وجاءت لحظة ظنت هى أنه يوافق على كلامها، والحقيقة أن كل كيانه كان مليئًا بالحنق. ولم يتمكن منحمل نفسهوعلى الإنصات حتى النهاية إلا بجهد كبير.

وفكر: «يا لها من إنسانية غريبة عنى. إن شرنيشيف وسانيكوف وسافشنكو كلهم يفهموننى، وعلى ذلك فليست المسألة مسألة فارق فى السن. ناديا تستحثنى على البقاء فى المنزل أيضًا،ولكنها لا تقول أبدًا إنه من السخف أن أذهب لرؤية أولادى، فهى تعرف أن هذا ضرورى. مهما يكن، فقد عشنا كل حياتنا معًا. إنها لا تقدم أى حجج، كل ما هنالك أنها خائفة، وأنا أيضًا خائف من أجلها حين يخطر ببالى كم ستشعر بالوحدة بعدى. ولكن سونيا أمرها يختلف، ففى رأيها أن ما أعمله لا يبدو إلا محض طفولة. هذا ما قالته: «طفولة». وهى تتحدث إلىّ كما لو كانت أكبر منى سنًا. لا أجد لهذا تفسيرًا».

وأخيرًا قال: «لا أستطيع أن أفهمك يا سونيا.أنت تقولين إن هذا أهم من ذاك،فكيف تزنين الأمور؟ ربما يجب على أن أكتب مقالا، وأنا أفكر كثيرًا فى ذلك، بل إنى كتبت بعض النقاط. ولكن هلى يعنيهذا أن أهمل أولادى؟ حاولى أن تفهمى الموضوع، إنهم بلا أب، بل إن شرنيشيف ليس له يف الحقيقة أم كذلك. أنت تقفين ثابتة على قدميك الآن، ولكن ألا تذكرين كيف كنت تهرعين إلىّ من أجل نصيحة؟ ألا ترين أن هناك أناسًا أحياء وأنهم سيواصلون غدًا بناء ما بدأناه. وأنت ترين أننى يجب أن أنبذهم؟».

«أنا لا أنكر أنها مشكلة جدية. ولكن ماذا يمكن أن تفعل بمفردك؟ هناك مشكلات يجب أن تحل على نطاق الدولة كلها، وإلا فإنها تتحول إلى شغل هواة.تقول إنكتساعد شرنيشيف اليوم، ولكنك لن تكون موجودًا فى الغد وسيسقط هو تحت سيطرة إحدى العصابات. وإنما ذكرت المقال لأن هذا ضرورى حقًا. قلت لى مثلا

إن عندك بعض الحجج ضد الفصل بين الأولاد والبنات فى المدارس، وقد قرأت شيئًا عن الموضوع فى مجلة ليجازتيا، هناك مناقشة تدور حوله. ولو أنك تقدمت بوجهة نظرك فإن هذا يمكن أن ينتهى إلى نتيجة عملية، لا لعشرة أولاد فحسب، ولكن لعشرة ملايين. هذا، بدلا من أن تنفق ما بقى من عافيتك فى جدل مع أم سيريوجا، أو فى مناقشة بعض مسائل الطبيعة مع ميشا. والحق أن هذا غير معقول».

«لا يا سونيا، بل إنه معقول جدًا إنالمجتمع مكون من أناس أحياء، والحساب وحده لا يمكن أن يوصل إلى أى شىء. ولا يكفى التوصل إلى إجراءات يمليها العقل، وإنما يجب تطبيقها، وكل شخص مسئول عنذلك. ولا يمكن أن تختزلى كل شىء إلى الصيغ المستخدمة للجان: «لقد أقر هذا، وتمت الموافقة على ذاك». إن مستقبل المجتمع يتوقف على الطريقة التى نحيا بها ،نعمل، ونقيمبها علاقات مع الناس الآخرين. لماذا تقولين متهكمة: ماذا يستطيع إنسان واحد أن يفعل؟ لا أستطيع أن أفهمك. منذ سنوات مضت، قبل الثورة بحوالى ست أو سبع سنوات، أذكر أننى كنت أذهب إلى أحد الطلبة، صديق من أصدقائى؛ كنا مجموعة تقرأ لنين وبلخانوف. وأخبرت والدى. كان رجلا هادئًا، يكاد يكون خجولا ومنطويًا. وكان يشغل وظيفةكتابية ومعتادًا على الزجر والتوبيخ، سألنى: «كم عددكم؟ ثمانية؟ أنتم مجانين! ماذا يمكن أن يعمل ثمانية أشخاص؟» ولكنه كان رجلا عجوزًا،له عذره؛ كما كان الزمن غير الزمن. أما أنت فصغيرة، وأنت عضو فى الكومسومول، يجبأن

تكونى جسورة لا أن تتهربى من المشاكل. أنا أعرف أن لك روحًا عالية، فلماذا تكبيلها؟».

نظر فى عينيها وهو ينهى كلامه: كانت عيناها متألقتينمحمومتين، وتحركت شفتاها تريد أنتجيب، ولكنها لمتجدالكلمات. وأنساه ما رآه من ازتباكها الشديد كل الجدل بينهما فأخذها بينذراعيه.

«ليس هذا طبعك أبدًا، فى الحقيقة».

تركته وهى مكدّرة،ليقنعها، ولكنه أثار همها. أحست وكأن فى كلماته قوة نائية، ربما تصل إلى حد الإلغاز.

«ما أصعب الحياة. ما أشدها صعوبة!».

التقطت كتابًا وحاولت أن تجبر نفسها على القراءة. وبدأ الضوء يذوى تدريجيًا، وأصبح كل شىء فى الغرفة رماديًا. وتوجهت إلى النافذة. وبدا الثلج بلون قرمزى. وفكرت:

«يظن أبى أننيواثقة من نفسى، فهو يقول «أنت تقفين ثابتة على قدميك الآن». والحقيقة أننى ما زلت أتعثر. وأنا لا أرى شيئًا، مثل هذا الشفق، لا هو نهار ولا هو ليل.كل شىء يدعو إلى الحيرة. لطيف أن تستطيعى السخرية منكل شىء، مثل فولوديا. على الرغم من أنى لا أحسده على حاله وأعتقد أنه ضائع... زوجة جورافليوف لها وجه جذاب. لماذا تركت زوجها؟ فيما مضى كان هذا أمرًا مفهومًا. كان الناس يتزوجون على غير إرادتهم، أو كانوا يتزوجون طلبًا للراحة. وقد اختلف كل شىء الآن، ومع ذلك فلا يزال الناس

يطلقون. إنه لشيء مخيف ألا تستطيعين قراءة أفكار الأخرين. أنت تسيرين في الظلام، تظنين أن السعادة أمامك فإذا بك تخطين خطوة واحدة لتجدى هاوية. يا للعبة الرهيبة! مثل حالى مع سافشنكو... هذا موضوع آخر لا يفهمه والدى، وهو دائمًا يقف فى صف سافشنكو. هذا موضوع آخر لا يفهمه والدى، وهو دائمًا يقف فى صف سافشنكو، وهذا شىء طبيعى من زاوية معينة، فشخصيتاهما متشابهتان. ولكن عندما ينفعل والدى ويميل إلى المبالغة، فلا يملك الإنسان إلا أن يحترمه؛ فأيًا كان، لقد أثبت بحياته كلها أنه لا يقول كلامًا أجوف و. أما إذا عمل سافشنكو نفس الشىء مضحك، إنه لم يعش حياته بعد. ولا أنا أيضًا، أنا لا أفهم شيئًا. يبدو أن والدى مقتنع بأنى أحب سافشنكو. قال لى أخيرًا: «عندما تبتان فى أمركما». أنا أحبه طبعًا، أظن أن هذا لا يخفى على الرغم من محاولاتى. ولكننا لن نبت فى أى شىء أبدًا .أنا مؤمنة بذلك. أنا أفكر فيه كثيرًا جدًا. وهذا شىء سخيف وعقيم»».

أضاءت النور وأنهت قراءة المقال الذى بدأته، وهومقال عن المولدات الحديثة لكوبيشيف (مردة حقيقية!). دق جرس الباب، وتذكرت أن أمها نائمة فذهبت لتفتح. وكان القادم هو آخر إنسان تتوقع مجيئه فى تلك اللحظة: سافشنكو.

لم يكن أحدهما قد رأى الآخر منذ عيد ميلاد الوالد. وظلت سنويا تنتظره فى الأيام القليلة التالية، وفى كل ليلة تنصت لجرس الباب فى الانتظار. كان وقحًا وما كانت تنتهى صداقتهما إلى شىء طبعًا، ومع ذلك فمن العبث أن ينتهى الأمر بمشاجرة، ولكنه ظل مبتعدًا.

استمر هكذا شهرًا، على الرغم من أن الأمر كان صعبًا على نفسه. كان فى كل ليلة يهم بالذهاب إلى منزل أسرة بوخوف، ولكنه كان يستدير على عقبه عنتدما يصل عند الكيماوى على الناصية. ولسبب ما كان دائمًا إذا بلغ الكيماوى، يسائل نفسه: ماذا يدعونى إلى الذهاب؟ قالت لى بوضوح إن أمرى لا يعنيها، وهى لا تريد الكلام فى الموضوع. أما عن مجرد الصداقة البسيطة فليس باستطاعتى قبولها، حتى لو أردت. من الأفضل ألا أحاول...».

ثم يعود إلى البيت، أو يتوجه إلى النادى، أو يذهب لزيارة كوروتييف الذى كان يسكن بجواره.

فى البداية، عندما أرسل سافشنكو من معهده إلى المصنع، أخذه كوروتييف تحت جناحه، يرشده فى عمله ويشجعه: «العمل دائمًا صعب فى البداية، النظرية شىء، والإمكانيات العملية لمصنع شىء آخر». وذات ليلة دعا سافشنكو إلى غرفته: «لنجلس معًا قليلا نتدارس مشروع برينين. لقد أجريت عليهبعض التعديلات». وعندما فرغا من العمل أخذ كوروتييف يحدث يافشنكو عن المصنع الذى تلقى فيه تدريبه الأساسى فى ليننجراد. واستمرا يتحدثان حتى الفجر. وقال له كوروتييف وهو يودعه: «أرجو أنتزورنى مرات أخرى.أنا لا أنام مبكرًا أبدًا. ويمكن أن نتحدث عن أشياء أخرى غير الماكينات». وبعد أن ذهب ابتسم كوروتييف: «هذا فتى طيب. كنت أكثر نضجًا وأنا فى مثل سنه. وبعد ذلك قامت الحرب. نحن الآن فى زمان مختلف. وهو لم ينبت ريشه بعد».

وفى الزيارات التالية حكى له كوروتييف عن الحرب، وعن معركة الدون التى فقد فيها أحد الشعراء حياته، كان فتى يطلق عليه،

تجاوزًا، اسم «بوشكين»، وكان يلقى أشعارًا تبدأ بالكلمات «عندما أذكرك فى شيخوختى». وحكى له عن متحف صغير فى مدينة ألمانية مخربة حيث عثر،بين قرون الوعول والطيور المحنطة وأعلام النازى، على صورة رائعة لفتاة، رسمها أحد كبار الفنانين المجهولين فى القرن السادس عشر؛ كما حدثه أيضًا عن شبابه وكانا أحيانًا يناقشان الأنباء: محاكمة مصدق، والإضرابات فى فرنسا، ومؤتمرات وزراء خارجية الدول الكبرى؛ أو يناقشون كتابًا صدر حديثًا. وكان سافشنكو ينصت إلى صديقه مأخوذ اللب، ناسيًا حبه التعس. كان من السهل أن يبهر. وهو إذا ضحك يلقى رأسه إلى الوراء ويكشف عن أسنان بيضاء متألقة فى وجهه الداكن. كان فيه شبه من الغجر، وهو يقول ضاحكًا: «لابد أن جدتى كانت تتردد على معسكر الغجر، وقد اعتاد جدى أن يقول إنها كانت فى منتهى الشقاوة».

فى الليلة الماضية تحدثا فى الأدب. وكان سافشنكو قد سأل فجأة: «لماذا هاجمت زوتوف تلك المرة فى النادى؟» وتجهم كوروتييف، ولم يجب. وبعد مرور بعض الوقت أنزل كتابًا، وسأل: «هل تحب الشعر؟» فأشرق وجه سافشنكو: «أكثر من أى شىء، فيما أعتقد». وقرأ كوروتييف بصوت عال:

واقترقا فى أسىً صامت ذى كبرياء.

وما رأيا رسم حبهما إلا فى الأحلام.

ثم جاء الموت، ومن بعده الحساب.

وفى ذلك العالم تحول كلّ عن الآخر دون معرفة.

انشرح سافشنكو، ولكن وجهه أظلم فجأة وكأن شمعة قد انطفأت، وغاضت الابتسامة من وجهه، فهو يفكر فى سونيا: «نحن نتقابل ونتحدث، ولكنها تعاملنى كما لو كنت غريبًا. ومع ذلك،ففى اليوم الذى كنا نتمشى فيه بين الأشجار ظننت أنها تحبنى. قبلتنى ونظرت فى عينىّ بطريقة لا أملك كلما تذكرتها، حتى الآن،أن أتمنى أن أهرع إليها وأقول لها: أنا الذى تحبينيا سونيا، إنه أنا. ألا تعرفينى؟».

رفع نالظريه إلى كوروتييف الذى كان جالسًا بلا حراك، وكتابه ملقى على الأرض. وساد صمت طويل. وأخيرًا استجمع سافشنكو شجاعته وقال:

«قل لى يا ديمترى سيرجيفتش، هل تعتقد أنه إذا شعر رجل بالحب نحوامرأة، فهل يجب عليه أن يناضل من أجل سعادته؟ يبدو أنهذا شىء مهين.»

ابتسم كوروتييف ابتسامة لا تكاد تلحظ:

«عليه أن يناضل. ثمة لحظات يجب أن تشق فيها طريقك وسط الضباب الكثيف».

وابتسم سافشنكو مرة أخرى.

وهكذا جاء لزيارة سونيا، وفى نيته أن يقول لها كل شىء، أن يشق طريقه وسط الضباب الكثيف، وأن يعثر على سعادته.

«هيا بنا نتمشى معًا يا سونيا، أريد أن أتحدث معك فى أمور كثيرة، ولا أشعر برغبة فى البقاء هنا».

«الجو بارد فى الخارج، ولكن إن كانت هذه رغبتك، فلا بأس».

كان الجو قد عاد شديد البرودة والرياح تهب من الشمال، والناس يسرعون فى طريقهم، لا أحد يسير على مهل إلا سافشنكو وسونيا، لم يكن أمامهما مقصد يهرعان إليه. ومن بعيد كان يبدو أنهما حبيبان سعيدان، ولكنهما كانا يتجادلان طول الوقت. تكلم يافشنكو عن كوروتييف، وعن تغيير سرعة الماكينات بطريقة آليه، وعن مؤتمر برلين، وعن فيلم إيطالى رأياه فى النادى. وأيًا كان الموضوع الذى يتصادف الحديث فيه كانت سونيا تناقضه، لم تكف عن اللتعليق إلا عند الحديث فى الماكينات.

«كان فيلمًا رائعًا. كدت أبكى عندما غضب الولد الصغير من أبيه».

«إنه عاطفى. فيه أجزاء جيدة ولكنه لا يعطى حلا للمشكلة. لم أتبين أبدًا ما الذى سيقدم عليه هذا الرجل العاطل فى النهاية: هل سينضم للشيوعيين أم يظل غير مستنير سياسيًا؟»

سارا مائة ياردة. وكان سافشنكو متحمسًا لفرنسا.

«لا يمكن أن يوافق الفرنسيون على التعديل».

«عمن تتحدث؟ عن الشيوعيين أو عن الجمعية الوطنية؟ يجب أن تفكر فيمن بيده السلطة الحقيقية. أنت دائمًا تدع نفسك يأخذها الحماس».

«إن ما أتحدث عنه هو السلطة الحقيقية. ألم تتعلمى أن الأفكار إذا وصلت إلى وعى الملايين فإنها تتحول إلى قوة مادية؟».

«هذا عن المستقبل، ولكننا نتحدث عما هو موجود الآن».

وسارا مائة ياردة أخرى.

«اليوم أهان جورافليوف أحد عمال الماكينات بلا سبب، قال له إنه لا يفهم شيئًا. إن جورافليوف وغد حقيقى».

«أنت دائمًا تبالغ. يقول والدى إنه رجل عادى، مجرد بيروقراطى».

«هذا هو رأى كوروتييف أيضًا، ولكنه فى رأيى وغد سافل. والآن، بعد أن تركته زوجته، أفلت زمامه تمامًا. هل سمعت عما حدث».

«سمعت، وإن كنت لا أحب القيل والقال. لا أهتم بحياته الخاصة».

«أما أنا فأهتم، وأود لو أفهم: أى نوع من النساء يمكن أن يحبه. سألت كوروتييف اليوم عن رأيه فى زوجة جورافليوف، فقد اعتاد أن يراهما كثيرا، ولكنه لم يجب، كان فى عجدلة. أنا مقتنع بأنها أفضل منه، وخير أنها تركته».

«لا أرى أى خير فى ذلك».

«حتى لو كان شخصًا سافلا»؟

«كان يجب أن تفكر فى ذلك سلفًا».

«ألم يرسم أخوك صور لجورافليوف؟»

«أظن ذلك. أنا لم أرها».

«ما الذى جعله يرسم مثل هذا الشخص السافل؟»

«لا أعرف. أظن إنه مكلف. من الأفضل أن تسأله».

« لا، لن أسأله. فأنا أميل إلى ما قاله سابوروف عن الفن، وأرى أن آراء أخيك غريبة جدًا. هل تظنين أنه يعنيها أو أنه يتظاهر؟»

«لا أعرف. هو مثلك. كل منكما يعيش بعواطفه. والفارق الوحيد أنه يرى الأشياء كلها سوداء، وأنت تراها وردية.

«وأنت؟»

«لم أكن أتحدث عن نفسى. أنا أراها كما هى».

كانا قد مرّا بمعمل الكيماوى مرات عديدة، جيئةوذهابًا. وسافشنكو يتحدث الآن عن كتاب قرأه أخيرًا ولم يعجبه.

«هذه ليست رواية واقعية. إنها مهينة للإنسان».

وكانت سونيا نفسها تكره الكتاب، ولكنها غضبت»

«أنا لا أرى أنها كذلك. بل أرى أنها رواية جديرة بالاهتمام، وأنها تثير مشكلة هامة. ولكن ألا ترى أن هذه المناقشة الأدبية يمكن أن ترجأ؟ الجو شديد البرودة. أعتقد أنك كنت تنوى أن تقول شيئًا ما. إن لم نقل شيئًا فلنذهب إلى المنزل ونتناول الشاى».

صمت سافشنكو. كانا بالقرب من المنزل ذى الطوب الأحمر. وقال لنفسه: «إما الآن، أو لا شىء إلى الأبد. ما أحمق أن أفقد القدرة، على الكلام كما لو كان ضاع منى فى الثلج» «أقول لك يا

سونيا... لا تسخرى منى، ولكن الأمر هكذا، من غيرك لا أستطيع... ليأتى الضباب، ليأتى الجليد، أى شىء لا يهمنى».

ولم يقل لسونيا شيئًا. وأخذ يدها بين يديه ولمس فمها البارد بشفتيه. وهمست هى بأسى:

«لا فائدة. هناك هوة سحيقة بيننا،هوة سحيقة إلى درجة تصيبك الدوار».

وبعد ثانية قالت بصوتها العادى:

«لقد قلت لك إن شخصيتينا مختلفتان تمامًا.دعنا من هذا الموضوع. هل تأتى لتناول الشاى مع العائلة؟ لماذا لا تقول شيئا؟ ألا تريد؟»

وقال سافشنكو غاضبًا:

«كلكنك لم تقولى لى بعد إن اثنين زائد إثنين يساوى أربعة، وأن النقود يجب أن تودع فى بنوك التوفير».

بعد ذلك بفترة نادتها أمها:

«سونيا، تعالى لتناول العشاء. قال أبوك إن سافشنكو كان هنا. لماذا لم تبقيه؟»

«عنده اجتماع. مشيت معه قليلا. عندى صداع يا أمى ولن أتناول عشائى».

وأغلقت على نفسها غرفتها. كانت تشعر بمرارة. ألم تلفظ السعادة بنفسها؟ ولو أنها صارحت والدها لقال: «لابد أنكما قد

جننتما. أنتما تحبان بعضكما فلماذا تعذبان نفسيكما؟» وفكرت: «لا يمكننى أن أشرح له الأمر ولكنتى متأكدة من أننا لا نستطيع الحياة معًا. لايقتصر الأمر على هذه المشاجرة فحسب. ما أشد حماقته وهو يتحدث عن بنوك التوفير، يتعين علىّ أن أكرهه من أجل هذا وحده. إنه ليس إلا تلميذًا؛ لابد أنه آسف لأنه احتدّ. أنا أرى الموضوع بكل وضوح، يمكن أن نحزم أمرنا غدًا أو فى الشهر القادم، ولكن هذا لن يؤدى إلى أى نتيجة، كيف يمكن أن يتعاشر اثنان إن كانا لا يتفقان على أى شىء؟ هو يعتقد أننى عملية جدًا، وأننى لا أومن بأى شىء سوى جدول الضرب. وهذا ليس صحيحًا، ولكنى أعيش على الأرض، ولا أعرف كيف أحلق فى الفضاء. الشىء الوحيد الذى يحيرنى هو لماذا ينجذب كل منا نحو الآخر. لم يستطع أن يظل بعيدًا هذه المرة ولا أنا استطعت أن أستغنى عنه. لقد أهاننى، ومع ذلك فهل أجد فى نفسى الشجاعة لطرده إن عاد؟ ما هذا؟ عندما قبلنى خارج البوابة ظننت أننى ربما بكيت أو ألقيت نفسى بين ذراعيه. يقول والدى إننى أكبل قلبى، كم بودى أن أذهب إليه وأقول: كنت على حق، ما كان يجبأن أتكلم هكذا، وكنت على حق فى فكرتك عنى أيضًا. هذه الأغلال الرهيبة،إنها تكاد توقف نبضات قلبى، إنها تدمرنى.»

٩

كان فولوديا فى حالة مزاجية سيئة طيلة هذه الأسابيع. ظل مبتعدًا عن سوكولوفسكى، وحين قابل تانشكا فى الشارع قال لها بصراحة: «لاتتصورى أنك آذيت شعورى، هذا كله كلام فارغ، ولكن حالتى سيئة، ولا أحس برغبة فى رؤية أحد، حتى أنت...»

فأجابت: «لن أفيدك فى شىء. أنا نفسى فى حالة سيئة. فشلت ليلتنا الأولى مرة أخرى. وتشاجرت مع المنتج، وأصبت بألم فى أسنانى. يجب أن أذهب إلى عيادة للفحص الشامل. وعلى ذلك فلن أكون مؤنسة فعلا». كانت تانشكا دائمًا فى شك من أمر «عواطف» فولوديا، ولكن الحق أنه كان ينوى الذهاب لرؤيتها، ولكنه يغير رأيه فى كل مرة، فهو يعرف أنها مبتئسة وبحاجة إلى من يسرى عنها، وهو فى حالته المزاجية الراهنة لايملك إلا أن ينقل إليها ما يحس به هو من تعاسة.

سأل نفسه: «ماذا حدث أتمزق هكذا؟» كان يظن أحيانًا أن هذا راجع إلى بعده عن موسكو، وأحيانًا لأنه بحاجة إلى نقود، وأحيانًا يكتفى بأن يتنهد وهو يقول: سلقد شخت».

والحقيقة أنه كان يعانى صعوبات مالية. فالصورة التى رسمها لجورافليوف لم تعجب أحدصا إلا جورافليوف نفسه. وجاءته فى الوقت المناسب مهمة صغيرة تدر عليه رزقًا : لوحات لزخرفة معرض زراعى، تمثل أبقارًا ودجاجًا من سلالات ممتازة. ولكن أمر البقر سهلا، فقد زود بصور فوتوغرافية حسنة لها، ولكن الدجاج سبب له متاعب لاتنتهى. كانت دجاجات بيضاء تختلف تماما عن السلالات المحلية ومنحوا فولودليا فرصة الذهاب إلى إحدى مزارع الدولة ليرسم من الطبيعة. وهنا طار صوابه: هل انتهى به الأمر إلى أن يسافر خمسين ميلا من أجل بعض الدجاج التعس؟ وأخيرًا حصل على صور مجلات للدجاج من النوع المناسب، وانتهى من رسم اللوحات، وتقاضى مبلغاآلاف وسبعمائة روبل.

ولكنه ظل يشعر بمعنوياته منخفضة، مما سبب له ارتباكًا كاملاً، فقد اتضح أن الأمر لم يكن أمر نقود على الإطلاق. كان حسنًا أن نتمكن من إعطاء ثلاثة آلاف روبل والدته، ومع ذلك فقد ظل يشعر بالتعاسة.إن شيئًا فظيعًا يحدث له. لم يسبق أن عانى مثل هذه الحالة حتى بعد أن فقد الاستديو الذى خصص له فى موسكو، أو بعد أن قذفته ليولا بأخبار خطبتها إلى شابوشنيكوف. شعر بأنه جرح، إذ كان يعتقد أنه مغرم بها، ولكنه ذهب فى الليلة نفسها مع ميشا إلى اتحاد الفنانين، وهناك قابل زوجة شوارتز وشرع على الفور فى مغازلتها، ولم يسمح لهمومه بالنيل منه. أما الآن، فيبدو وكأنه ضرب على أم راسه، وإن كان لم يحدث أى شىء، ولا سوء

تفاهم بينه وبين تانشكا، فلو أنه زارها لرحبت به كالعادة. لقد قالت له: «عندما تفيق من ارتباكك. تعال لزيارتى»، ولكنه لم يحس برغبة فى الذهاب، لقد قال لسونيا أنه يشعر بالضجر فى هذا الجحر النائى، ولكن الحقيقة إنه لم يكن يذوب حنينًا إلى موسكو. فهناك عليك أن تتألف إلى هذا الفنان أو ذاك، وترقب أسهم من فى صعود وأسهم من فى هبوط، وألاتغفل عن الحساب والقتال من أجل نصيبك من الكعك، وقد فعل هو كل ذلك، بشكل لابأس به، ولكنه لايشعر برغبة فى مواصلة العملية فى الوقت الراهن. ومن السابق لأوانه جدًا أن يحس الإنسان بالشيخوخة وهو فى سن الرابعة والثلاثين، ولكن لابد أن السن تقدمت به بشكل محسوس. هنا لا أحد يؤذيه، وهو الفنان الأولى فى الإقليم، ويجد صحبة ذكية فى شخص سوكولوفسكى، كما توجد تانشكا. وكان والده يتحسن، وهذا شىء طيب. لم يسبق له أن تبين عظم تعلقه به. يجب الاعتراف بأنه طالما تعمد إغاظته، وأن هذا شىء سخيف. إن آراء الرجل العجوز قد عفى عليها الزمن طبعًا، ولكنه كان رجلاً كبيرًا متميزًا جديرًا بالاحترام، ولايجب المساس بإحساسه. فماذا بعد كل هذا كان السبب فى اكتئاب فولوديا؟ ربما يرجع السبب إلى التفكير. إنه فى موسكو كان يفتقر إلى الوقت، كان يلف ويدور كلفأر فى طاحونة المذنبين. أما هنا فالوقت أمامه متسع، وسواء رضى أو كره فقد بدأ يفكر. كان دائمًا يتصور أن المجانين وحدهم الذين يمكن أن ينشغلوا بمجرد التفكير. ليس فى شىء بذاته ولكن فى الأمور عمومًا. وهاهو نفسه يفعلها الان. كانت مهمة بغيضة.

قلت نكات فولوديا، وفقدت نظراته الومضات الاستفزازية التى طالما أثارت غضب مدرسيه، وفى الآونة الأخيرة جعل الدموع تذرف من عينى تانشكا. وهو الان يتكلم بلا مبالاة مهذبة. وذات مرة وجد نفسه يجلس إلى جوار سافشنكو فى الأوتوبيس، وتبادلا حديثًا تكلم فيه سافشنكو عن ماكينات سوكولوفسكى الجديدة. ولم يكن فولوديا يحب الماكينات لكنه لاحظ أن سافشنكو لم يكن ذلك الغبى الذى تصوره. وفى تلك الليلة قال لأخته: قابلت شافسنكو صدفة، كان حديثه ممتعًا وهو فى جملته يبدو ذكيًا» نظرت إليه مدهوشة، ثم قطبت وجهها وقالت: «لا أفهم لماذا تخبرنى بذلك».

فى تلك الليلة الباردة التى كان فيها سافشنكو يتمشى مع سونيا فى الشارع جيئة وذهابًا، ترك فولوديا دون أن تكون عنده فكرة عن كيف يقضى ليلته. وابتسم حين لمحهما عبر الشارع إلى الجانب الآخر، فلاداعى لإزعاج الشباب. إلى أين يذهب؟ «إن سوكولوفسكى قد مل صحبتى. اخر مرة كنت هناك لم يتكلم على الإطلاق. إنما ظل مشيحًا بوجهه كأنه ابتلع جرعة من الخل. ترى ماذا يفعل وهو يجلس طول الوقت وحيدًا مع الكلب فومكا. ربما يزمجر كل منهما للآخر. وعلى كل حال، فأين أذهب أنا؟ فى مطعم الفولجا يجلس أشخاص فى مهام رسمية يلوكون شرائح اللحم العجالى فى كآبة، والسكارى يضجون ويرجعون الفودكا مرقشة بالنبيذ. شىء غير مسل. وفى الطريق يكون الجو شديد البرودة.

وفجأة تذكر سابوروف، لماذا لايذهب لرؤيته؟ لم يذهب إلى هناك منذ سفره إلى موسكو فى عام ١٩٥١، منذ ثلاث سنوات. «يمكن أن ألقى نظرة على روائعة. البائس التعس. لابد أنه يعيش حياة تثير التقزز. من الزفضل أن يحصل على بعض الطعام. إنه مجنون. ولكنه يود لو حصل على وجبة صغيرة وبعض الشراب، بعد ما رأيت انقضاضه على فطائر أمى».

دخل فولوديا دكانًا واشتى كميات من الطعام، وفودكا من أجل سابوروف ونبيذًا من أجل زوجته، وأخذ تاكسيًا إلى الطرف الآخر من المدينة، ولم يستطع التاكسى أن يمر فى الشارع الصغير الملتوى المنحدر إلى النهر، فنزل فولوديا، وبصعوبة تمكن من الوصول إلى المنزل الصغير المعوج القرمزى. كان فى يوم من الأيام ملكًا لأحد التجار، واليوم تقتسمه أربع عائلات، من بينها أسرة سابوروف.

تجهم فولوديا حين خطا فى الغرفة الصغيرة القذرة. أعوذ باللّه! كان يعرف أن حياتهما لايمكن أن تكون مريحة، ولكن مايراه أفظع من كل ما تصور، كانت لسابوروف فيما مضى غرفة فى مبنى مدرسة الفنون، ولكنه أخرج منها قُبَيل ذلك كان قد تزوج، وأعطيت غرفة لجلاشا، وكان البيت مخصصًا للمشتغلين بالنشر. سريران مثبتان فى الحائط، وموقد عليه حلة صغيرة، وحوالى مائة لوحة مرسومة على القماش، مكدسة إلى درجة تجعل الحركة مستحيلة.

قُدمَ للزائر الكرسى ذو المساند الذى فقد حشوه، بعد أن كنست جلاشا من عليه أكوامًا من الكرتون، والخرق والجرائد وقطع الخرف المكسور. وسر سابوروف كطفل.

«أشكرك يافولوديا لزيارتنا. إنها فرصة كبيرة لكلينا. تصور الصدفة، إنها الذكرى السنوية لزواجنا، مرَّ عامان. وكان عندى أمل أن نحتفل بالمناسبة، وقلت لزوجتى لندع بوخوف. ولكن الأحوال لم تساعدنا. فنحن فى آخر الشهر. والحق أقول، يبدو أننى لم أحضر شيئًا على الإطلاق. قالوا إن المسرح سيبلنى للعمل فيه ولكنه كان مجرد كلام. حسن، على أى حال، كل هذا ليس مهمًا... إنه شىء رائع أن نراك.. سنتناول الشاى. وجلاشا عندها بعض الفاكهة المسكرة. تصورى يا جلاشا كنا، هو وأنا، زميلين فى المدرسة معًا لمدة عشر سنوات. وها هو يأتى الآن. إنه حظ سعيد حقًا».

كان فولوديا يبتسم.

«تهانئ الحارة. يجب أن نحتفل بالمناسبة. لقد اشتريت قليلا من النبيذ. لنشرب نخب سعادتكما».

كانت جلاشا مضطربة. لم يكن هناك أى خبز، وهو الشىء الوحيد الذى لم يفكر فولوديا فى إحضاره، قالت إنها ستخرج مسرعة لتعود بالخبز بعد قليل، فلاتزال المحال الحكومية مفتوحة.

قال فولوديا بعد أن خرجت:

«هل تذكرت تلك المرة التى جاءت فيها فرقة مسرح (كامرنى)، وكنت قد تشاجرت مع والدى، لم يكن معى مليم، وأردت أن أصطحب ميرا إلى العرض فأقرضتنى عشرين روبلاً».

ضحك سابوروف:

«قلت إنه كان معك مايكفى لطلب ليموناادة لميرا، وإنك لن تتمكن من طلب قدح لنفسك. كانت فتاة لطيفة. هل تعرف ماذا حدث لها؟».

«انتظر قليلا. قصدت أن أقول شيئًا آخر. أنت الان لاتملك أى نقوده، هذه حقيقة. إليك ألف روبل. إنها كل ما معى فى هذه اللحظة، ولكنى لست بحاجة إليها البتة. ستردها إلىَّ عندما يجعلونك عضوًا فى الأكاديمية. أنا لست مستعجلاً. خذها، أرجوك. اسمع. إن لم تعتبرنى صديقًا سأشعر بالإهانة».

عادت «جلاشا» بالخبز. واقترح سابوروف أن يأكلوا فورًا، ولكن فولوديا طلب رؤية لوحاته، واحتج سابوروف:

«ولكن لماذا؟ ربما لن تعجبك من الأفضل أن نتناول كأسًا ونتذاكر الماضى».

ولكن فولوديا أصر. ولم يكن ذلك لرغبة ملحة فى رؤية اللوحات بقدر ما كان لإحساسه بأن سابوروف كان جمَّ الحياء، وأنه سيشعر بينه وبين نفسه بأنه قد جرح إذا لم ير اللوحات ويطريها. وانضمت جلاشا إلى صفه قائلة:

«يجب أن يريها لك فعلا يا فلاديمير أندريفيتش، إن مناظره الخلوية الأخيرة، والصورة التى رسمها لى فى البلوزة الخضراء إنها باختصار، رائعة».

كان فولوديا يحب التصوير، على الرغم من أنه لايصرح بذلك لأحد، وعلى الرغم من أنه يلزم الصمت إذا دار الحديث عن الفن، أو هو يتحدث حديثًا ساخرًا. منذ بضع سنوات أمضى أسبوعًا فى ليننجراد، وكان فى كل صباح يسرع إلى متحف (الأرميتاج) ليملأ ناظريه بأعمال كبار الفنانين القدامى. غير أنه يعود ليندمج فى حياته العادية بمجرد خروجه من المتحف، باحثًا عن طريقة للحصول على مهمة، أو ساعيًا للتودد إلى «بلاندوف»، أحد المسئولين فى مصلحة الفنون، أو مفكرًا فى هدية مناسبة يقدمها إلى «ليولا».

أخذ يطيل النظر فى صمت إلى المناظر التى رسمها سابوروف، ولاتنم ملامح وجهه عن قبول أو عن سخرية. وجلاشا ترقب عبثًا صدور بادرة تفصح عن شعوره تجاه أعمال زوجها، كل ما صدر عنه كلمات مقتضبة بين وقت وآخر: «انتظر. لاتبعد هذه اللوحة الان» أو «هناك انعكاس على هذه» أو «أرنى المزيد» ترى، هل أحرز سابوروف تقدمًا كبيرًا فى بحر هذه السنوات الثلاث، أو أنه مصاب بنوبة من الاحترام ولاوقار؟ أحس أن شيئًا يصهره. ونسى كل شىء آخر، وعبثًا حاول سابوروف أن يحتج: «هذا يكفى. لنتناول عشاءنا».

كان فولوديا، حين ينظر إلى الصور العظيمة فى صالات العرض، يحس بالفرحة والرقة اتى يشعر بها حين ينظر بإعجاب إلى شجرة مخضرة الأوراق أو إلى جمال وجه امرأة. وفى رأيه أن الفن كان موجودًا فيما مضى، ولكنه انتهى منذ زمان طويل. فلا عجب أن ملأ

جو المتاحف شىء شبيه الموت: النظافة، والبرودة الباهتة، وهمسات الزائرين. هزته أعمال سابوروف من أعماقه، هذا على الرغم من كل شىء، هو إنسان معاصر له؛ هذا زميله فى المدرسة. والشىء الذى يصعب تصوره هو أنه رسم هذه المناظر فى هذه الغرفة الرثة، وهو جالس مع زوجته العرجاء، ناظرًا من هذا الشباك الصغير. ما أبسط كل هذا، وما أبعده عن إداركه. الألوان القوية الأعماق الرمادية، والسماء الزرقاء، والثقل الطينى للأرض! وأراه سابوروف آخر صورة رسمها لزوجته، ومرة أخرى أحس بفيض من المشاعر يغمره. وسألته جلاشا إن كانت الصورة تشبهها، فلم يجب. وانصرف تمامًا إلى تأمل الصورة، الأصفر الذى يضىء قمة الشعر، والوجه ذى الظلال الزيتونية، والبلوزة الخضراء وبالتدريج، كما أن الطبيعة فى لوحات المناظر تفصح عن نفسها فى فقرها وبهائها، الثلوج المنصهرة، وسواء أغصان الأشجار العارية، والزرقة الباهتة للسماء، مع سحر ربع الشمال، كذلك هو يرى الان امرأة. فى قبحها وجمالها. وإن الإنسان لايضن بحياته كلها ليكون جديرًا بهذه الابتسامة الخجولة التى لاتكاد تلحظ، والعاطلة من أى جمال.

جلس إلى المائدة فى صمت. وتناول كأسًا من الفودكا فى صمت أيضًا،وعندئذ فقط تبين أنه يجب أن يقول شيئًا. نهض، وبرزانة غريبة عليه قال:

«نحب سعادتك. نخب سعادتك يا جلافيرا أنتوتوفنا! لقد رأيتك فى تلك الصورة. لقد رأيت أعمالك ياسابوروف. فى ضحتكما هذا كل شىء».

وشرب الكأس. وبعد ذلك بقليل سألته جلاشا: «يافلاديمير أندريفيتش، قل لى صراحة، هل أعجبتك حقًا؟».

ومرة أخرى لم يجب بشىء، ولكنه قال لسابوروف بعد تفكير قليل: «أنت تعرف، إن الحسد إحساس عفن، ولكنى أحسدك».

وشرب كأسًا أخرى، وعاود النظر من جديد إلى مناظر سابوروف.

كانت الأرض فى لون الصدأ المتألق، وأشجار الأجاص، ومنزل رمادى صغير، وسماء عالية خالية. أطال فولوديا النظر إليها،ثم قال وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

«الرسم رائع. هذه حقيقة».

واحتج سابوروف:

«الأشجار ليست كما يجب. أعنى أنها كما يجب وليست كما يجب رسمتها ذات يوم فى الخريف، كان الجو غير عادى، والطين له لون خاص. أذكر أنى رأيت مثله فى مناسبة أخرى، عام ١٩٤١ بالقرب من (كالوجا). كنا نتقهقر. وكان ستيانوف معى كان رجلا مرموقا مهندسا زراعيا، ظلت معتزما رسم صورة له يمكن أن تتصور كيف كان شعورنا تجاه بعضنا. وفجأة نظرت: كان هناك كوخ وجدول صغير ذو ضفة عالية، وكانت الأرض لونها فى لون هذا الصدأ. وليت لستبانوف: «انظر!» لم يتبين ماذا كنت أعنى فى البداية، ثم رأى، فصاح فجأة بصوت كالرعد: «سنكسحهم من هنا، إلى الجحيم» لكنه قتل بالقرب من (مالوياروسلافتز).

وأخذ يتحدث مدة طويلة عن ستيانوف. ولم يكن فولوديا ينصت. ربما كان ينظر إلى اللوحة، أو إنه كان ذاهلاً. وأخيرًا نهض واقفًا وقال:

«سأنصرف. لا أحس برغبة فى الانصراف على الإطلاق، ولكن من الأفضل أن أذهب».

بعد انصرافه نظفت جلاشا الغرفة ورتبتها. وكان سابوروف جالسًا على السرير وراحتاه فوق وجهه. وظننت أنه يغفو، فسارت على أطراف أصابعها. لكنه ناداها بصوت رقيق، فجاءت وطوقته بذراعيها.

«أرأيت؟ بوخوف أيضًا يرى أنها رائعة. يجب أن تذهب لمقابلة ساراتوف. سيرونها هم أيضًا ولن يستطيعوا رفضها. يجب أن ينظموا لك معرضًا».

وهزَّ سابوروف رأسه:

«هذه الأشجار ليست على ما يرام إطلاقًا. ليقل فولوديا ما يشاء، إنها كذلك. والركن الأعلى إلى اليمين لم ينته بعد. لايجب أن أواصل العمل فيها قليلا».

ورأى التعبير الحزين، على وجه جلاشا فاندفع فجأة: جلاشا يا حبيبتى لاتبتئسى. قال رودينوف «إننى سأحصل على عمل فى المسرح بعد أول مارس، سأنقل من بعض اسكتشات الاخرين. وعندئذ سوف تتحسن أحوالنا».

«لاأريد أن يصرفك شىء عن رسومك أنت. لاذا تفكر فى هذا؟ ليس هذا ما عنيت. إنما أريد أن يرى الجميع لوحاتك. لاتقلق من أجل النقود، إنها ستأتى. وإن لم تأت نستطيع أن ندبر أمورنا من غيرها. ما أعظم سعادتى الليلة. أنا أعرف أن بوخوف رسام ردئ هو نفسه، ولكنه يفهم فى التصوير، يمكن أن تتبين هذا على الفور».

«وأنت تظنين أنه لايعرف كيف يرسم؟ لاشىء من هذا على الإطلاق. فى ١٩٥٠ عندما عاد من موسكو وجاء لزيارتى، كانت عندى مجموعة أزهار أعجزتنى، أزهار ناستورتيوم، لم أستطع عمل شىء منها. ولكنه رسمها ببساطة. ليتك رأيتها! لم أستطع أن أرفع ناظرى عنها، الآنية الداكنة والأزهار الكبيرة الزاهية. إنها تعطى إحساسًا بالقلق الشديد مثله. لست أدرى ماذا دهاه. وهو مخيف خصوصًا عندما ينكت. لم يكن سلوكى معه طيبًا، لم أذهب لزيارته منذ تلك الليلة التى دعونا فيها. كنت أظن أننى أضجره. ولكنك ترين أنه لم يكن يريد الانصراف. لاأعرف ماذا يريد، ربما لوقابل فتاة مثلك».

ارتبكت جلاشا، وأضاءت وجهها غير الجميل ابتسامة خفيفة لاتكاد تلحظ، فأصبح جميلا كما يبدو فى الصور التى يرسمها لها سابوروف.

قبل انبلاج الصبح بقليل كان يصعد الشارع الزلق، وريح خبيثة تدفعه راح يفكر: «شىء يرثى له. إن سابوروف يحيا حياة فظيعة

عند الضرورة يمكنك أن تحتملها، ولكن أحدًا لايعرف أى شىء عن أعماله. قال إننى أول مصور يزوره

١٠

انتهى العشاء، وخلت صالة الطعام تمامًا إلا من كوروتيف الذى ظل جالسًا وأمامه كوب شاى يبرد، وهو مستغرق تمامًا فى قراءة مقال طويل عن مؤتمر برلين، وسافشنكو يجلس إلى جواره.

«يريد جورافليوف أن يطرد سيمونوف. أعطاه جائزة فى الشهر الماضى ويقول الآن إنه مبدد. وسيمونوف عامل فريزة ممتاز. كنت أراقبه منذ أيام وهو يعلم بعض العمال الجدد كيف يضبطون المخرطة. كل ما هناك أنه إنسان له شخصيته المستقلة ولايستطيع جورافليوف أن يحتمل ذلك. وإن كنت أتصور أن الأمر لايقتصر على هذا، إنه فى حالة هياج»

فسأل كورتييف دون اكتراث، وذهنه لايزال مشغولا بالمقال: «ولكن لماذا يكون جورافليوف فى حالة هياج؟»

«ألم تسمع؟ لقد تركته زوجته. هذا هو السبب فى هياجه الشديد».

وعلى الرغم من أن كورتييف اعتاد أن يضبط نفسه، فإن لونه شحب، وأدار وجهه بعيدصا.

«لماذا لايضعون بعض الظلال؟ هذه اللمبة ٣٠٠ وات، وهى تؤذى النظر».

لم يلحظ سافشنكو شيئًا، وسأل: «قل لى، أنت تعرفها، كيف احتملته طيلة هذه المدة؟».

نهض كوروتييف وهو ينظر فى ساعته: «يجوروف ينتظرنى. لم ألحظ مرور الوقت وأنا اقرأ المقال. كانت دورة مهمة بالأمس، لم يجد «بيدو» شيئًا يقوله فى النهاية. أصبح فى موقف يرثى له. ومهما يكن فهو فرنسى. يجوروف متضايق. دعائم الغلاية غير مضبوطة يجب ضبطها».

استجمع شتات نفسه بسرعة، وأخذ يتكلم ثلاث ساعات مع يجوروف عن الغلايات والدعامات، والبرم واللحام، قال له يجوروف فى نهايتها: «أنت لاتبدو فى صحة جيدة. يجب أن تخرج لتتمشى كثيرًا. لقد قال لى جوروخوف: ساعتان مشيًا على الأقل. لا أستطيع أن أمشى كل هذا، ولكنى تعودت الآن العودة إلى المنزل ماشيًا».

ساركوروتييف إلى منزله وهو يفكر فى لينا. قال لنفسه أنه ليس ثمة مايستوجب التفكير، فلا علاقة له بما حدث، وإنما عليه أن يواصل حياته وينسى ما دمغه منذ مدة بأنه مجرد هراء.

ولكن، لماذا تركت لينا جورافليوف؟ مهما يكن، فقد عاشت معه خمس سنوات. ولابد أن هذا القرار كان شاقًا بالنسبة لها. وفجأة، قال لنفسه مهتاجًا: «لابد أننى فقدت رشدى. ما الذى يدعو إلى الدهشة فميا حدث؟إن ما يدعو للدهشة هو زنها احتملته طيلة هذه المدة.

كثيرًا ما تساءلت فى الصيف الماضى عما يكن أن يجداه للحديث معًا، ليس ذلك لأن جورافليوف، وغد سافل كما يقول سافشنكو، إنه شخص عادى، مجرد ختم مطاط. وسافشنكو شاب رومانتيكى، ومهما يكن فكل شىء يراه جديدًا، أما أنا فقد رأيت كثيرين من أشباه جورافليوف. ولكن ربما كان هو أفضل فى حياته الخاصة. ربما أثر فيها بمشاعره نحوها. أو ربما قربت بينهما ابنتهما الصغيرة. مهما يكن فقد كانت رابطة واهية، وقد انقطعت الان. لا دخل لى فى هذا. لو أن هذا حدث فى الصيف الماضى لكان من الطبيعى أن أسرع لرؤيتها والتسرية عنها، وتقديم يد العون لها. كان من السهعل أن أتصرف بشكل طبيعى.

أما الآن، فلو أنى قابلتها صدفة لما جرؤت على الحديث معها، أنا شديد الخوف من التعبير عن مشاعرى بحرية. عندها من المتاعب والآلام مايكفيها، فلماذا أزعجها بعواطفى غير المرغوب فهيا؟ أنا لست سافشنكو، فى مثل سنى يجب أن يعرف الإنسان تمامًا ماذا يعمل، عليك أن تكون فى مثل دقة الرسم الهندسى.

ظل ساهرًا حتى ساعة متأخرة. وعندما حان وقت النوم ظن أنه قد أعاد نفسه إلى رشدها لن تتكرر مثل هذه الليلة التعسة اللامعقولة. ولكن لينا كانت أول شيء فكر فيه عندما استيقظ. أين هي الان؟ حتى لو حزم أمره علي رؤيتها فلن يعرف أين يجدها. ربما انتقلت إلى مدينة أخرى أو سافرت إلى والديها فى الريف. لا، لايمكن أن يكون قد تركت عملها فى منتصف العام الدراسى. ولكنه لايستطيع أن يذهب إلى المدرسة. لو أنه يقابلها صدفة، ويتوجه إليها، ويملأ ناظريه بها دون أن يقول شيئًا.

كم من الوقت استمرت هذه الحال؟ لقد بدأ فى تعذيب نفسه بعد أن عاد من إجازته، منذ ستة أشهر. وقد أثبت لاهراء أنه أثوى من إرادته. ولكنه لايسطتيع أن يستسلم. يجب ببساطة أن يستجمع شتات نفسه.

«ولكن لماذا تركت جورافليوف؟ مهما يكن فأنا لا أعرف شيئًا. هل يمكن تصور أنها تعانى مثلما يعانى هو طول الوقت؟ لا، كلام فارغ، لابد أننى كنت أشعر، إنها لاتعرف كيف تتصنع. ومثل هذه التصورات لاتوجد إلا فى الروايات. هى تسىء الفهم، وهو ولايتخيل. الكاتب الروائى يحبك العقدة ليثير الاهتمام، أما الحياة الحقيقية فأكثر بساطة.هذا النوع من سوء الفهم يمكن أن يحدث لإنسان حدث، مثل سافشنكو، ولاعجب أن سألنى ماذا يجب أن يعمل. لقد تجاوزت هذه السن. من السخف أن اطمئن نفسى بأوهام. بل أنه ليس تفكيرًا مهذبًا».

دعاه جورافليوف فى أثناء استراحة الظهر، إلى مكتبه ليتناقش معه فى أمر دعائم الغلاية، ونقل إليه كوروتييف مناقشته مع يجوروف، لابد من تغيير نظام اللحام. ثم اقترح جورافليوف أن يتناولا الغداء معًا. وتحدثا عن المشكلة الألمانية والانتخابات ودورة الشطرنة وبذل كوروتييف جهدًا ليكون ودوًا. وكان قد ذكر نفسه فى الصباح أن جورافليوف لابد أنه يحس بالتعاسة، ومن مثله يستطيع تقدير هذا؟ ربما، على الرغم من كل شىء، يكون قد أساء الحكم عليه تمامًا. أنه يحظى بتقدير الكثيرين، وكوروتييف يعلم أنه ذو ضمير، ومجد، ومتفان فى عمله. «ما عليك إلا أن تتذكر تصرفه يوم اشتعلت النار فى المصنع. لكل إنسان ضعفه، ومن الصعب أن يحكم الإنسان نفسه، هل بإمكانه أن يتأكد إن كانت الغيرة لم تجعله منصفًا تمامًا فى نظرته رلى جورافليوف؟ وعلى أية حال، فسيكون ودودا معه الآن».

تأثر جورافليوف لسلوك كوروتييف، وفكر: «لقد كنت دائمًا أرى أنه عامل من الدرجة الأولى، وهو رفيق جيد أيضًا. وهو ليس متامرًا، ولايحاول إضعاف مركزى، مثل سوكولوفسكى. تُرى هل أخبره أحد بموضوع لينا. الناس يحبون الكلام. هو يعرفها، بل كان ينجذب إليها على نحو ما، ولكنه يعرف أي نوع تكون. سنعم»، اليوم و «مع السلامة» غدصا، «لاداعى لأن تعود ثانية»..»

عندما نهضا. قال جورافليوف: «أحب أن أتبادل حديثًا جديًا معك، ولكن ليس هنا. ربما تسمح ظروفك بأت تأتى وتتناول الغداء

معى يوم الأحد». وابتسم بغتة: «أنا الان مثلك. أنا أيضًا عزب فى هذه الأيام».

قال كوروتييف لنفسه فميا بعد، وهو يفكر فى هذ الجملة: «من الواضح أنه يعانى، وهو يريد أن يرينى أنه متمالك نفسه. كنت أعرف دائمًا أن ارادته قوية، ولكن بلاد أنه مغرم بها بدرجة زكبر ما كنت أظن.ماذا يمكن أن يكون الموضوع الذى يريد الحديث فيه؟ باتأكيد ليس لينا؟ لايمكن أن يكون هذا هو الموضوع. لقد وصلت إلى حدّ الجنون، ولقد بدأت أظن أن الناس أيضًا قد فقدوا عقولهم. لابد أنه يستحدث عن بعض التوجيهات من المكتب الرئيسى متعلقة بمشروع برينين. ولكن لماذا لايريد التحدث عن هذا فى الكانتين، أو فى المكتب؟ على أية حال، هذا لايهم. ترى فيم تفكر لينا الآن؟

اشتغل فترة ما بعد الظهر. وحاول أن يسيطر علي أفكاره فيما بعد، ولكن قلبه تمرَّد. وفيما هو ذاهب إلى منزله تخيل فجأة أنه يرى لينا تسير أمامه، فاستحث الخطى، ولكنها كانت امرأة أكبر سنا تحمل ربطة. ومع ذلك فقد خيل إليه مرات عديدة أخرى أنه يلمح طيفها خلال الضباب الكثيف المائل إلى الزرقة.

غير معقول. ولكن أين يمكن أن يتكون؟

فى تلك الليلة ذهب إلى النادى. كان برينين سيقرأ بحثًا فى الموقف الدولى، ومن الممتع معرفة ما عنده عن فرنسا.أخفى عن نفسه فكرة «تصور أن لينا ربما تأتى»، فهى تجىء يبن حين واخر

للاستماع إلى المحاضرات، وصل إلى النادى متأخرًا، وعندما دخل القاعة الطويلة المطفأة الأنوار كان برينين قد انتهى من أوروبا وراح يتحدث عن اسيا. «إن الهند، إن صح التعبير، يقلقها وجود القواعد الأمريكية فى باكستان» وسرعان ما أضيئت الأنوار. ولم تكن لينا ب الحاضرين.

وفى الليلة التالية ذهب إلى النادى مرة أخرى، ولم يكن ثمة مبرر فى هذه المرة، فليس هناك إلا عرض فيلم قديم سبق أن رآه مرتين.

وفى الليلة الثالثة كان هناك برنامج للهواة، عدد من لاعبى الجيتار. واثنان يرقصان رقصة بلغارية، وشعر عن النضال من أجل السلام تلقيه كاتيا ستوليا روفا. وجلس كوروتييف بلا حراك، وقد عجز لفرط ارتباكه عن النظر حواليه، وقد تيقن أنه لن يرى لينا، وأن الهراء قد غلبه عيل أمره.

ظل طوال الأسبوع يبحث عنها. ذهب ليقف خارج المدرسة، وكأنه يتأمل أكوام الثلج، وهو يصيخ السمع لبوابة الحديقة. وإذا عرف أنها تذهب أحيانًا لزيارة آل بوخوف، اكتشف عنوانهن وراح ينتظرها أمام المنزل ساعتين كاملتين فى ابرد القارس.

وأخيرًا تحقق أنه لن يسطتيع تحمل هذا التوتر والإرهاق أكثر من ذلك، فعاهد نفسه على فض يده من الموضوع. وكان هذا يوم السبت. عاد إلى المنزل بعد انتهاء العمل فى المصنع وبدأ فى قراءة تشيكوف.

وجاء سافشنكو لزيارته.

«ديمترى أندريفتش، يا له من حظ حسن أن أجدك. تعال معى إلى المسرح، إنها أولى ليالى مسرحية هاملت، وقد حجزت تذكرتين. قلت إنك تحب شكسبير».

كانت التذكرتان معه منذ أسبوع. حدثت فى أثنائه المشاجرة مع سونيا وأصبحت التذكرة الثانية بلا فائدة. وإذ لاحظ الضوء فى شباك كوروتييف فكر فى دعوته، وإن لم يكن عنده أمل كبير فى أن يقبل، لذلك كانت شبه مفاجئة له عندما قال كوروتييف:

سولم لا؟. لم أرَ هاملت منذ كنت طالبًا».

وطبيعى أن هاملت لم يكن هو الذى يشغل ذهنه. كانت لينا قد قالت له أن ليالى العرض الأولى لم تفتها أى واحدة منها طيلة الموسم الماضى. «عل الرغم من أن عندها الان ما يشغلها... على أية حال من يدرى؟ كل شىء ممكن. ومهما يكن فإن قبول هذه الدعوة ليس حماقة من نوع التسكع خارج أبواب الناسش.

كان سافشنكو مبهورًا بهاملت، وبالديكور، وبصحبة كوروتييف.

وبدا كأن كوروتييف يتتبع المسرحية باهتمام. فى الاستراحة الأولى رفض أن يترك مكانة وظل جالسًا، حتى دون أن يلقى نظرة على الحاضرين، وعيناه مثبتتان على البرنامج فى يده. قال لنفسه وهويقرأ الكلمات:

(إنتاج الفنان القدير..) للمرة العاشرة: «أنا لا أقل سوءًا عن سافشنكو. الحق أنه أكثر تعقلا».

وحـزم أمره، فـى الاسـتـراحة الثانيـة، على أن يـخـرج مـع سـافشنكو ليـدخـن سيـجـارة. وفـى الطـريق إلـى أسـفل مـرَّ بـلينـا علـى الـدرج. لم يكن يفكر فيها تلك اللحظة. وأخذته المفاجزة إلى درجة أنه مر بها دون أن يتكلم. كانت مع امرأة أخرى، يعتقد أنها الدكتورة شيرر. دار على عقبيه بسرعة وجرى خلفها:

«لينا بوريسوفنا!»

توقفت وقالت بهدوء:

«مساء الخير ياديمترى سيرجيفيتش. ظننت أنك لم تلحظنى»

الفت ليقول مساء الخير لفيرا، ولكنها كانت قد اختفت. وقف دون أن ينطق بكلمة، وظلت لينا أيضًا صامتة. وأخيرًا قال بصعوبة:

« أردت أن أجـىء لـزيـارتك ولـكنـى لم أعـرف أين تـوجـدين...لم أتصور أبدًا أننى سأقابلك هنا».

ضـحـكت وقـالـت:«ولمَ لا؟ قلت لـك إننـى أهـوى المسـرح، أنـا أحس الآن، أكـثـر من أى وقت مـضـى، أنـنـى علـى خـيـر حـال، قـلت لك إن الـصـف الـسـابـع كـان يـسبب لـى مـتـاعـب كـثيـرة، حـسـن، إنـهم الآن يحـقـقـون تـقـدمًـا هـائـلاً. قـدَّم لـى بـوخـوف مـسـاعـدات ضـخـمـة. أنـا أسكن الآن مع فيراشيرر. وعُدت بالحصول على غرفة ولكن ليس قـبل الخـريف. وعـلـى أى حـال، فـإن شـورا تـعـبـد فـيـرا وتـكـره فـكـرة الابتعـاد عنها. لن تعرفها إذا رأيتها، لقد نمت نموًا عظيمًا. اشتريت لـهـا الـيـوم أقـلامًـا مـلـونـة. أرجـو ألا تـظـن أنـنـى أحس بـتـعـاسـة. على

العكس، لم أشعر أبدًا أننى على هذا القدر من الانشراح ، يسرنى جدًا، طبعًا، أن تزورنى بين حين وآخر، ولكن لاتظن أنه واجب، عندى أصدقاء كثيرون. حضرت إحدى حفلات الطلبة الليلة الماضية، بل إنى رقصت فيها. عندى عمل كيثر، لقد اختارونى للاشتراك فى أعمال الدعاية اليومية أيضًا، كما جعلونى مشرفة على ثلاث عمارات، لم أكن واثقة من أننى سأجد وقتًا للحضور الليلة. التمثيل لايعجبنى، أوفيليا متصنعة، وإيزمرودوف جعل من هاملت شخصيا مصابًا بمرض عصبى، وأنا أعتقد أن هاملت كان إنسانًا ذا شخصية قوية. هل توافقنى؟».

كانت تتكلم بسرعة غير عادية كما لو كانت خائفة أن تتوقف، ومدت يدها لتسلم على كوروتييف دون أن تنتظر رأيه فى هاملت:

«وداعًا يا ديمترى سيرجيفتيش، لابد أن فيرا تبحث عنى».

وأبقى يدها فى يده لحظات أكثر.

«إلينا بوريسوفنا، لقد كانت كثير التفكير فيك...»

وأحسست أنها يمكن أن تبكى بعد لحظة أخرى، ولكنها تمالكت نفسها، وقالت بالطريقة المتعجلة نفسها:

«شكرًا، لاتقلق من أجلى. لقد قلت لك إننى على مايرام، على خير حال».

وهربت.

شاهد كوروتييف الفصل الأخير ثم سار إلى المنزل مع سافشنكو

فى صمت، وقد هزت المسرحية سافشنكو، ولايزال شعرها يرن فى أذنيه. وفكر فى ضيق: «الآن، قيل كل شىء تقريبًا. لاداعى لأن أقف خارج المنزل بوخوف وأحلم بالسعادة. كيف حدث أن عشت قبل أن زلقاها؟ لست أفهم هذا لاآن، ومع ذلك فقد عشت ودرست واشتغلت، وعلىَّ أن أواصل حياتى كما لو لم تكن توجد. يجب أن تكون الحياة بسيطة ومجردة. السعادة للشباب، لزناس مثل سافشنكو والان، إلى غرفتى، ومصباح المكتب، والرسومات، ولا أحد معى، أنا لست عائدًا إلى منزلى فحسب، أنا عائد إلى نفسى، إلى حياتى أنا. سأحاول ألا أكون أله، وألا أحلم.»

تكلمت لينا طول الليل مع فيرا شيرر. عادت إلى المنزل منتعشة وأخذت تتحدث عن المسرحية،بل أنها أضحكت فيرا بتقليد أوفيليا، لم تكن تانشكا موفقة على الإطلاق فى أداء دورها. وفجأة انفجرت لينا باكية، وانزعجت فيرا وأعطتها نقطًا من دواء معين، وجلست إلى جوارها، واحتضنتها بين ذراعيها. وبعد ذلك قالت لها لينا كل شىء:

«أعرف أنه جنون، لقد حذرنى وجعلنى أفهم أنه لايحبنى، بل إنه لم يستطع مجرد تصور مثل هذا، وقال إننى لست إلا لعوبًا فارغة العقل، وإنه ليس بيننا أى شىء مشترك. ليس خطئى أننى أحبه، ولكنى لايمكن أن أفكر فى أن ألقى بنفسى بين أحضانه، كما لا أبغى أن يجود علىَّ بشفقته. وطبيعى أنه حسبنى تركت زوجى من أجله، وقال إنه يود لو يأتى لزيارتى. لكنى لن أسمح له بالمجىء لابد أنك تتصورين أننى أتصرف كتلميذة. ولكنى أؤكد لك أن هذا أمر

بالغ الخطور، لم يسبق أن حدث لى من قبل أبدًا، إنها أول مرة... ولكنى لا أريد أن يحس الناس بالأسى من أجلى. أعرف أنك ستفهميننى، لقد قاسيت الكثير... إنه شىء رهيب حقًا...»

وعندما هدزت قليلا، قالت فيرا: «لينا، لماذا أنت متأكدة إلى هذا الحد زنك لاتعنيه فى شىء أو أنه لايعبأ بك؟»

«أوه، أنا أعرف هذا بالتأكيد. من أجلى هذا ألقى تلك الكلمة فى النادى. وهو الآن يحس بالزسى من أجلى، وهو يريد أن يسرى عنى، وأنا لاأحتمل أن يحس الناس بالأسى من أجلى. وأنا أحبه، أنا متأكدة من هذا تمامًا، عندما كنا نصعد الدرج الليلة ورأيته فجأة، دارت الدنيا كلها من حولى، وكدت أسقط على الأرض!»

ولسبب ما، تذكرت فيرا كلمات سوكولوفسكى عن النبات الصحراوى. «كم تكوننين سعيدة لو أنك تستطيعين أن تحبى، وتعانى، وتبكى بهذه الحرقة!».

١١

حاول جورافليوف ألايفكر فى لينا، كان التفكير يربكه ويخيفه وقد وضع فى ذهنه أن ذلك يمكن زن يخل بزرقام إنتاجه، وكانت لينا قد أحضرت ابنتهما إلى الشقة يوم األحد الماضى، فإأخذ شورا معه إلينزهة ثم لعب معها (استغماية)، اختبأ فى اطلابق العلوى بينما صاحت شورا: سبابا، أنا عارفة مكانك، زنت تحت السرير». وعندما عادت لينا لتزخذها، تفحص زوجته بعناية، كانت فى حالة رائعة. ماذا يعنيها؟ لاأرجح أنها وضعت عينها على شخص آخر. كان يود لو سألها إن كانت تريد أن تمضى فى إجراداات الطلاق، ففى هذه الحالة لابد أن بينتهيا م نمناقشة الموضوع ويتفقا على السبب الرسمى، ولكنه عدل عن ذلك: «إن الأمر لايستاهل. ستتكلم إذا استدعت الحال. لا زستطيع الحال. لاأستطيع أن زتحدث معها، رنه لشىء مربك للغاية».

كان يعتقد إنه سيفيق بهدوء من دمار بيه، ولكن التجربة تركت فيه اثارًا عميقة. حتى وقت قريب، كان إذا فكر فى حياته يتصورها

طريقًا فسيحًا مستقيمًا. صحيح أنه صادف بعض المتاعب حينًا، وأن الخوف على مستقبله كان يؤرقه، ولكنه لام نفسه فيما بعد لاستسالمه للهواجس؛ لقد تخطى العقبات، وما كان يمكن إلا أن يتخطاها. وهكذا قال لنفسه أيضًا فى الوضع الجديد: «لماذا أرتبك؟» بإمكانى أن أعيش دونها». والحق أن هلم يكن يفكر فيها كثيرًا: لقد كانت موجودة، ثم لم تعد موجودة، ويمكنه أن يعتاد على ذلك. ومع ذلك بدأ يفقد الثقة فى نفسه، فهو يرى الأشياء مهزوزة على نحو ما، كما بدا وكأن الناس يتخذون منه موقفًا عدائيًا. وفقد شيئًا من هدوئه، وأصبح فى كلامه من الحرارة والحدة أكثر مما يجب. كان فخورًا بمقدرته على رؤية الجانب المشرق، ولكنه أصبح الآن شكاكًا، وفى حذر دائم من أعمال التهشير والتآمر.

فى يوم الإثنين كان قد مضى أسبوعان على ذهاب لينا. وفى يوم الثلاثاء كان هناك اجتماع حزبى. وفى الكلمة الافتتاحية أشار زبرتيزيف رئيس لجنة المصنع إلى مشكلة الإسكان:لقد آن الأوان لبناء المنازل الجديدة. وهز جورافليوف رأسه، بل إنه قال: «لاشك فى ذلك» كان يعرف أن زبرتيزيف يثير هذه المشكلة فى كل مناسبة، فهو الذى يتلقى عشرات الشكاوى من العمال يوميًا. والحق أن الأكواخ كانت فى حالة مزرية، ويمكن أن يتنهار أنقاضًا فى أى لحظة. أما الآن فقد نظم كل شىء، وأقرت المشروعات بصفة نهائية. وسيبدأ العمل ف لاأساسات ف الربع الثانى من العام. وكان يمكن أن يترك جورافليوف الموضوع يمر، لولا أن يسوكولوفسكى دخل فى الصورة، مدعمًا وجهة نظر زبرتيزيف على غير انتظار،

ومشيرًا إلى أن البلوكات الثلاثة الجديدة كان يجب البدء فيها منذ عام ١٩٢٥وعندئذ ثارت ثائرة جورافليوف: لقد أعطيت الأولوية لجهاز الصَّهر، وهذا أمر يهم البلاد كلها، وسوكولوفسكى على علم بالوضع تمامًا، ولايعدو الأمر منه حين يثير الموضوع فى اجتماع حزبى، أن يكون ديماجوجية (أى دعاية مضللة) من الطراز الأول. فرد سوكولوفسكى بهدوء: سيبدو أن لارفيق جورافليوف لايعى مهام التنظم الحزبى». بعد ذلك تحولت المناقشة إلى المهام الخاصة بالحملة الانتخابية وانتهت بسلام.

عاد جورافليوف إلى المنزل وفكر طويلاً: «لابد من وجود أسباب وراء رثارة سوكولوفسكى لموضوع الإسكان، لابد أنه يدبر أمرًا. ليست المساكن هى المشكلة. عندما قلت له إنه يجب تأجيل النماذج الجديدة اهتاج وقال: «إذن فأنت تزيد الأمور تعطيلا»! ليس هذا من الحصافة فى شىء، بل إنها وقاحة صارخة. عند احساس بأنه ينوى شرًا. كان دائمًا يد س أنفه فيما لايعنيه، حاول فى الأورال أن يغرق «سابوروف»، ولكنه فشل فى خلعه وابعدوه، وها هو الآن يعاود المحاولة معى. وأحسن حل هو أن أسبقه. ولكن ما الذى فى ذهنه، بحق الشيطان؟»

وتردد لحظة: هل يمكن أن يكون مبالغًا؟ إن سوكولوفسكى له شخصية قذرة، فهو يلدغ كل الناس، وكم من مرة كان وقحًا مع جورافليوف نفسه! ولكنهما ظلا يعملان معًا ست سنوات على الرغم من كل شىء. وجمع شتات نفسه، ليست هذه المرة كسابقاتها «لابد

أنه اشتم شيئًا. إن شخصًا كهذا لابد أن له أنفًا مثل أنوف كلاب الصيد. لماذا أثار مشكلة الإسكان، وهى ليست من عمله على الإطلاق، إن لم يكن ضمير الغدر بى؟»

وفكر جورافليوف: «إن المصنع هو كل ىء فى حياتى، وخاصة بعد أن تركتنى لينا. فهل يتمكن هذا المشاغب حقًا من انتزاعى منه؟ لم أكن فى يوم من الأيام وصوليًا، ولكنى أعتز بالثقة التى يولونى إياها باختيارى مسئولاً عن مثل هذا المصنع. وعندما تفكر فى الأمر تجد أن هذا هو كل ما بقى لك».

والحق أن جورافليوف اشتغل، خلال الأسبوعين الأخيرين، ساعات عمل أكثر مما اعتاد أن يعمل فى أى وقت. وهو يمر، بشكل جنونى، فى كل من الورديتين، ويتفحص كل ورشة، ويتكلم مع العمال.

وفى يوم السبت، عندما ذكر كوروتييف بأنه ينتظره يوم الأحد، ظن ديمترى أن الأمر يتعلق بمشروع برينين: كان جورافليوف يتكلم عن المشروع باستمرار، ولابد أنه يريد أن يبحثه كله مرة أخرى.

استقبله جورافليوف بحرارة. وعلى الغداء جرى الحوار فى البداية حول الحوادث اليومية فى المصنع، ثم تذاكر جورافليوف أيام الحرب، فقص كوروتييف بدوره قصة عن القتال على نهر الفستولا. وبدآ يشعران بالتقارب الذى يشعر به اثنان من محاربى الصفوف الأولى القدامى، تجمع بينهما تجارب لايشاركهما فيها أحد.

قال جورافليوف بعد أن نهضا من المائدة:

«أنت لم تمكث بيننا إلا عامين فحسب، ولكنى أحس زنك واحد منا حقًا. وأنت، بكل قلبك ترعى صالح المصنع، الذى هو الان حياتى كلها».

اختلج صوته. وأحس كوروتييف بالارتباك. «لابد أنه شديد الولع بلينا! هذا أمر مفهوم» واستطرد جورافليوف: «أنت تعرف أن المصنع أسرة كبيرة، يجب أن يتكاتف الجميع. ونحن، عمومًا، جماعة متآلفة. هناك شىء واحد لايستقيم. وأؤكد لك أن مايشغلنى ليس هو مسألة مكانتى أو هيبتى، فأنا رجل بسيط من أصل ريفى، لايعنينى الانضباط إلا فى العمل. أرى أنه بمجرد أن تخرج من بوابة المصنع لك أن تنطلق وتقول ماتريد. ولكنك لاتستطيع أن تعمل فى جو من الشك والشبهة. أنا أعترف أن سوكولوفسكى ذو خبرة كبيرة، لكن سلوكه يجعل من المستحيل علىَّ أن أعمل معه. لقد حاولت، أغمضت عينى عن أشياء من كل نوع، ولكن الأمور تصل الان إلى حد الانفجار...»

فقال كوروتييف مهدئًا: «هو رجل صعب، ولكنه عامل جيد. والحق أننى لايجب أن أعطى أنصا كبيرًا لما يقول. أنا لا أعرفه معرفة وثيقة، فنحن لانتقابل خارج العمل، ولكن يجوروف يقول إن لسانه حاد نوعًا. أقول لك بإخلاص يا إيفان فاسيليفيتش، لايجب الاهتمام كثيرًا بما يقول».

«ليست المشكلة هى لسانه. فكر فى هذا الأمر مثلا: لماذا هو يجوس دائمًا فى الورش؟ إنه لايتواجد فى مكتبه إلا نادرًا. إنه يستريب، على نحو ما، من الجميع، من يجوروف، ومنك».

«لا، بكل تأكيد! إن المصمم لايمكنه أن يقوم بعمله وهو مغلق فى مكتبه، عليه أن يأخذ فى الاعتبار المعوقات والعيوب العملية الصغيرة. وأنا كثيرًا ما أطلب منه بنفسى أن يقوم بفحص الماكينات على الطبيعة. ولولا أن شخصيته تثير الضيق لما فكرت أبدًا فى مثل هذا الأمر».

«حسن، كيف يمكن أن تزنه دون أن تأخذ شخصيته فى الاعتبار! هل تعرف ما حدث فى اخر عمل كان فيه؟ سأقول لك. كان المدير هو سابونوف، وهو شاب نشيط وبارع، تمكن من النهوض بالمصنع. ودخل فى روع سوكولوفسكى أن أحد التصميمات التى وضعها كان يوضع على الرف عن عمد، فبدأ يعمل على إضعاف مركز سابونوف. حدث هذا أيام الحرب، حين كنا، أنت وأنا نتجمد فى الخنادق، كان هو يعمل من أجل الوصول ويحاول القضاء على رجل شريف، ولكنه كشف، بل إن الصحيفة المحلية نشرت مقالا عنه. ولكنه تمكن من الخروج من المأزق، لقد جذب بعض الخيوط.»

«من الصعب تصديق هذا... لايبدو عليه أنه من مثيرى الاضطرابات».

«أنت شديد الثقة فى الناس ياديمترى سيرجيفيتش. هناك أشياء أخرى فى ماضى سومولوفسكى.. أطن أن فورونين كان بالمصنع عندما جئت للعمل هنا. كان شخصًا ممتازًا، أصابه المرض مدة طويلة، شىء فى كبده أهمل عجه. ولكن الذى قضى عليه فعلا مكان ذلك الخلل الذى أصاب كراسى المحاور المعدنية، هل تذكر؟

ومن كان المخطىء؟ إنه سوكولوفسكى. لقد وقع اللوم على فورونين، ولكن الخطأ كان فى التصميم، لاشك فى ذلك».

«إننى لم أتعرف على فورونين أبدًا، عندما جئت كان فى المستشفى. ومن الصعب تصور سوكولوفسكى يقع فى مثل هذا لاخطأ، وإن كان مكل إنسان معرضًا لخطأ طبعًا. ولكنه، على أية حال، مصمم ممتاز».

حتى الان، كان جورافليوف يتكلم بهدوء، بل بشىء من التلطف، أما بعد ذلك فقد احتد فجأة، وهب واقفًا، وخداه الممتلئان المخضران يرتعشان وقد غطاهما الاحمرار.

«دعنى أقل لك أنه مثير للاضطرابات من نوع بارع، لاشك فى ذلك. من المؤسف أنك لم تكن موجودًا فى الاجتماع الحزبى، لقد كان منظرًا مفيدًا. لماذا تظن أنه أثار مسألة الإسكان؟ هل تظن أن حياة العمال تعنيه فى شىء؟ على الإطلاق. أما زبرتزيف فتعنيه حياتهم فعلا. وهل تعتقد أن هذا أمر لايعنينى؟ رننى أتألم كلما ألقيت نظرى على تلك ا   أك

خ ا

عسة. ومن دواعى راحتى الكبيرة أننا سنتمكن فى القريب العاجل من إسكان الرجال فى مساكن آدمية. أنها مسئوليتى مديرًا وليست مسئوليته هو. وعندما أقول له هذا بأدب يبشرع فى إلقاء دروس علىَّ عن التنظيم الحزبى. فبأى حق يتحدث إلىَّ هكذا؟ قل لى».

حاول كوروتييف أن يهدئه:

«لا أعتقد أن سوكولوفسكى كان يقصد رهانتك. وهو، على أية حال، عضو قديم فى الحزب.»

وعند هذا فقد جورافليوف أعصابه تمامًا، فصاح لاهثًا، وهو لايكاد يعى مايقول:

«عضو حزب قديم!... حسن، ألاتعرف؟!... إن سجله ملطخ نوعًا... عائلته فى الخارج، فى بلجيكا. هل تظن أن هذا من باب القيل والقال؟ كلا، على الإطلاق. ما عليك إلا أن ترى ملفه. لم أذكر هذا أبدًا لأحد، أنا رجل منهمك فى عملى فقط. أنا لست من مثيرى الاضطرابات. بل إننى دافعت عنه فلماذا نحرك الماضى؟ إن كانوا قد أعطوه فرصة للعمل، فلندعه يعمل... ولكن لاتقل لى إنه طاهر الذيل إلى الدرجة التى تسمح له بلومى.

وعلى أحسن الفروض فإن الثقة فيه لايمكن أن تزيدِ على خمسين فى المائة، لاشك فى ذلك...»

لزم كوروتييف الصمت، وفكر: «ما أغرب ما جبل عليه الناس! خليط عجيب مشوش. عندما كان جورافليوف يحدثنى عن (رجيف) أحسست أنه قريب منى. كان يتكلم بعاطفة حقيقية عن الناس الذين قاتلوا معه، لم يكن يخطب، أنا متزكد من أنه كان مخلصًا حقًا. ولكنذ لك كان منذ ساعة مضت. أما الان فهو يدس ويشهر. ماذا يريد منى؟ أن يجرنى فى هذه العملية؟ لن أصدق أبدًا هذه القصة عن فورنين. وكولوفسكى رجل شريف وصادق، ولايمكن أن

يطعن أحد فى كفاءته كمصمم. هذا لايعنى أننى أحب أن أعيش معه فى مكان واحد، فالجميع يقولون إنه يحب وخز الاخرين. ولكن لماذا يقدم على هذا العمل؟ كما لو كانت أنياب الحياة لاتكفى لعض البشر. ربما لأنها عضته. على أى حال، هو لايمكن أن يكون أكثر صدقًا واستقامة. لقد أغظت سافشنكو وقل له إنه رومانسى، ولكنه كان على حق، إن جورافليوف شخص لاقيمة له على لاإطلاق. لا أعرف كيف جئت لأتبادل معه حديثًا وزيًا وأشرب معه فودكا. لماذا أستمع إلى قذراته؟».

نهض واقفًا، وقال:

«يجب أن أنصرف لأعمل» وعند الباب توقف، وأضاف:

«أنا لا أوافقك على ما قلت عن سوكولوفسكى. ليكن هذا ذهنك».

لم يستطع جورافليوف أن يفيق من الخطأ الذى وقع فيه مدة طويلة. كم كان مغفلا! من الواضح أن كوروتييف كان ضالعًا مع سوكولوفسكى. كلاهما وغد سافل... «هل كان يتردد لزيارة لينا لمجرد المناقشات الفلسفية حقًا؟ أنا شديد الثقة فى كل من حولى. انظر إألى لينا. هل كان يمكن أن أشك فيها زبدًا؟ ومع ذلك فقد اتضح أنها سيئة...

«ومع ذلك فقد كان المنزل أكثر بهجة وهى فيه. لو كانت شورا هنا لزحت ألعب معها. والمنزل يبو خاويًا، على نحو ما.

«كوروتييف على حق فيما يتعلق بحوامل الغلاية، المشكلة هى اللحام. غدصا يجب أن أرى يجوروف،لاتزال هناك إمكانية لإصلاحها.

«لابد أن سوكولوفسكى له سند فى موسكو، لاشك فى ذلك على ستمكن حقًا من إبعادى؟ كان والدى دائمًا يقول: «تذكر يا فانيا، لاتعرض أصابعك لأسنان الاخرين». حدثت تغيرات كثيرة منذ ذلك لازمان، بنيت المصانع. وكنت أرعى الأوز، أما الآن، فأنا مدير. ولاتزال النصيحة حيقةية.لايجب أن تعرض رقبتك،وإلا ماذا يحدث؟ لقد وضعت ثقتى فى لينا فخدعتنى، ووضعت ثقتى فى كوروتييف فاتضح أنه وغد. زمنا فى حالة مزاجية لطيفة! لا أذكر أنى أحسست فى حياتى أننى فى حالة أسوأ، ومع ذلك عندما تفكر فى الأمر مليًا تجد أن شيئًا لم يحدث حقيقة».

وجاء خيتروف لزيارته على غير انتظار؛ فأشرق وجه جورافليوف: سهذا صديق حقيقى.لابد أنه أحس بشعورى».

وأطلق جورافليوف لنفسه العنان، سلخ سوكولوفسكى، وجلده ومزقه إربًا. وخيتروف يقاطعه بين حين وآخر: «لاياشيخ!، لم أكن أعرف هذا!»، غير معقول، تصور زى خنزير!» هكذا اندفع حورافليوف والاخر يشجعه، حتى إذا وصل إلى الحديث عن ماضى سوكولوفسكى كان يصيح كالمجنون:

«أرسل أسرته إلى الخارج. تصور! إنه من البنولكس وليس من الشيوعيين».

وكوروتييف كذلك، لم يستطع أن يفيق من حديثه مع إيفان إلا بعد مدة. كان مستاء ومشمئزًا. من حسن الحظ أن سوكولوفسكى معروف فى المكتب الرئيسى، وأن الزمن قد تغير ولايستطيع جورافليوف أن يمحوه. «وعلى أية حال، هذا شىء فظيع. لماذا لم أقل له هذا؟ لابد أننى تعودت أن أغلق فمى. بعد أن اعتدت رؤية كل هذه القذارة. وهذا هو أسوأ شىء. ما الذى يمكن أن تتوقعه فى البداية. أنت تبدز ببناء البيت، ومن الضرورى أن تتخلف كميات كبيرة من الفضلات هنا وهناك. ولكن، آن الأوان لكى نكون أكثر نظافة. فمهما يكن من أمر، لقد استقر السكان فى البيت. وبين حين وآخر ترى نتوءًا مثل جورافليوف يظهر كالإصبع المتقيح.

ومع ذلك فإن سافشنكو ليس على حق تمامًا. لايمكن القول بأن جورافليوف لاجدوى منه لا على الإطلاق، فهو متفان فى عمله، كما يبدو أنه كان جنديًا شجاعًا. كيف يمكن أن يتصف رجل واحد بمثل هذه الصفات المتباينة؟ لقد تركته لينا الان، ولكنها مالت إليه فى يوم من الأيام، لابد أن كانت فيه عض الصفات التى جعلته تحبه. لا، إنه ليس وغدًا سافلا، إنه شخص غير مكتمل النضج، واحد من نفاية الرجال.

من السهل فحص ماكينة، ووضع قطع غيار سليمة مكان التالفة. ولكن ماذا يمكن عمله فى إنسان؟ منذ عام كان يمكن أن أقول إن جورافليوف عامل مفيد، وإن كنت لم غفل، حتى حينذاك عن رؤية الجانب الاخر فى شخصيته، وحاولت ألا أنكر فيها كثيرًا ولكنه

كائن بشرى ليس إلا خليطًا مشوهًا. أحس كأنى خرجت من مستنقع!

«الحاجة ماسة إلى نوع من الناس مختلف، مثل سافشنكو رومانسيين. إن المرتقى شديد العورة، والهواء شديد الندرة لمن له رئتان فاسدتان. وليس للسن دخل فى هذا، فثمة شباب من مثل سن سافشنكو يبزون جورافليوف فى صفاته السيئة. ثم تأمل فيما تقوله لينا عن بوخوف العجوز، ومع ذلك، فهذا رجل نشز فى أحلك الظروف. يوجد دائمًا الحسن والسيئ. وإذا كان الإنسان شريفًا فلن يحس بأنه ضائع، سيجد نفسه دائمًا على الطريق السليم. ولكن ماذا عن الاخرين؟ إن المعرفة لاتوصلة بعيدًا، إن الإحساس هو الذى يجب أن يدرب. خذ أمريكا مثلا، عندهم قدروافر من التعليم، يمكن أن أحكم على ذلك من مجلاتهم العلمية، ومن المعامل الرائعة التى يبنونها! ولكن يكفى أن تقرأ مايقترفونه ضد الزنوج لترى كم يثير هذا الأسى فى نفسك. وحشية صارخة!

ولكن كيف يمكن تدريب المشاعر؟ صعب. ليس من الصعب زراعة الكروم فى القرم، مثل جعل إنسان من نوع سافشنكو ينشأ شريفًا صادقًا. ولكن خذ فرع كرمة برية مثل جورافليوف الشاب وأجر له عملية تطعيم بالمير، ها مثل زراعة الكروم فى أقصى الشمال البارد، صعب، ولكنه ممكن، كل ما تحتاجه هو الحماس، والحساسية، والتصميم. لقد حقق شعبنا مآثر لم يسمع بمثلها من قبل. وهم يسمونه، عن جدارة، شعبًا بطلا. ومن الضرورى أن يتخلى كل فرد

مستقل بهذه الصفة. ألم يشترك جورافليوف فى الانتفاضة الشاملة، ألم يختطف هناك فى رجيف؟ ثم، مرة أخرى، هنا، عندما شبت النار فى المصنع؟ لكأننا بذلنا جهدًا مضنيًا للعناية بنصف الكائن البشرى، أما النصف الاخر فقد أهملناه. والنتيجة هى أن نصف المنزل قذر وفى حالة مزرية. إنى لأذكر مقاال كتبه جوركى قرأته منذ مدة طويلة، عندما كنت فى المدرسة، قل إننا بحاجة إلى مذهبنا الإنسانى الخاص، السوفييتى. هذه الكلمة طواها النسيان.لاتزال المهمة أمامنا ويجب أن ننجزها، فى تلك الأيام كانت الكلمات حساسًا سابقًا للعصر، أما الآن فقد أن الاوان لتاصدى لها.

«وماذا عن نفسى؟ أنا ألعن جورافليوف، ولكن هل أقوم أنا بتنظيف بيتى؟ أنا أيضًا أفصل بين الطريقة التى أفكر بها والطريقة التى أحيا بها. لماذا أدنت زوتروف، ذلك المهندس الزراعى السيئ الطالع؟ ربما يكون الحق فى صفه تمامًا لو قال إننى ذو وجهين. ما أكثر ما أقول، هذا كلام يصلح تمامًا للكتب، ولكن لايصلح فى الحياة» أو : «المبادئ شىء، والخبرة العملية شىء اخر» هذا انفاق. ومع ذلك فهو لايعنى أننى أقصد الغش والكذب. فلماذا تحدث الأمور على هذا النحو؟ لابد أن هذا يرجع إلى أننا نتغير، نحن ننمو بسرعة فائقة. وأحيانًا يعجز العقل عن ملاحقة التغير، وأحيانًا أخرى يعجز القلب. سافشنكو يحس أنه أكثر تكاملاً، لم يشهد الثلاثينيات، ولم يعان الحرب. هو يطلب المزيد، وهذا من حقه.

يبدو أننا نقترب مما كنا نقتصر فى الماضى على الحلم به، بشكل غامض...»

هل راح كوروتييف فى نوم عميق، أو أغلق عينيه فحسب، وانساق مع التيار المتدفق من الأكار، والمشاعر، والتصورات؟ لقد تذكر زخاريف، الذى قتل عند (ستارى أوسكول)، وقال وهو يموت: «كل شىء سيتحسن» ثم سمع ليسيشكين، عامل اللحام، وهو يغمغم غاضبًا: سمن السخف عطائى الجائزة، لم أخترع هذا وحدى، لقد فكرنا جميعًا فيه» كما سمع سافشنكو يقول: «لايمكن أن يخيفونا بالقنابل، الأفكار فى صفنا، عندنا كلمتنا، وشرفنا».

كان يرى أناسًا راذعين، محبين، ذوى حرارة، فيهم خشونة وفيهم رقة، وطافت بوجهه ابتسامة حنون. ثم تذاكر لينا، ولأول مرة، امتزجت ذكراها بحلمه الشجاع العتيد بمستقبل الجنس البشرى.

١٢

أثرت قصة جورافليوف تأثيرًا كبيرًا فى خيتروف، فقال لزوجه وابن هالزكبر إنه قد تبين زن سوكولوفسكى محتال، ومخرب عامد، ومن أجل خذا أرسل أسرته للحياة فى بروكسل:

وأشار بيده إشارة ذات مغزى وهو يقول: «إن جورافليوف لايلقى الكلام على عنوانه. إنه إنسان حريص، ويزن كل كلمة.لابد أنهم كشفوا النقاب عن حقيقة سوكولوفسكى هناك».

ثم نقل قصة كشف حقيقة سوكولوفسكى إلى المهندس بروخوروف، وإلى دوبجينسكى مدير النادى، وكان يضيف إلى حديثه مع كل من يكلمه: «هذا كلام بيننا طبعًا»، واعتبر بروخوروف الموضوع كله من صنع خيال خيتروف، وأنه عديم القيمة. أما دوبجينسكى فقد أعجبته القصة، إذ كان متضايقًا من سوكولوفسكى الذى سخر فى إحدى المناسبات من نشاط النادى، وكان دوبجينسكى يستمتع بإفزاع الناس بالأخبار المثيرة، فراح يزخرف الموضوع ويقدمه لكل من يعنى بالاستماع إليه.

وكانت زوجة خيتروف تمل فى البنك، ونقلت القصة طبعًا لزملائها. وقال ابنه وهو تلميذ فى الصف العاشر لزملائه فى الفسحة أن سوكولوفسكى ألقى القبض عليه، ورنه بلجيكى، وإن المحاكمة ستجرى فى المستقبل القريب!

بعد ثلاثة أيام كان مئات من الناس قد عرفوا أن شيئصا ما قد حدث لسوكولوفسكى. والشخص الوحيد الذى بقى لايعرف شيئًا كان هو سوكولوفسكى نفسه. كان يواصل العمل فى (سير التحويل)، ويمضى أمسياته فى قراءة كتاب عن المخطوطات العربية القديمة، ويحدث نفسه فى حزن: «يحسن ألا زور فيرا لمدة أسبوعين اخرين. ستقول رنين أتردد عليها كثيرًا، والأسبوعان مدة طويلة جدًا».

ثم تبادل حديثًا مع جورافليوف، قال له إنه يقبل ملاحظاته عن نظام الاشارة، وسيجرى بعض تعديلات على مشروعه. كان يتكلم بهدوء، وفكر جورافليوف: «ربما بالغت فى الموضوع أنه فضولى بكل تأكيد، ولكنه مرض مزمن. لقد وافق على معظم التعديلات، يقول أنه مستغرق فى علمه، ولم يبدر منه تعليق حاد واحد. يبدو أنه لم يكن ثمة داع لإحداث ارتباكات لنفسى. يمكن أن تسير الأمور بيننا سيرصا حسنًا.»

واستعاد طمأنينته الذهنية بالتدريج، وفى يوم الأحد التالى ذهب لصيد السمك مع خيتروف. وكانت المياه، حيث كسر الثلج على السطح، ترسل أبخرة وفقاعات فى مرح، وجورافليوف يردد: سحسن. لنر أى نوع من السمك هناك» وفى الطريق إلى المنزل

سأله خيتروف: «كيف تسير الزمور مع سوكولوفسكى»، فزجاب وكأنه لم يكن يلعن كبير المصممين منذ أسبوع: «إنه مشغول فى تعديل المشروع. أنه شخص كريه، ولكنه يعرف عمله».

ومر أشبوع اخر. وكان جورافليوف قد نسى ذلك اليوم الكئيب الذى انقلب فيه، وهو فى غمرة حزنه، على سوكولوفسكى. والآن، جاء دور المدرس بوخوف ليعرف قصة افتضاح أمر المصمم. قال وهو على مائدة العشاء:

«لم أكن أتصور أن يصل الزمر بجورافيلوف إلى هذا الحد. كان ترك لينا إياه رحمة. لقد اخترع قصة أن سوكولوفسكى أرسل عائلته إلى بلجيكا. لو كانت النائب العام لطلبت محاكمته بتهمة التهشير».

وقطب فولوديا جبينه مغمغمًا: «إن والدى ساذج. إنه ليس جورافليوف الذى ستوضع رقبته فى الخية، ولكنه سوكولوفسكى. لم أذهب لزيارته منذ عصور. ربما يظن أننى أتجنب رؤيته. ما أسخف..»

وذهب لزيارة سوكولوفسكى فى الليلة نفسها، ووجده يشتغل. كانت المنضدة الكبيرة مغطاة بالرسومات، وسوكولوفسكى يجلس إليها وهو يلبس جامكتته ذات الفراء. ورأى فولوديا أن السن تقدمت به وأنه يبدو تعسًا. ودفع إليه ألبومًا فيه صور بناء، وغمغم سوكولوفسكى:

«ألق نظرة على هذا، لن أنشغل عنك كثيرًا».

لم يكنن فولوديا يهتم بالبناء، ولكنه أمل الكتابة الخطية: «إلى رفجينى فلاديميروفيتش سوكولوفسكى من زملائه العمال، فى ذكرى بدء العمل فى القرن العالمى الأول، ١٩٣١» فى تلك السنة كان فولوديا فى الحادية عشرة من عمره. وفكر: «الحق أن سوكولوفسكى رجل متقدم فى السن ما الذى يجمع بينى وبينه؟ فى الواقع لاشىء. ظننت فى البداية نه متشائم. واعتقدت أن مقابلة إنسان لايعتقد فى شىء أمر منعش. ولكن أى نوع من المتشائمين يكون؟. أنه يحب عمله، ويقرأ ويعيد قراءة قواعد تربية الماشية. مجرد مواطن سوفييتى عادى، كل ما هناك أنه يفوق الغالبية بشىء من الذكاء. وربما كان هذا هو السبب فى حملة جورافليوف عليه. ولن يقوم أحد بالدور الذى يقوم به. عندنا يفقد الإنسان شعبيته بمجرد أن يفقد مكانه مرة، والمحظوظون فقط هم الذين يكونون موضع ثقة، مثل جورافليوف. يمكن أن أتصور شعور سوكولوفسكى. من حسن حظه إنهم لم يركلوه مطرودًا من عمله حتى الان. ولكن أين حسن الحظ؟ إنهم سيركلونه غدًا».

قال سوكولوفسكى دون أن يرفع نظره: «ما أشد البرد».

وقال فولوديا: الجو شديد الدفء هنا» ومع ذلك فأنت تلبس هذه الجاكتة».

وغمغم سوكولوفكسى: «لابد أننى أصبت ببرد».

وبعد ساعة أزاح أوراقه جانبًا وقال باكتئاب:

«لم أرك منذ مدة طويلة. ماذا كنت تعمل؟ تشتغل؟».

«قليلا ... ما أردت أن زضايقك».

ولزم الصمت هنيهة، ثم حمل نفسه هعلى أن يقول:

«إفجينى فالديميروفيتش، سمعت أنك تعانى بعض المتاعب فى عملك».

«ليس كثيرصا ... علىَّ مراجعة المشروع. كانت الاعتراضات وجيهة».

تضايق سوكولوفسكى زن جاءه زائر، كان يحس بزنه مريض وبريد زن يستلقى. جلس صامتًا يفكر. وظل فولوديا فى مكانه.

قال سوكولوفسكى: «هل زعجبتك الصور؟».

وفكر: «من الواضح زنه لايعرف شيئًا. ربما لايغير هذا من الزمور شيئصا ... يجلس ويشتغل... لولا زنى لو ترمكته على غير علم لزخذه جورافليوف على غرة. يجب أت أحذره. يجب أن يعد أقواله».

وقال فولوديا:

«سألتك عن عملك لزنى فهمت زن جورافليوف ينوى أن يدمرك».

«حقًا؟ هل لهذا علاقة بالتصميم الجديد؟»

نهض فولوديا، واقترب من سوكولوفسكى:

«يقول إنك زرسلت أسرتك إلى خارج البلاد».

فى تلك اللحظة حدث حادث صغير مضحك شتت اهتمام كليهما.

فربما تظن أن الكلب «فومكا» قد اعتاد على بوخوف الذى لم يتوقف أبدًا عن رشوته بقطع من السكر وشرائح من «السلامى»، ولكن الكلب كان يكره أن يقترب أى إنسان من سده، وقد قفز الان من تحت الكنبة وغرس أسنانه فى بنطلون فولوديا. وقبض عليه سوكولوفسكى فى اللحظة المناسبة.

غمغم غاضبًا: الأبله. إنه يهجم على كل إنسان».

ولم يتبين فولوديا بالتحقيق إن كانت هذه الكلمات اتطبق على فومكا أو على جورافليوف.وانتظر أن يكذب سوكولوفسكى الإشاعة التى بدأ جورافليوف فى ترويجها، ولكنه لزم الصمت. وتمدد على الكنبة وتمتم متعجبًا: «هل صحيح أن الجو دافئ هنا؟

إن أسنانى تصطك».

عندئذ فقط لاحظ فولوديا أنه كان يبدو مريضًا جسمانيًا، لابد أنه أصيب بالبرد فعلا.

وتطوع قائلا: «هل تحب أن أعمل لك فنجان شاى؟ أو أسرع إلى الخراج وأحضر بعض البراندى؟.»

«لا أريد أى شىء، وإنما قل لى، لماذا لم تكن ألوان ليوناردو دافنشى سليمة؟ قرأت عن هذا الموضوع ذات مرة ولكنى لم أفهم.

هل كانت الصبغات غير متقنة الصنع أم أنه كان يخطئ فى مزجها؟

« لا أعرف. وبصفة عامة يا فرجينى فلاديميروفيتش، أنا على درجة كبيرة من الجهل».

صمت الاثنان فترة، ثم قال فولوديا:

«هل تحب أن تنام؟ سأذهب...»

«استمر جالسا، كما أنت. أنت لاتضايقنى. قل لى، هل تحب لوحات ليوناردو؟»

«لم أرها إلا فى متحف الأرميتاج. من الصعب أن أحكم».

«أنا أحب عقليته. ما أكثر الأشياء التى كان يهتم بها! اعتاد الناس فيمامضى أن يكونوا متعددى الجوانب. هل تعرف أن مايكل أنجليو كان يكتب الشعر؟ ترى، هل يستطيع أينشتين الآن أن يكتب شعرًا؟ أعطنى معطفى. إنه معلق هناك».

وفكر فولوديا: «إنه يحاول أن يخفى عنى ارتباكه ولابد أنه يعتقد أن من المهين جدًا إنكار تشنيعات جورافليوف. ربما هو على حق. ما كان يجب أن أقول له، إنها القشة التى قصمت ظهر البعير. كان يعمل فى هدوء عندما جئت، وهو الآن يرقد ويتمتم إطانة غريبة. لابد أن درجة حرارته ارتفعت. يجب أن أستدعى طبيبًا. لايمكن أن زتركه فى هذه الحالة.

وعاد سوكولوفسكى إلى الكلام:

«قرأت فى إحدى الروايات الرومانتيكية أن الصبار الأمريكى لا يزهر إلا مرة واحدة، ثم يموت بعد ذلك. كلام فارغ. توجد صبارة فى بساتين تربية النباتات، إنها تزهر وحالتها على ما يرام. كل ما هناك أنها تتطلب رعاية خاصة فى أثناء ازدهارها».

انزعج فولوديا، يظهر أن سوكولوفسكى يهذى.

«سأستدعى طبيبًا يا إفجينى فلاديميروفيتش».

«نسيت! كم تاريخ اليوم؟»

«التاسع عشر».

«يااللغباء. ظننت أنه الحادى والعشرون.لاتلق بالا إلىّ، أنا أقول كلامصا فارغًا. رأسى سينشق».

«سأذهب لاستدعاء طبيب. لابد أن حرارتك مرتفعة».

«أنا لست بحاجة إلى طبيب. قلت لك إن عندى قشعريرة».

مكث فولوديا ساعة أخرى، وفجأة هتف سوكولوفسكى متألمًا:

«رأسى ينفجر، باختصار. من السخف..»

وينهض فولوديا:

«سأستدعى طبيبًا على الفور».

«فلاديميرأندريفيتش، انتظر قليلا، تذكر ألا تكون هى الدكتورة شيرر. إن كان لابد أن تستدعى أحدًا فليكن هو الدكتور جوروخوف. وإن كنت أتمنى ألايزتى أحد».

جاء جوروخوف وقرر أن الاعراض تنبئ عن أنفلونزا، ولكن يمكن أن تكون التهابًا رئويًا، وأن القلب ليس قويًا تمامًا، وسيرسل باريخينا فى الحال لحقن سوكولوفسكى بالكافور والبنسلين، وسيزتى هو لعيادته مرة أخرى فى الصباح.

وظل فولوديا إلى جواره طول الليل وبدا كأن سوكولوفسكى نائم. لم يكن نائمًا. وضايقه أن منعته الحمى من القدرة على التركيز، كانت أفكاره تلاحق بعضها البعض، وتتدافع معًا، وتتفرق، وتختفى. وضايقه هذا، فقد كان يريد أن يفكر فميا قاله بوخوف. إذن، فهذه القصة القديمة تثار من جديد! كم من مرة شرح الموضوع! وهم دائمًا يفهمون فى النهاية، ويقولون: «الآن، اتضح الأمر» ثم يخرج عليك واحد اسمه سابونوف أو بوليشوف أو جورافليوف، ثم تبدأ القصة كلها من جديد، «كيف، وماذا، ولماذا؟» وبعد شهر أو اثنين أستهلك خلالهما تمامًا ولاتنفعنى أية كمية من الحبوب المنومة، عندئذ قد يتحسس جورافليوف خديه السمينين ويعلن متفضلا: «والآن، اتضح الأمر». والجانب المضحك فى الموضوع أنه ليس واضحًا على الإطلاق بالنسبة لى. لن أفهم أبدًا كيف أن ابنتى. وهى حفيدة عجوز ملتح من صيادى البحر الأبيض الشمالى يصبح اسمها مارى. أشرب نخب مارى؟ خرج بوشكين عن الموضوع. هذا بعض ما كتبته «مايا بلابانوفا»، تلك المسكينة التعسة التى حملت بحفلات التنس تحت سماء كاليفورنيا وماتت فى ضاحية بوريفاج الكئيبة ووقع نعال فرق العاصفة الهتلرية فى أذنيها. ما أعجب أن يجعل الشباب من أنفسهم حمقى!. وربما لايقتصر الأمر على

الشباب وحدهم، إذ لا أتصور كيف تلبس ماشا هذا الزى المضحك. تقول فى خطابها إنها من العاطفيين. ولكن، هل يمكن أن تعطف على منجزات شعب، وتضحاته، وجهوده؟! رما أن تسهم فى وضع اللبنات أو لاتقول شيئًا على الإطلاق. واضح أن جورافليوف مصمم على التخلص منى. شىء يضايق يجب الانتهاء من التصميم الجديد. سيعدِّل نظام الإشارة، سأعالج هذا، ربما ينشرون غدًا مقالا كما حدث فى الأورال. ترى، ماذا سيكون رأى الصحفى فى الأمر الان؟ وثبت أن الصقر ليس إلا عصفورًا بلجيكيًا! لا، ليس الان. الآن، لايستطيعون أن ينفذوا هذا بنجاح. هناك أشياء عديدة لم يتمكن جورافليوف من فهمها بعد... لمادا بدأ هذه الحملة؟ لابد أنه تضايق عندما هاجمته فى الاجتماع الحزبى.وذلك، كيف يمكن أن أصمت؟ الناس تشتغل على ماكينات رائعة وتعيش فى بيوت صغيرة مهدمة ذات أسقف مثقوبة. أين يجب الحديث فى هذا إن ما يكن فى اجتماع حزبى. فى (أركانجلسك) كان هناك رجل اسمه نيكيتا شيرنى، بلشفى قديم، عرف لينين واشتغل مع رينوكنتى، كان يقول: الحزب هو ضميرنا ولسوف يقول جورافليوف: «أنا أيضًا عضو فى الحزب...» ولكن لماذا أظل أفكر فى جورافليوف؟ أنه لايستحق. وعلى أى حال، فالصيغ التى تكتبها ليست أهم شىء فى الحياة. يجب أن أعيد كتابتها كلها من جديد. وإلاَّ فإنه لن يتعين علىَّ كتابتها إذا مت. كل شىء كتب فعلا، ما خطب رأسى؟ لم أشعر فى حياتى بألم كهذا... كنت واثقًا ن اليوم هو الحادى والعشرون، والان تبين أنه التاسع عشر. يجب ألا أذهب لزيارة فيرا قبل

الخامسة والعشرين. ستة أيام. هذا زمان وطيل... ولن لنفترض أن أبى مرضًا شديدًا بالفعل كم سيستمر؟ تضايقت منى فيرا منذ مدة. ما كان يجب أن أتحدث عن الصبار، لماذا نحس عندما نتقابل أنه ليس لدينا إلاَّ القليل نقوله؟ كما لو كان قلبانا قد تجمدا؟... كان الجو شديد البرودة اليوم، ولهذا أصابتنى قشعريرة، يجب أن أشرب (براندى) حاميًا وأنضحه عرقًا، الأطباء يعقدون الأمور دائمًا. هكذا تفعل فيرا... قال حوروخوف «حقنة» لكنك لاتستطيع أن تحقن رنسانًا بالحب، لم يتمكن ليوناردو أو بوشكين من ذلك، أذكر، على ورصيف محطة قزان أن جنديًا كان يقول لفتاة تودعه: يقولون إن ماياكوفسكى أطلق الرصاص على نفسه. ولم تكن هى تعرف من يكون ماياكوفسكى. تعلقت بيه وقالت: «فانيا، لماذا يجب أن تذهب؟» إن رأسى ينشق فعلا، أظن أن بوخوف أشعل النار فى المنزل.إنه كفيل بزن يفعلها! هو دائمًا يلقى أعقاب السجائر فى أى مكان. نار مشتعلة هائلة! ماذا لو احترق بوخوف؟ يقول إنه لم يرسم شيئًا أبدًا. يجب إنقاذ اللوحات. لماذا لايعرف بوخوف أية أصباغ كان يستخدمها ليوناردو؟ كانت له لحية طويلة، وكان مولها فى حب ليزا. توجد بركة بالقرب من دير سيمونوف، حيث أغرقت ليزا نفسها.ولكن ليزا هذه غير تلك.

واختصت البركة من ذلك المكان، يوجد الان أحد قصور الثقافة. إنها منشأة جديدة، ولكن لماذا هم مستمرون فى صنع هذه الأفران العتيقة؟ إنها ثقيلة للغاية، كما أنها تلتهم كميات مخجلة من الوقود. أظن أن النار تنشر. يوجد صنبور على البسطة.»

وصاح سوكولوفسكى:

«أطفئوها قبل فوات الوقت».

وظلل فولوديا المصباح بقطعة من الورق المقوى، وعاد سوكولوفسكى لى الهدوء. ثم بدأ يتمتم: وتمكن فولوديا من التقاط كلمات متناثرة. «مارى» و«الصبار»، «النباتات العصارية».

وفكر فولوديا: « لابد أنه من هواة علم النبات. تكلم عن الصبار الأمريكى. ما أكثر الأياء التى تريد معرفتها! ما أهمية نوع الألوان التى كان يستخدمها ليوناردو؟ إن سابوروف يستخدم الألوان نفسها التى استخدمها، ولكن النتيجة تختلف. تُرى من تكون مارى؟ لابد أنها حب قديم. إن مجرد تصور وقوع سوكولوفسكى فى الحب يثير الضحك. هذا اسم أجنبى. ربما ذهب إلى بلجيكا فعلا. ما كان يجب أن أصارحه. حدث كل هذا بعد أن أخرته، وقد راح يهذى إنها غلطتى.»

وعلى الرغم من أن فولوديا يعرف حق المعرفة أن الالتهاب الرئوى لايمكن أن يكون نتيجة لارتباك عاطفى، فإنه شعر الآن أن التقول القذر الذى أعاده على مسامع سوكولوفسكى قد صعقه.

وعاد الطبيب «جوروخوف» لعيادة المريض فى الصباح التالى، فقطب وجهه وقال:

«أحب أن أستنير برأى ثان، سأستدعى الأستاذ بايكوف».

وجاء الأستاذ من المدينة، وشرح شيئًا ما لجوروخوف باستفاضة. ولم يفهم فولوديا شيئًا من الاصطلاحات العلمة ولكنه استنتج أن

الطبيبين كانا قلقين، وسأل جوروخوف إن كان من الأفضل نقل المريض إلى المستشفى، فهز بايكوف رأسه:

«يستحسن عدم الحركة. هل يمكن أن تحضر ممرضه؟»

وجاءت «ياريخينا» لتظل إلى جوار سوكولوفسكى. وعند ما اقترب المساء، عاد فولوديا إلى المنزل، ولاحظت سونيا نظرته المرهقة:

«ماذا حدث؟»

وتوجه هو إلى غرفته دون أن يجيب.

استمر سوكولوفسكى فاقدًا وعيه يومين. وفى الصباح اليوم الثالث فتح عينيه. وتخيل أن النوم غلبه طويلاً وأنه سيتأخر عن عمله. ومدَّ يده يتحسس المنضدة إلى جوار سريره حيث تعود أن يضع ساعته، فقلب قارورة دواء. وبعد ذلك تذكر: «أنا مريض. جاء جوروخوف لعيادتى...» أغلق عينيه، وحاول جاهدًا أن يتذكر المزيد. «جاء بوخوف، وكنت محمومًا، واشتعلت النيران .لابد أن هذا كان حلمًا.» ثم اختلط كل شىء فى رأسه. ولأمر ما ظل بارزًا فى ذهنه بوضوح شىء واحد :إنه سأل بوخوف عن الألوان التى كان يستخدمها ليوناردو، وإن بوخوف لم يعرف الرجابة.

عادت الأياء إلى ذاكرته بالتدريج. أخبره فولوديا بما قاله جورافليوف وقطب سوكولوفسكى وجهه: «لقد سئمت هذه المسألة البلجيكية. سأنهض على الفور وأذهب لأرى فيرا . ثمة لحظات

لايمكن أن تكون فيها وحيداً. لا أستطيع أن أتبين كم الساعة الآن، الدنيا نور. وهذا يعنى أنها لن تكون فى المنزل. لا أعتقد أنى شفيت بعد، عيناى تؤلمانى، ورأسى كأنه لاينتمى إلىَّ، لا أستطيع أن أرفعه.»

وصدر عنه أنين، فجاءت باريخينا، ولكنه لم يرها: وابتعلته من جديد دوامة اللاوعى الحارة المظلمة.

وعندما فتح عينيه مرة أخرى، كان الوقت مساء، وكانت فيرا تنحنى عليه. كانت تنظر إليه: لم يسبق أن أرى فى حياته مثل هذا التعبير فى عينيها. حاول أن يقول لها شيئًا، وإذ تبين أنه عاجز اكتفى بأن نطق اسمها، فقالت له بصرامة:

«يجب ألاَّ تتكلم»

ابتعدت عنه وهمست إلى باريخينا: «لقد عرفنى».

رقد سوكولوفسكى وعيناه مغمضتان، وسأل ذهنه الكليل: «هل رأيت فيرا، أم ترانى أحلم؟ يجل أن اكتشف، هذا أمر بالغ الزهمية. نسيت أنها طبيبة. لابد أننى مريض. لاأستطيع أن أتبين أى شىء ماذا أصاب رأسى؟ كل شىء يختلط.»

وجاءت باريخينا لتطل عليه:

«لقد راح فى الغيبوبة مرة أخرى... فيراجريجوريفنا، ماذا أصابك؟»

أعطت الممرضة فيرا كوب ماء، ولكن فيرا تمالكت نفسها بسرعة وقالت فى هدوء:

«أعطه حقنة كافور. سأستدعى الأستاذ بايكوف بالتليفون».

١٣

كان سيبر زيف قد قال، منذ أواخر نوفمبر الماضى، إن المزارع بحاجة ماسة إلى الناس. قال ذلك بمشاعر متضاربة. فهو يعرف أن المزارع تحتاج إلى عمال حقيقيين، لا إلى متسكعين، وهو يعرف أيضًا أن جورافليوف لن يسمح لمثل هؤلاء بترك العمل فى المصنع والذهاب إلى المزارع. والحق، كيف يمكنه ذلك؟ إن المصنع ينتج سيورتحويل من أجل مصانع الجرارات، وأدوات من أجل مصنع سلماش للآلات الزراعية، أى أنه يقوم بعمل حيوى بالنسبة للزراعة. وفكر سيبرزيف: «من الأوفق ألا نستحث أحدًا على الذهاب. ولكن جورافليوف أصر على تنظيم حملة دعائية.

وافق لاشاكوف على الذهاب إلى إحدى محطات الآلات والجرارات. ولوَّح جورافليوف بيديه: «لايمكن أن يذهب هو، مهما حدث.» وغمغم سيبرزيف: «ولكن، ماذا يجب أن نعمل ياإيفان فاسيليفيتش؟» فقال جورافليوف إن عليهم أن يجندوا من بين العاملين الجدد (من بين أولئك الذين لم يندمجوا فى الإنتاج بعد،

أولئك الذين يمكن الاستغناء عنهم). وفكر قليل ثم أضاف: «فلأفاتح شيجوف. وبالمناسبة، لقد كان فيما مضى سواق جرار.» كان شيجوف، قبل ذلك بعام، عاملاً مجدًا، ولكنه تعود الإفراط فى الشراب (كان أبوه أيضًا مدمنًا للخمر). وكان جورافليوف ينوى طرده ولكن ظل يرجئ المشكلة: «أعطيته فرصة أخرى، وقد وعد ألاَّ يقرب الخمر».

وفى نهاية يناير التقط مصور الجريدة المحلية صورة لشيجوف وثلاثة فتيان صغار يوقعون إقرارات بتطوعهم للعمل فى المزارع.

كان سيبرزيف قد قال صراحة لشيجوف: «نصيحتى لك هى أن تذهب. لقد أعتمت الخمر رأسك، فلا تدرى أين أنت بين لحظة وأخرى. وطالما أنذر جورافليوف بطردك، وهو على حق.» سب شيجوف، ثم فكَّر قليلاً، وسبَّ مرة أخرى، ثم قال: «لست أبالى ! سأذهب إلى عشيرتى القديمة. إنها مزرعة تعاونية جيدة.»

وفى ذلك الخريف، عاد بلكين أيضًا إلى مزرعة الطريق الأحمر منذ الحرب وهو يعمل فى الأشجار والأخشاب فى لتوانيا، كان رجلاً يعتمد عليه، عملاقا متجهمًا، يتقبل أى عمل يكلف به، قائلاً: «ترى، إلام سيهديهم تفكيرهم فى المرة القادمة؟» ثم ينهض بالعمل على خير وجه. وابتهجت أنتونينا بافلوفنا عند ما علمت بأخبار عودته. كانت دائمًا تشكو من قلة الأيدى العاملة فى الكولخوز. تصور: تسعة آلاف هكتار، وما يقرب من ثلاثة آلاف رأس من الماشية، ومزرعة لتربية الدواجن، ومزرعة كروم، ومنحل كبير؛ وكل الأيدى العاملة

لاتزيد على مائة وثلاث وستين فقط. انتعشت آمالها بعد عودة بلكين: يمكن أن يأتى أناس آخرون أيضًا.

بعد ذلك بقليل، جاءها «راديونوف» يقول: «كتب لى ابن عمى ساشا من موسكو يقول إنه يريد المجئ هنا. ولا أعرف حقًا...» فقالت أنتونينا بافلوفنا: «قل له أن يأتى. نحن فى حاجة ماسة إلى الناس. هذه مشكلتنا الأساسية.»

وعندما جاء ساشا قال إنه كان كاتب حسابات فى جمعية تعاونية صغيرة، وأن صحته ضعيفة، وقال الطبيب إنه بحاجة إلى الهواء الطلق. وكانت الجمعية فى نصف بدروم، وجوها مشبع برائحة الجلد. وقال إنه لم يكن يسكن غرفة خاصة به ولكن كان يستأجر ركنًا فى غرفة (شاستيك) فى مكان آخر. وباختصار، فقد حزم أمره على التغيير.

كان ساشا يخترع قصصًا عن نفسه. بعد ثلاثة أيام من مجيئه عرف الجميع ما يلى: بالقرب من (درسدن)، حيث كانت كتيبته تعسكر، ولدت نعجة ستة حملان كانت تسير خلفها مثل كتاكيت خلف دجاجة. وفى موسكو أعطاه رئيس الفريق بيضة بطة صينية، وكانت سنُّ هذه البيضة مائة عام، شىء مزعج نوعًا ولكنه مُدَّبر، وقد أكل تلك البيضة، والتقط له فيلم وهو يضع باقة من الزهور على قبر الشاعر بوشكين، كان عليه أن يقوم بالعملية مرتين لأن الأولى لم تكن صالحة، ولكن الفيلم كان رائعًا عند العرض. وفى إحدى سيارات الأتوبيس جرت مناقشة بينه وبين ليسنكو، قال

العالم إن الشتاء معتدل جدًا، وسأله ساشا عن المحصول المقبل فقال ليسنكو إنه لايستطيع أن يتنبأ بالدقة، ولكنه يأمل أن يكون محصولاً غير عادى.

وبدأت أنتونينا تضيق به: «يقول إن صحته ضعيفة، وهو كثير الكلام أيضًا. ما فائدة مثل هذا الشخص.» ولكن ساشا انصرف إلى العمل بعد أن فرغت جعبته من القصص، أصلح منضدة فى غرفة طعام الكولخوز، ونظف إحدى حظائر الأبقار، وتبين أنه كان جنديًا فى الوحدات الطبية، وكان ماهرًا فى النجارة، وكان يستطيع قيادة سيارة نقل. وقالت أنتونينا لراديونوف: «أشكرك من أجل ساشا. إنه إضافة طيبة لمزرعتنا التعاونية.»

لكنها احتدت عند ما علمت أن شيجوف عاد إلى المزرعة: «تقول الصحف إن أحسن الناس هم الذين يرسلون للعمل فى المزارع، ثم يبعثون إلينا شيجوف، سكير لم أرَ مثله أبدًا. كان يشعل النار فى النادى فى الصيف الماضى. لانريد أمثاله هنا.»

وصل شيجوف، حزينًا رزينًا. وسُرَّ أبوه لوجود مناسبة يحييها، فاشترى زجاجتى خمر، كل منهما نصف لتر. وتهلل وجه شيجوف الشاب فى الحال وبدأ يشتم جورافليوف. «ربما يكون هذا السبب فى إدمانى الخمر، إنه يثير فىَّ كراهية تفوق الوصف. إنه مثل خافوق الدجاج الملعون، وليس مديرًا . لاعجب أن بصقت زوجته فى وجهه.» لوحت أم شيجوف بيديها: «إنها لينا ابنتنا.» وهزَّ شيجوف رأسه مسرورًا: «نعم، إنها هى. كان العم باشا يسهل لكلينا الاختفاء

لنسرق التفاح. صنع والدها لى مرة حيوانًا صغيرًا، خنزيرًا بأنف هكذا، على هيئة جورافليوف وصورته. إنه الترف الذى أغرى لينا أن تكون زوجة مدير وما أشبه. ولكنها لم تستطع أن تتحمل فى النهاية وتركته. إننى أقول لك الحقيقة.»

كانت لينا كثيرًا ما تقول لنفسها: «يجب أن أكتب لوالدتى»، ولكنها كانت دائمًا ترجئ الموضوع، لعلمها أن ذلك سيسبب إزعاجًا كبيرًا لها. وقد كتبت منذ مدة وجيزة، تقول إن كل شىء على ما يرام، وإنها كانت مشغولة، وإن شورا كانت ماهرة فى الرسم. ووعدت بالكتابة سريعًا، ولكنها لم تقل شيئًا عن التغيرات المهمة فى حياتها.

جاءت أم شيجوف لزيارة أنتونينا مبكرة فى صباح اليوم التالى، وقالت بابتسامة معسولة: «عاد ولدنا جينيا.»

لم تكن تميل أبدًا لأنتونينا. «إنها تستبد بالجميع، وتصدر الأوامر كما لو كانت جنرالاً. من يقول إن معلوماتى أقل منها؟ حتى لو كانت هى الرئيسة، فأى حق لها أن تسأل لماذا يدمن زوجى الخمر؟ إن هذا من تعاسة حظى، وليس مجالاً لتوسيع نفوذها. إن زوجها لم يؤت مجرد القدرة على سوق البهائم إلى حظائرها. فى الصيف الماضى قضينا ليلة بكاملها نبحث عن بقرة سوباسنيكوفا. من الأفضل لها أن تلزم الهدوء». وبالابتسامة المعسولة نفسها سألت إن كانت أنتونينا عندها أية أخبار عن لينا. وقالت أنتونينا إنها تلقت منها أخيرًا رسالة قصيرة:

«هى مشغولة. تعمل فترتين، واختيرت للقيام بأعمال الدعاية اليومية فى الحملة الانتخابية.»

«قال لنا ولدنا جينيا إنها تسعى للطلاق، قال إنها تركت زوجها. أردت أن أطمئن منك على أحوالها، مسكينة. لابد أنها تعانى فى حياتها بمفردها، ومعها ابنتها الصغيرة.»

وأثبتت أنتونينا قدرتها على ضبط نفسها، فلم تقل شيئًا، بل اكتفت بأن سألت شيجوفا عن مشروعات جينيا: هل جاء فى زيارة أم أنه ينوى البقاء للعمل فى المزرعة؟

لم تقل شيئًا لزوجها. وبقيت طوال تلك الليلة راقدة يقظى، قلقة من أجل لينا. كان شيجوف سكيرًا لاقيمة له، ولكنه ما كان يجرؤ على اختراع قصة كهذه. وتذكرت أنتونينا أن لينا سبق أن قالت لها إن آمالها خابت فى زوجها. «لابد أنها تركته حقيقة، ولكن، تصورى أنها لاتكتب لوالدتها.» بكت قليلاً، بهدوء، ثم عقدت العزم على الذهاب لزيارة ابنتها. «سأعود بالبنت شورا معى، كيف تستطيع لينا أن تحيا بمفردها؟».

عندما وصلت أنتونينا إلى غرفة فيرا، كانت لينا قد ذهبت إلى المكتبة، وفيرا ذهبت لعيادة أحد المرضى وفتحت الغرفة ناسيتا، خادمة جوروخوف. ومطت أنتونينا شفتيها وسألت متجهمة: «هل تسكن لينا هنا؟».

لم تعرفها شورا. وعندما نادتها الجدة توارت فى خجل خلف ناسيتا. وأخيرًا ، جاءت لينا.

بكت أنتونينا وظلت تردد: «ولا كلمة لى، لأمك.»

وبعد ذلك هدأت ثم قالت:

«سآخذ شورا معى. حتى الربيع، على أى حال، إلى أن تستقر أحوالك. سيسر والدك. إنه فى حالة يرثى لها حقًا، ولكنه لايزال يلعب مع الأولاد الصغار، ويحفر حيواناته الصغيرة على الخشب، وستأتين لقضاء العطلة عندنا. تخيلى أنك لم تكتبى لأمك! تصورى أننى اكتشفت الموضوع بالصدفة من شيجوفا. عاد ولدهما جينيا ليعيش معهما، كما لو كان شيجوف العجوز لايكفينا. أنت تذكرينه، كان يخيفك ويقول لك إنك ستكونين قزمًا . إنه مازال على حاله يشتغل يومًا ويسكر شهرًا. والآن انضم جينيا إليه، إنه احتياطى أبيه فى العمل. هكذا جاءتنى شيجوفا وقالت: «ابنتك لينا تسعى للطلاق، تمكنت بصعوبة من منع نفسى من العويل أمامها.»

وسألتها لينا: «هل تلومينني؟»

«لاداعى للكلام الفارغ. إنما تألمت لأنك لم تقولى لى.أنا أمك من أكون لأحكم على تصرفك؟. من الصعب أن أحكم على ابنتى، ومعها طفلة. هل يأتى أبوها لزيارتها؟».

«اشترط أن آخذها لزيارته كل يوم أحد. وذهبت معها أول مرة وفى يوم الأحد التالى أرسل رسالة تقول إنه مشغول. ومنذ يومين طلبته بالتليفون لأسأل متى آخذها إليه فقال إن ضغط العمل عليه عظيم، وإنه سيرسل لها بعض الشيكولاته، الأرجح أنه ذهب يصطاد السمك مع خيتروف. وأنا التى كنت أظن أنه شديد الولع بها. وكم أشعرنى هذا بالتعاسة، أحاول أن أحزم أمرى.»

وقالت أنتونينا غاضبة: «أنت كنت تظنين! كنت تظنين أشياء كثيرة، كنت تظنين أنه عامل ممتاز، وأنه كان يتفهم الأمور وأن له روحًا كبيرة. إنى لأذكر كيف كنت تتكلمين عنه!»

امتلأت عينا لينا بالدموع، وشعرت أنتونينا بالندم مرة أخرى.

«لاتحزنى. كل ما هنالك أنك أخطأت الاختيار، وهذا يحدث للناس الكبار أيضًا. أنا لا ألومك. ولكنه ليس شخصًا طيبًا. كنت دائمًا أحس بذلك. أنا لا أعرف أسرارك، ولست أتحدث عن ذلك. ولكنى رأيته جيدًا فى الأيام التى عشت فيها معكما. إنه فظ مع الآخرين، ولايضع نفسه مكانهم. أذكر أنى سألته يومًا لماذا تفتقر متاجر المصنع إلى البضائع، مما يضطر الناس إلى الذهاب إلى المدينة للتسوق، ثلاث ساعات فى الذهاب والإياب، فقال إنه مشغول تمامًا فى إدارة المصنع، وراح يتفاخر بقصص مختلفة عن ماكيناته. وكذب وهو يتحدث عن المحال أيضًا، وقال إن فيها كل شىء، حتى السكَّر. ومرة أخرى جاءه رجل يسأله أن يسمح لزوجته بركوب سيارة النقل إلى عيادة رعاية الأمهات، فقال: إن سيارات النقل لم تخصص لهذا». بعد ذلك سألته ألم يشعر بالأسى من أجل الأم؟ فضحك وقال: «سترشو السائق بخمسة روبلات، فلماذا أربك نفسى، إنه ذلك النوع الذى يتسبب فى شقاء الآخرين، كل ما يقال لهم يزيحونه جانبًا. عندما أخبرتنى شيجوفا لم أستطع النوم طول الليل، آلمنى أن عرفت الخبر من شخص غريب، ولكنى سررت من أجلك، لايستطيع إنسان أن يعيش مع مثل هذه الكتلة من الخشب.»

«إذن، لماذا لمتنى عندما قلت لك إن حبى له قد تضاءل؟»

«لم أفكر فى الأمر كما ينبغى. كنت أرى أنك أنجبت طفلة ومن الأوفق أن تستقرى. ليس من السهل أن تكونى أمًا ، سترين بنفسك عندما تكبر شورا، أحيانًا لاتواتيك الشجاعة لتقديم نصيحة. ومهما يكن فأمورك تسير على ما يرام، بدونه.. ولا يزال الشىء الوحيد الذى أعجز عن تفسيره هو لماذا أخفيت الأمر عن أمك؟»

مضى أسبوعان منذ التقت لينا بكوروتييف فى الليلة الأولى لعرض مسرحية هاملت، ولكنها لاتزال تفكر فى الحديث الذى دار بينهما. «لماذا كان آسفًا من أجلى ؟ إن قلبه طيب، ولكن هذا يجعل الأمر أشد وطأة على نفسى. لولا وجود شورا لما ظننت أننى كنت أحتمل. ما كنت أصدق أن شيئًا كهذا كان يمكن أن يحدث. كانت الفتيات فى الكلية يقلن إنهن يحببن، وكان الفتيان يذهبون معهن إلى السينما، ويضحكن من كل ذلك. وأنا أيضًا ظننت أننى أحببت إيفان. كم كانت كلها أمورًا صبيانية. كما لو كان بى جرح يؤلمنى ألمًا مستمرًا، ولايندمل، وهو أشد إيلامًا اليوم مما كان فى أى وقت مضى. إن فيرا إنسانة ممتازة، لقد ساعدتنى مساعدة حقيقية. إنها لم تستطع أن تشفينى طبعًا، فليس لما أنا فيه دواء، ولكنى، على الأقل، لم أعد أشعر بالخجل، لقد جعلتنى أرى أن ليس هناك ما يخجل، ليس ثمة خطأ من جانبى».

خشيت لينا أن تلحظ أمها حالتها الذهنية، ولكنها قالت لنفسها «كيف يمكن أن يلحظ أى إنسان؟ ليس مكتوبًا على وجهى أننى لا أستطيع أن أحيا بدونه... إن لم أقل لها فلن تعرف، علاوة على أنها

لاتهتم بمثل هذه الأمور، ولكن من الصعب أن أفترق عن شورا، أنا أشد تعلقًا بها مما كنت فى أى وقت مضى، لا أتصور أن أصحو فلا أراها فى سريرها تهز أصابع قدميها وتقول، وهى تبتسم ابتسامتها الماكرة: «أنا أراك يا ماما، أنت لست نائمة.»

تبادلت أنتونينا حديثًا طويلاً مع ابنتها، وتذاكرتا طفولتها، وبكيا معًا قليلاً على سيريوجا، ثم قالت أنتونينا إنها يجب أن تعود فى اليوم التالى.

«سآخذ شورا معى.»

«لست أدرى يا أمى. من الصعب أن أستغنى عنها الآن، بصفة خاصة.».

ونظرت إليها أمها ولم تقل شيئًا.

وتحدثا عن والدها. وابتسمت أنتونينا:

«منذ فترة وجيزة حفر على الخشب خرتيتًا ، تقليد متقن . مثل الصورة التى فى الكتاب تمامًا، دعينى آخذ الطفلة معى، لينا يا حبيبتى، على الأقل حتى إجازة الربيع. سيكون أبوك سعيدًا بها. إنه غالبًا ما يشعر بالتعاسة هذه الأيام، وهو لايكف عن القول: «من المؤسف أن شورا ليست معنا.»

وافقت لينا على مضض: «فليكن . ولكنى سأجىء لرؤيتها فى خلال شهر. لماذا أنت متعجلة هكذا يا أمى ؟ ألا تستطعين أن تمكثى معنا يومًا آخر؟».

«لا أستطيع يا لينا، يا عزيزتى، الربيع مقبل، وعندنا عمل كثير: يمكن أن نقوم بالبذر، ليس هذا ما أخشاه. ولكنى قلقة على الخضروات، إن الأيدى العاملة قليلة عندنا بشكل مُخل. كانت عودة بلكين رحمة، فهو نجدة كبيرة. وابن عم راديونوف طلب المجىء. إنه يهوى اختراع القصص والتهاويل بشكل رهيب، ولكن يقوم بعمل مفيد. أما الإزعاج الحقيقى فهو شيجوف. إنه هدية جورافليوف لنا. هل تعرفين ماذا يحملنى على الاشمئزاز منه أكثر من أى شىء؟ لو افترضنا أننى ذهبت إليه وسألته: «لماذا أرسلت لنا شيجوف؟» فسيقول دون أن يطرف له جفن إن شيجوف حائز على لقب بطل العمل . يمكن أن تريه حظيرة خنازير فيقول إنها بيت يصلح للسكنى ، أو تقولين له إن طريقًا لايصلح للسيارات، فيبتسم ويقول: ولماذا، أليس طريقًا رئيسيًا؟ إن الناس طفح بهم الكيل من هذا النوع من البشر، نعم، ما أشد ما طفح الكيل! هل تذكرين داشا كارجين؟ كان ابنها ماشا يجمع لك اللوز هل تذكرين؟ قتل فى الحرب. إن داشا امرأة بارعة، وكثيرًا ما أسألها النصيحة، عندما نشرت الصحف تقرير الاجتماع الكامل للجنة المركزية سارت فى غرفة الطعام وقالت: يقولون هنا إن ثمة نقصًا فى الثروة الحيوانية فى البلاد. تنبهوا لمغزى ذلك، هذا يعنى أنه ستكون هناك وفرة فى المستقبل القريب. إنهم يثقون الآن فى الناس، وهذا هو الشىء الأساسى، لينا، عندما تأتين إلينا سترين الجميع فى حالة معنوية أفضل.»

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى اصطحبت لينا أمها وشورا إلى المحطة. وفى التاكسى نامت شورا فى الحال. واستغرقت لينا فى التفكير وفجأة سألتها أنتونينا:

ماذا تُخفين عنى يا لينا؟»

وجفلت لينا هل صحيح أن سرها مكتوب على وجهها ؟ هل أقول لها؟ لا، إن هذا شىء لن تفهمه أبدًا، عقلها يعمل بطريقة مختلفة.

وعلى أى حال فإنى لا أجرؤ، إنى أموت خجلا.»

«أنا لا أخفى شيئًا. إنما أنا آسفة فقط لأنك ذاهبة.»

وتركت أمها الموضوع عند هذا الحد، وقد توهمت لينا أنها طمأنت والدتها، ولكن أنتونينا همست لابنتها وهما فى لحظة الوداع:

«مرة أخرى ستكون أمك آخر من يعرف. لا بأس، مادمت على ما يرام. وأنت لك تفكيرك الخاص، ولست بحاجة إلى تفكير أى شخص آخر.»

١٤

فى مساء تلك الليلة التى لن ينساها جورافيلوف أبدًا، كان هو نفسه مليئًا بالثقة والبشر. كان يجوروف يخشى أن يؤدى مرض سوكولوفسكى إلى تعطيل الإنتاج، ولكن حتى كوروتييف، وهو الرجل الذى يفكر دائمًا فى الصعوبات، قد أصبح الآن متفقًا على أن الطراز الجديد سيكون معدا في أول مايو. في أول مايو سيخرج من المصنع وسيكون ذلك حدثًا له أهمية على النطاق القومى. ستتحدث عنه الصحف، بل ربما أذيع فى الراديو.

وتناول جورافليوف العشاء فى المنزل وحده، كان يأكل بشهية مفتوحة، يفرد طبقة سميكة من الزبد على قطع الخبز ويضع عليها شرائح اللحم العجالى. إن جروشا طباخة ماهرة، وابتسم فجأة. تذكر السنة التى عين فيها فى المصنع. ما أشد الفارق بين سير التحويل وبين الماكينات التى كان ينتجها المصنع حينذاك. كالفارق بين سيارة «زيم» فاخرة وبين عربات ما قبل الحرب العتيقة. وبدا له أن كل طراز جديد هو بمثابة مرحلة جديدة فى حياته، وقال

لنفسه : «نحن ننمو، لاشك فى ذلك، وإننا لننمو بشكل رائع. وعنّ له أنها ليلة لطيفة يمكن أن يرتاح فيها. والتقط مجلة (اوجونيوك) وقرأ قصة قصيرة عن مدير لأحد المحال أراد أن يتزوج طالبة فى إحدى الكليات، ولكن الموضوع لم ينته إلى شىء لأن الاثنين غيرا رأيهما. وفكر جورافليوف : «لماذا يسمحون بكتابة مثل هذه الأشياء؟ إنها ليست مسلية على الإطلاق. كان أفضل لو عرفنا شيئًا عن ذلك المدير فى عمله، لابدّ أنه كان فى عمله على قدر من الغفلة، لايحسب حسابًا للمستقبل أو يحتاط للمفاجآت. بهذا الشكل يبدو كما لو كان بوريسنكو، المختص بمحالنا. واقعًا فى حب فتاة. قال خيتروف إنه رأى أسماك رنجة هولندية تباع فى المدينة، وما زالت محالنا لاتبيع إلا الكابوريا. أعتقد أننى لابد أن أتزوج مرة أخرى. إن مدير المصنع لايمكن أن يمارس المغامرات الغرامية.» وضحك قليلاً، متخيلاً نفسه يتواعد على مقابلات غرامية، ويقدم زهورًا كما يفعل بوخوف الفنان. وفكر: «سأتمهل. يقولون إن المرأة يجب أن تكون قبيحة لتكون عاقلة، ولكن هذا كله كلام فارغ. لابد أن زوجة خيتروف كانت تلفت النظر تمامًا فى شبابها. إن لينا امرأة غير مسئولة على الإطلاق، وإنى لا أتصور كيف يمكن أن تصلح لتعليم الأطفال. تمكنت من جرفى عن الطريق فترة، وربما سبب هذا ضررًا كبيرًا للدولة. من حسن الحظ أننى لست ضعيفًا، لقد أفقت فى الوقت المناسب.»

كانت الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق. وفتح جورافليوف الراديو واستمع بنصف انتباهه. عمال المناجم فى تشيكوسلوفاكيا

أخذوا على عاتقهم مهامَّ اشتراكية جديدة، وفى بوليفيا تدهور إنتاج المعادن الثمينة تدهورًا كبيرًا، والصحافة المصرية تحبذ إقامة علاقات تجارية أوثق مع جميع البلاد الأجنبية. وبعد هذا التنبؤات الجوية. وجورافليوف عادة، يستمع إلى التنبؤات الجوية يوم السبت على الرغم من أنه لايصدقها ويقول لخيتروف: «يتنبأون بجو صحو وجاف، وهذا يعنى أننا سنبتل حتى الجلد!» ولكن اليوم هو يوم الاثنين، وهو يوم لايهتم فيه بحالة الطقس. «فى الأربع والعشرين ساعة القادمة طقس جميل، ويتساقط الثلج بمقادير متوسطة، وفى مناطق الفولجا العليا والمتوسطة يتوقع هبوب أنواء عنيفة.» - أكاذيب مرة أخرى. الجو بارد، لاشك فى ذلك، ولكن عندما كنت عائدًا من المصنع لم تكن هناك ريح على الإطلاق. واستمع إلى بعض أغان لملحنين سوفييت، وسرته إحداها إلى درجة أنه اشترك فى ترديد اللازمة:

إلى الأمام نمضى فى شجاعة

لانعرف يأسًا أو خوفًا

ثم تثاءب بصوت عال، وعلق معطفه على أحد الكراسى، وبدأ يفك رباط حذائه.

بدأت الرياح قبل الفجر بساعة، وكانت عنيفة على غير المألوف، انتزعت شجرة بتولا فضية كبيرة أمام منزل جورافليوف وأسقطتها على كشك أحد الحراس. وقفز جورافليوف من سريره، ولم يستطع أن يتبين، من أثر النوم، سبب الصوت، وحسب أن هناك من يحطم

باب منزله. لبس ملابسه بسرعة وخرج يجرى إلى الشارع. كانت السماء صافية والجو باردًا. ويمم شطر المصنع، ولكن الرياح كانت تعوقه، وتكاد تطرحه أرضًا. ورأى يجوروف بالقرب من المستشفى، وقد طارت قبعته، وارتسم الخوف على وجهه، وأخذ يصيح بصوت لايسمع. وأخيرًا سمع جورافليوف أن مجموعة الأكواخ الثلاثة قد دمرتها الرياح. وتزايدت العاصفة عنفًا. وبدا كأن عاطفة غضب عمياء يائسة تتملكها، اقتلعت الأشجار، وقلبت الأعمدة والألواح والعروق، وانتزعت الأسطح، وقذفت بالناس العاثرى الحظ فى العراء يدورون، وكأنهم ليسوا أناسًا، وإنما شظيات خشب يجرفها ثلج حاد جاف مؤلم، يضرب فى الأعين بصفير ساخر شرير.

بعدئذ قال الناس: «هذه عاصفة بكل تأكيد. بل لم يحدث أبدًا أن هبت عاصفة بمثل هذا العنف .» واحتج يرشوف العجوز قائلا: إنه شهد عاصفة أسوأ من هذه يوم زفافه عام ١٩٠٨. وكلما طافت ذكرى تلك الليلة المهولة، بعد ذلك، فى ذهن جورافليوف، انكمش فى نفسه وقد تملكه إحساس بالتشاؤم. وما كان ليصدق أبدًا أن العاصفة مرت على عدد من المناطق الأخرى بلا تحيز، مخلفة الدمار فى كل مكان، وأنه ليست ثمة قوى خفية أو غيبية وراءها، بل إن مكتب الأرصاد الجوية تنبأ بها. وبدا له كأن قوى الطبيعة ائتلفت مع الرجال المنحطين الأشرار فى مؤامرة ضده، عازمين على إسقاطه واقتلاع جذوره، كما حدث لشجرة البتولا العجوز أمام بيته:

وفى اللحظة التى خرج فيها إلى الشارع أدرك أنها الكارثة. ارتجف خوفًا على هيكل ورشة التجميع الذى لم ينته العمل فيه. وبمجرد أن رأى يجورروف فكَّر : «ستقع المسئولية فى كل هذا علىَّ. سيقولون الآن: أين الثلاثة بلوكات من المساكن، ولماذا تعطل بناؤها حتى الآن؟ وسيكون جورافليوف هو الضحية.»

ظل يعمل طيلة ذلك اليوم كشخص مسه الجنون. يجب إيجاد مساكن لتسع عائلات ورجلين كانوا يقطنون مجموعة الأكواخ (ب). واستنجد جورافليوف بيوشاكوف ، سكرتير لجنة المدينة وطلب معونته فى تدبير مساكن للمشردين، فصاح يوشاكوف: «وفيم كنت تفكر قبل اليوم؟» ولم يحاول جورافليوف أن يجد مبررًا : «لقد وضعنا بعضهم فى ورشة التجميع . ساعدنا يا ستيفان إليكسيفيتش، أرجوك.» وانتزعت الأنواء أسقف ستة منازل صغيرة، وعربات النقل تحمل الأثاث والصناديق (والبقج)، وامرأة تبكى بصوت عال: وسيمونوف عامل الصيانة يتهجم عليه قائلاً : «أنت مسرور؟» وجورافليوف يدع هذا يمر. واضطر إلى إيواء رئيس العمال فينوجرادوف هو وزوجته وأولاده وحماته العجوز، فى بيته. وذهب لمقابلة رئيس اللجنة التنفيذية للمدينة: «نريد ثلاثة أطنان من ألواح الصاج المغضن لترميم الأسطح.» وأجرى عدة اتصالات تليفونية. واشتغل فى حمل الألواح، وتسرية النساء وكل شىء يستطيعه. ولكن سواء كان يتحدث مع رئيس لجنة المدينة، أو يسرى عن الحماة العجوز، أو يحسب مع زبرتزيف عدد العائلات التى يمكن إيواؤها فى النزل مكان العمال الذين يعيشون بمفردهم فإن

ذهنه لم يكن تشغله إلاَّ فكرة واحدة: «لقد انتهيت . إنهم يحصون عدد الناس الذين شردوا، وكم أصابهم من الدمار، وكمية الأخشاب والحديد التى يريدونها، وأنا إيفان جورافليوف، أنا من الناحية الإحصائية مجرد وحدة، أنا مواطن سوفيتى شريف، وهب كل حياته لخدمة الدولة، أنا دُمرت، لقد دمرتنى العاصفة، ولايوجد من يهمه أمرى.».

مضت ستة أيام فى آلام الانتظار، وفى اليوم السابع اتصل به سكرتير لجنة المدينة تليفونيًا: «هناك رسالة لك من اللجنة المركزية، انت مطلوب لتقدم تقريرًا بشخصك.» وقد كان جورافليوف يهيئ نفسه لأسوأ الاحتمالات، ولكن المفاجأة أذهلته فوقعت السماعة من يده وتدلت بسلكها تتأرجح وتئزُّ شاكية، ولكنه لم يسمع شيئًا . «لماذا لم يتكلم يوشاكوف بنفسه؟ إنه لايريد أن يكلمنى. يا للكارثة. توقعت تحقيقًا من الوزارة ، ولكنه تقرير إلى اللجنة المركزية! تقرير، وماذا هناك يتطلب تقريرًا . لقد هبت عاصفة، وأظن أن الجميع يعرفون ذلك. لقد انتهيت. تلك هى حقيقة الأمر. ولكن أين العدالة فيه؟ هل أتحكم فى الطقس؟ لولا جهاز ضبط السبيكة المنصهرة لما تمكنَّا من إنجاز حصتنا من الإنتاج. ثم انظر ماذا وفرنا للدولة. إنهم أولا يقرون مشروع البناء، ثم يهنئوننى مرتين على تخطى الحصة الإنتاجية، وها هم الآن يغرقوننى. ولماذا؟ لمجرد أنه قد هبت عاصفة. لو لم تهب العاصفة لأبرقوا لى يهنئوننى فى أول مايو. ليس هناك منطق فى الموضوع كله. أنا لست طفلاً، سأبلغ الثامنة والثلاثين بعد قليل. وما الذى تسبب فى دمارى؟ الطقس!».

وخمن تخمينات عديدة عمن أرسل تقريرًا إلى موسكو عن تأخير بناء المساكن. «الأرجح أنه سوكولوفسكى. من المؤسف، بعد هذا، أننى لم أجهز عليه. كان من السهل أن أتخلص منه فى اللحظة المناسبة، وباستخدام الورقة الرابحة بشأن أسرته التى فى الخارج. من الخطأ دائمًا أن تكون سريع الغضب. لقد تمكن الآن من الالتجاء إلى من يستند إليهم. ولكن ، ربما لم يكن هو الواشى. يقول يجوروف إنه مازال يلازم الفراش. إذن فمن يمكن أن يكون؟ ليس زبرتزيف ، ليست عنده الجرأة. لابدَّ أنه يوشاكوف، لقد كان يرهقنى بالحديث عن تلك المنازل. ما دخله فى هذا؟ أنا المسئول عن المصنع. لا، ولكنه يجب أن يظهر حماسه، فهو يسعى إلى الترقية. ولم يصلنى خبر بعد من الوزارة. بالتأكيد، لابد أنه يوشاكوف. وقد أرشده سوكولوفسكى إلى الطريق. من الممكن جدًا أن يكون الشخص فى السرير ويظل قادرًا على اختراع الافتراءات والاتصال بلجنة المدينة تليفونيا.. ومهما يكن، فما أهمية أن يكون هذا أو ذاك، أيًا كان فإن الشخص الذى حلَّ دماره هو أنا».

فى أثناء رحلته إلى موسكو، جلس فى ديوانه مستغرقًا فى التفكير، لاينظر من النافذة، ولا حتى يرد على «الكمسارى» الذى سأله إن كان يريد فنجان شاى. وهو فى أحواله العادية يحب القطارات. فهو يلبس على الفور «بيجامة» مخططة، ويلعب الضاما أو الدومينو مع غيره من المسافرين، ويتلمظ بشفتيه على لحم دجاجة، ويحتسى كوبًا بعد آخر من الشاى، ويستمع إلى الراديو، ويتحدث عن نجاحه وأرقامه القياسية فى الإنتاج، ويضحك بصوت

عال وهو يقرأ مجلة التمساح الفكاهية. «لقد أعطوا فلانًا الفلانى علقة ساخنة». إنه، باختصار، يستمتع بحياته. أما الآن، فكل ما يراه يثير تقززه . إن مهندس السكة الحديدية الذى يشترك معه فى ديوانه ثرثار أبله، والراديو يذيع أغانى سمجة تجلب الصداع، والمحطات الخربة، والبيوت الصغيرة التى تبرز من بين أكوام الثلج كلها مناظر تثيره، بل إنه ليست هناك كميات كبيرة من الجليد، وسيكون المحصول هزيلاً. وفى عربة الأكل كانت شرائح اللحم نيئة، والشاى رائحته رنجة، والديوان جوه حار خانق، ومن النافذة يهب تيار خبيث.

فى أثناء الليل، بينما مهندس السكة الحديدية يشخر بين الحين والحين شخير النائم المستريح ، كان جورافليوف يرقد فى السرير العلوى يفكر. ويعيد التفكير، محاولا جهده أن يفهم ما حدث. ومن فرجة ستارة النافذة يتسلل خيط نور أزرق، والمهندس يسعل، ويتقلب، ثم يشعل سيجارة وجورافليوف ماض فى التفكير. وفجأة، يفهم. «كانت لينا هى بداية كل شىء. هذه المرأة السيئة الطالع حشت عقلها كله بالروايات السخيفة، وزعزعت حياة مواطن سوفييتى شريف من أساسها. وماذا سيكون مصير المصنع! لقد وعدنا بإخراج الطراز الجديد فى أول مايو، فماذا سيحدث الآن! حقيقة أن سوكولوفسكى مصمم لا بأس به، وأن كوروتييف راض لأنه غير نظام الإشارة الذى وضعه سوكولوفسكى تمامًا. النقد شىء عظيم! كل شىء على ما يرام، غير أن المصنع سيفتقد إلى العنصر التوحيدى. إن يجوروف مهندس مدرب، وقد جمع خبرة

واسعة، ولكنه ضعيف، وهو فى تدهور منذ توفيت زوجته. سيمرح الكسالى والمتسكعون بلا وازع. وكوروتييف له مستقبل، لاشك فى ذلك، ولكنه لايزال صغيرًا جدًا. أنا، ببساطة، لايمكننى أن أتصور المصنع بدونى أنا! إنه شىء لم يسمع بمثله من قبل! تصور مثل هذه الصبية المدللة تتسبب فى دمار كل هذا. لقد كان كوروتييف مصيبًا ثلاثمائة فى المائة فى تلك الكلمة التى ألقاها فى النادى: «فى اللحظة التى تنتزع فيها حجرًا واحدًا ينهار البناء كله». ما الذى تتوقع؟. الناس يربون تربية سيئة، وتنشر الكتب السمجة، ولا أحد يعرف لماذا. لقد بدأوا الآن يتحدثون عن المشاعر، وهذه هى النتيجة. إن ما تحتاجه هو خط سليم. لايمكن أن يتهمنى أحد بأننى عشت من أجل نفسى لقد وهبت حياتى للمصنع. والآن لايوجد شىء، لم يبق شىء على الإطلاق، اللهمَّ إلا أعمدة متناثرة، وزجاج مكسور، وقمامة متناثرة. تلك هى حياة جورافليوف.»

فضَّ المهندس لفافة وقدَّم لجورافليوف فطيرة:

«صناعة منزلية. زوجتى تخبزها فى الفرن».

رفض جورافليوف، فقد كان عاجزًا عن ابتلاع أى شىء. وفكَّر فى حقد: «ما الذى يدعوك إلى كل هذا السرور؟ أريد أن أعرف. إنها تخبز لك الفطائر اليوم، وغدًا تعثر على أحد المهندسين الزراعيين، وأنت، مع السلامة!.. يجلس هنا يتظارف، ويقول إن الوزارة طلبته، لابدَّ أنه يتوقع ترقية ويحسبها. ولكن لنفترض حدوث حادث فى السكة الحديدية، ثم... واحد - اثنان - ثلاثة وتفضل

خــارجًـا. لاغــرابـة فى ذلك لايـوجـد من يـسـتـحق أن يـكـون مـوضع ثقة.».

وكـان جـورافـلـيـوف، قـبل أن يـسـافـر، قـد قـال لـيـجـوروف إنه لن يـتـغـيب إلا يـومًـا أو اثـنـين، فـلـيس فى مـثل هـذه الـظـروف يـتـغـيب الإنسـان، والـطـراز الجديد يجب أن يكون معدًا فـى أول مـايو. ولـكن مضـى أسبوع ولم يعد جورافليوف. ثم طُلب يجوروف بالتليفون من المكتب الرئيسى، حيث قالوا له إن مديرًا جديدًا هـو «جولوفـانوف» قد تم تـعيينه لـلمصنـع، وإنه سيصل فى الأسبـوع الثانـى من شهر أبريل.

وأبـلـغ يـجـوروف بـريـنـين. وسـرَّ بـريـنـين: «أنـا أعـرف جـولـوفـانـوف اشتغلت معه فى سفر دلوفسك. رجل عاقل ويعرف عمله.»

«هـذا حـسـن... لا أرى سـبـبًـا يـدعـونـا إلى عـدم إخـراج الـطـراز الجديد فى أول مايو.»

«بل ستعمل هذا بالتأكيد.»

وتذكر برينين فجأة. «ولكن ماذا عن جورافليوف؟».

«من الـواضح أنهم استغنوا عن خدماته. لقد قيل لى إنهم كانوا ينوون ذلك منذ مدة طويلة، وكانوا يبحثون عن آخر يحل محله... غريبة - قال لى سوكولوفسكى فى الشتاء الماضى إنهم سيستغنون عن جـورافـلـيـوف، وتـصـورت أنه كـان يمـزح - أنت تـعـرف أن سوكولوفسكى يهوى السخرية...».

ضحك برينين وفتح صحيفة البرافدا!

لم تتحقق فى فرنسا أغلبية حكومية بعد، ولكن هذا شىء عرضى، إن صحَّ التعبير.

وخطر ببال يجوروف أن سوكولوفسكى قال، منذ مدة طويلة، إن جورافليوف سيطرد. لابدَّ أنه كان على علم بشىء ما... ثم لم يعد بعد ذلك إلى التفكير فى جورافليوف.

وقالت زوجة خيتروف لزوجها:

«شىء مزعج، كنت قد اعتدت على جورافليوف.»

ولكن خيتروف قال بعد تفكير: «لا، على الإطلاق. شىء كريه، كان جورافليوف يحب أن يوافقه الجميع. لم أكن أستطيع احتماله لايهمنى التغيير على الإطلاق. طبعًا علينا أن ننتظر لنرى أى نوع من الناس جولوفانوف هذا. على أية حال، لايمكن أن يكون أسوأ.»

ودار الحديث كله حول جولوفانوف، ولم يكلف أحد نفسه مؤنة ذكر اسم جورافليوف، إلا جروشا الخادمة، فقد ظلت تسأل متى يأتى جورافليوف لجمع متاعه، فالغرف كلها مشوشة، وهى تريد تنظيف الشقة، فالمدير الجديد متوقع وصوله قريبًا.

وكالمعتاد، تواصل صفارة المصنع انطلاقها، والمخارط صريرها، والناس أعمالهم، ومناقشاتهم، ونكاتهم، ولايحس أحد بأنه افتقد جورافليوف. أما أولئك الذين شردتهم العاصفة فقد لعنوه قليلا ثم نسوه.

وراحوا يرقبون، بابتهاج، أساسات البلوكات الثلاثة الجديدة وهى تحفر فى شارع فرونز . وقالت زوجة فينوجرادوف: «غرفتان وحمام ومطبخ، هناك حياة جديدة أمامك. كل ما نريده هو أن يسرعوا.»

أين كان جورافليوف؟ ماذا انتهى إليه أمره؟ لا أحد يذكر على الإطلاق. عاصفة تهب، وتسبب كثيرًا من المتاعب، ثم تمر، من يتذكرها بعد أن تكف عن الزئير؟

كانت تلك آخر أيام الشتاء، وأحد جانبى الشارع لايزال متجمدًا (١٢ درجة تحت الصفر)، ولكن قطرات الماء بدأت تقطر بصوت مسموع فى الجانب الآخر.

ولأول مرة منذ أصاب المرض سوكولوفسكى ، خطا من السرير، واجتاز الغرفة إلى النافذة غير المغسولة التى يسكوها الضباب ، وألقى نظرة على الثلج الرمادى الناعم وفكر: «نحن على مسيرة خطوة واحدة من الربيع».

١٥

كانت سونيا دائمة التفكير فى مستقبلها، تتخيل المصنع الذى ستعمل فيه وتتساءل إن كانت ستنجح، ولكن هذه لم تكن أكثر من أفكار غامضة وأحلام يقظة. وهى الآن، وقد علمت أنها سترسل للعمل فى بنزا،ووجهت فجأة بإدراك أن شبابها قد انتهى. صداقات الدراسة والامتحانات، والمحاضرات، والمشاجرات مع سافشنكو.. كلها أمور تنتمى للماضى. وأمامها المدينة المجهولة، والمصنع، والمسئولية الجسيمة. حقيقة أن عملها فى الكلية كان موضع إطراء، ولكن، ماذا عملت فى حياتها أكثر من الواجبات المدرسية؟ وماذا ستنتهى إليه حالها عندما تواجه الحياة العملية؟ ما أسهل أن يطيش تفكير الإنسان ويقع فى الأخطاء. لقد كشف لها التدريب العملى فى العام الأخير عن صعوبات هائلة.

قالت لوالدها: «أخاف ألا أعرف مواجهة هذه الحياة.» فحاول أن يهدئ من روعها، هكذا تبدو الأمور دائمًا، يشعر الإنسان أنه غير قادر، ثم هو يجتاز الصعاب. وهو يتذكر العام الذى قضاه فى (بنزا)

منذ ربع قرن: مدينة جميلة، حدائق كثيرة وتقاليد عريقة. كان «سالتيكوف ششدرين» يعيش فى بنزا، وخارجها توجد (تارخانى)، موطن الأديب «لرمنتوف». وابتسمت سونيا وهى تشعر بمزيد من التهيب: «ماذا يعنينى أين عاش لرمنتوف؟ حقيقة أن أشعاره تحرك المشاعر، وإن كنا نعانى مشاعر مختلفة فى أيامنا هذه. ولكن، هل يظن والدى أننى سأجلس غارقة فى أحلام اليقظة فى حدائق المدينة. إن ما يهمنى هو المصنع، وكيف سأثبت جدارتى فى العمل.»

كانت تعيش مع والديها، وتتساءل إن كان سافشنكو سيأتى لزيارتها (لم تكن تعرف حتى إلى أين سيرسلونها)، كانت تعيش فى عالمها المألوف، غير أن كل أفكارها كانت قد أفلتت منها إلى تلك المدينة النائية المبهمة، إلى بنزا.

كان عليها أن تسافر فى نهاية فبراير، ثم تأجل سفرها حيث جرى كلام عن إرسال «بوريسوف» بدلا منها وحصولها على عمل فى مصنع الآلات الزراعية. وبعد كل هذا، قيل لها أخيراً أن تسافر إلى بنزا ، وقال والدها:

«يجب أن نحتفل بهذه المناسبة.»

ولكنها رفضت وقالت: «ليس الآن. ستكون هناك مناسبات عديدة عندما أقوم بشىء من العمل وأرجع فى إجازة. سيكون ذلك أفضل.»

تألمت الأم لرحيل سونيا: «كيف ستتمكن من الحياة هناك؟ لم يكن هذا السفر على هواها. أنا مقتنعة أنها ليست عديمة الاهتمام

بسافشنكو، إنما هى تخفى مشاعرها، وهو فتى طيب. أتمنى أن يتزوجا. ولكن بدلا من ذلك ها هى ترحل، وهى لا تزال صغيرة جدًا. وهو يمكث هنا، هوالآن صغير جدًا. من السهل التأثير عليه. أتمنى أن يتفاهما. عندئذ لن أشعر بمثل هذا القلق.».

وقبل الرحيل بأيام، أحست الأم أنها لم تعد تستطيع الاحتمال: «سونيا، لماذا لايأتى سانكو لزيارتك؟ لا أظن أنكما تشاجرتما، أليس كذلك؟».

«ولماذا أتشاجر معه. إنه مشغول فحسب.»

«هل يعرف أنك ستسافرين؟»

«طبعًا يعرف. قابلته فى الشارع منذ أيام. قال إنه كان يريد زيارة أبى، ولكن عنده عمل كثير جدًا.»

واحمر وجه سونيا: ما أبرع الكذب الذى تعلمته. «هل يمكن تصور أننى لم أره منذ تلك الليلة؟. إنه لم يكترث حتى بمعرفة إلى أين أذهب. لايهمه أمرى على الإطلاق. كنت أتصور هذا،. ولكنى لن أقول لأمى مهما يكن الأمر. كما أن هذا ليس من شأنها.» وأضافت:

«لماذا توالين سؤالى عنه؟ أنا أتفق معك فى أنه إنسان لطيف، ولكنه ليس الرجل الأمثل فى نظرى. شىء لايسر أن يهتم بك رجل لاتنجذبين إليه.»

أمضى أبوها أندريه بوخوف ليلة أسوأ من أية ليلة شهدها من قبل. أحس بأنه يموت، وقال ذهنه الوداع لكل من هو عزيز عليه.

جلس فى سريره وأخذ يحملق فى البقع المشوشة على زجاج النافذة، وتساءل وفى قلبه إشفاق لايكاد يحتمله: «مسكينة يا ناديا! الآن، وبعد أن تذهب سونيا، كيف ستحتمل ذلك وحدها؟»

حرص على ألا يوقظها، ولم يقل لها شيئًا فى الصباح، وإنما ظل ملازمًا الفراش حتى الظهر، ثم حاول جهده أن ينهض، ولكنه تبين أن عليه أن يرقد، وهكذا لم يذهب لرؤية سيريوجا أبدًا، على الرغم من أنه وعد بذلك.

فجأة ألقى أندريه نظرة على نفسه من خارجها واستغرق فى التفكير: «ربما سونيا فى الحقيقة تستند إلى شىء من المنطق فى السخرية منى. يبدو من المضحك فعلا أن أبذل محاولات مستميتة للنهوض والذهاب لرؤية سيريوجا. إن الدنيا تبدو صغيرة حقًا... ولكن ماذا يجب أن تعمل ؟ عليك أن تقاتل. ولن تستطيع الحياة إن لم تفعل. عندما كنت فى شبابى اعتدت أن أقاتل كتفًا إلى كتف مع كل الآخرين. ولم يكن ذلك فى أثناء الثورة فحسب، ولكن قبلها بزمن . وبعد ذلك أيضًا، كنت مناضلا فى عملى. وكذلك مع نفسى، ولا أحد يعرف ذلك. مهما يكن من شىء، فقد كانت هناك لطمات قاسية وأحزان وفشل وشكوك. قد ناضلت لأحافظ على ثقتى فى البشر. وأنا ما زلت أقاتل، حتى وأنا أتكلم مع سيريوجا، محاولا أن أنقل إليه شيئًا من خبرتى ومشاعرى وأفكارى. أنا فى قتال ضد الموت. إنه يحاصرنى، يحدق بى، ويتربص بى. فى أثناء الليل، فى الهدوء والظلام ، يحاول أن يغلبنى وأنا أناضل بأقصى ما أستطيع

من قوة. عندما تتقدم السن بالإنسان يجف عوده وينكمش، يرى ذهنه آفاقًا أبعد، ولكن دنياه تضيق وتطبق عليه. أنا أحاول أن أفكر فى حياة الآخرين ، علىَّ أن أقتحم حدود هذه الغرفة التى أصطرع فيها كل ليلة مع الموت وأنا وحيد. ولكن حتى فى هذا، فإنى لا أفعل إلا ما كنت أفعله طيلة حياتى. إن سونيا ستدرك هذا بعد قليل، وعبثًا أحاول الشرح.».

وفى الأسابيع الأخيرة اختلف موقفه من فولوديا. كان قد اعتاد أن يكون حانقًا عليه، ولكنه الآن يفكر، وهو ينظر فى عينى ابنه الساخرتين : «فولوديا يا مسكين. عنده مخ ومواهب، وهو ليس ولدًا سيئًا، ولكن هناك شيئًا ينقصه. إنه يسير فى حياته مرتخيًا مثل شريد عجوز.» وقد تيقن الأب أنه عاجز عن التأثير فى آرائه فلم يعد يتناقش معه أو يلقى بالا إلى نكاته غير المبهجة، وإنما هو يحاول بين حين وآخر، بكلمة عابرة ، أو دون كلمات، أن يشعره بشىء من حنانه . وأحس فولوديا بذلك، وكان حريصًا على ألا يظهر تأثره.

وتبادل أندريه مناقشة طويلة أخرى مع ابنته سونيا بعد أن اعترفت له بتهيبها من عملها الجديد. فى أثناء هذا الحديث أيضًا جاءت لحظات افتقد فيها الاثنان القدرة على التفاهم. استوقفته سونيا فجأة: «لماذا لاتتوقف عن الكلام عن الناس؟ الناس لايخيفوننى. وحتى لو حدث أن كان رئيسى فى العمل من نوع جورافليوف فلن يكون هذا هو ما يخيف... وإنما هو الانتقال من

الكتب الدراسية إلى الآلات والماكينات، كيف أواجه هذا؟ تلك هى المشكلة.» وأحس بوخوف بالحيرة المطلقة. ولكن سرعان ما تعود بينهما تلك الصلة التى يحس بها كل منهما فى أعماقه، ويرعاها. ولعل ما سهل الأمر هو أنهما كانا على وعى بأنهما سيفترقان بعد أيام قليلة، وكل منهما يفكر فى أسى: هل سيقدر لنا أن نلتقى مرة أخرى؟.

لقد أقنع ذلك الحديث بوخوف بأن سلوك سونيا الجاف العملى كان رداء يخفى قلبًا فيه عاطفة حية، وحياء، وكبرياء.

وعشية السفر، كانت سونيا جالسة فى غرفتها. وكانت الغرفة نظيفة منسقة، وتبدو خالية. لقد أحرقت المذكرات التى كانت تكتبها أيام الدراسة، والخطابات التى عندها من أصدقاء الكلية ومن سافشنكو، ورمت كثيرًا من الأشياء التافهة التى كانت عزيزة عليها حتى وقت قريب، لارتباطها بمناسبات خاصة فى حياتها الماضية. وكان المنزل هادئًا، وناديا يجوروفنا أمها فى الخارج تشترى بعض الحاجات. وفولوديا لايوجد بالمنزل إلا فيما ندر، كان قد كلف بزخرفة قاعة نادى المشتغلين فى التموين وأصاخت سونيا السمع. من يوجد مع الوالد؟ جورخوف؟ لا، إن الصوت مختلف.

قالت الصوت الذى لاتعرفه: «أندريه إيفانوفيتش، أرجو أن تستطيع فهم ما حدث. عندما قالت لى ذلك أحسست بخوف شديد تخيلت معه أنى لن أستطيع مواصلة الحياة. ولكنى لم ألبث أن ضحكت من الموضوع وأبعدته عن ذهنى، فعندى اهتمامات أخرى،

وعادت الأمور كلها عادية تصورت ببساطة أنه كان هناك وهم، وأن الوهم قد اختفى. ثم الآن وفجأة، عاد كل شىء ثانية ولغير ما سبب أعرفه».

«حدث هذا لى أكثر من مرة» (كان هذا هو صوت أبيها).

«يقولون إن الإنسان سريع النسيان. ولكن هذا ليس صحيحًا. ينسى الإنسان عندما يريد أن ينسى، ولكن ما هو حقيقى يبقى فى ذاكرته حتى النهاية وأستطيع أن أقول الآن حتى الممات...».

اشتد بسونيا الفضول فنظرت فى فرجة الباب نصف المفتوح. رأت فتى مراهقًا، أحمر الشعر، منمش البشرة، يلبس نظارة سميكة. ولحظها بوخوف.

«أهذه أنت يا سونيا؟ تعالى لتتعارفا. هذا صديقى الشاب، سيريوجا. وهذه ابنتى، إنها مهندسة ميكانيكية.»

عادت سونيا إلى غرفتها: «ما أعجبه. كان يتحدث إلى هذا الفتى وكأنه يخاطب رجلا مكتملا. يا له من منظر مضحك. لا أظن أنه تحدث إلىَّ أبدًا بمثل هذه اللهجة. اعتقدت أنه أحد أصدقائه القدامى.» ثم استغرقت فى التفكير: «ربما هو على حق. كان هذا الفتى ينظر إليه بإيمان وإعجاب عظيمين. فى تلك المرة التى تناقشنا فيها قال والدى إنه يريد أن ينقل شيئًا من نفسه إلى الآخرين. لم يستطع هذا مع فولوديا. وأنا كنت دائمًا أتظاهر بأنى لست فى حاجة إلى تعلم شىء، فقدكانت لى وجهة نظرى. من ثمَّ فقد اهتم بتدريب هؤلاء الناشئين... لقد كنت كثيرًا ما أسأله كيف

أتصرف، لكنى لم أستطع سؤاله عما أفعل مع سافشنكو. فهذا، بداءة، شىء مهين. ثم إن هذا من الأمور التى لايستطيع إنسان أن يقدم نصيحة بشأنها. على أية حال، فلم يعد لشىء من هذا مناسبة الآن أنا راحلة، وسافشنكو لايحبنى. لقد صفيت المشكلة. لقد حرقت تلك الصورة التى التقطت لنا معًا. أريد أن أبدأ حياة جديدة دون أنقاض تتعثر فى أذيالى.»

وفى يوم السفر صحبتها أمها وفولوديا إلى المحطة، ولزم والدها البيت. فقد قالت سونيا بحزم إن المحطة بعيدة والبرد قارس، ولن يسبب هذا له إلا إرهاقًا . وإذا خشيت أن تتأخر عن موعد القطار، فقد وصلوا مبكرين نحو ساعة.

إن سونيا الآن تحس بانشراح وخفة. وفكر ت أن كثيرًا من الصعاب التى أشفقت منها ليست إلا من اختراعها، إن عندها شخصيتها وتجربتها ، وستواجه الحياة كما ينبغى.

فى غرفة الانتظار، ذات الجو المكتوم، كان طفل يعول، وفولوديا يتندر بنكات مقبضة، وأمه تخفى اضطرابها بالثرثرة عن الفطائر التى تصنع فى المنزل. كانت تنوى أن تخبز منها كمية لرحلة سونيا ولكن شيئًا من سوء الحظ تسبب فى أن العجين لم يخمر.

«القطار ١٧٦ على الرصيف، القطار المسافر إلى ريتشيفووكر سانوف وتامبوف. ليتوجه المسافرون ليأخذوا أماكنهم فيه.»

قالت سونيا: «ريتشيفو ـ هذا قطارى.»

توقفت سونيا وهى فى منتصف الطريق على الرصيف، وقد ارتسمت على وجهها نظرة خوف. وصاحت أمها فى سرور:

«لقد جئت لتوديعها، كم هذا لطيف منك.»

وسار سافشنكو معهم.

لم تقل سونيا شيئًا ، وتأبط فولوديا ذراع أمه:

«تعالى يا أمى، لنلقى نظرة على القطار.»

ومشيا بعيدًا.

«كيف عرفت أننى راحلة؟».

«أخوك قال لى.»

«فهمت. لماذا لم تأت لزيارتى؟»

«حسبت أنك لاتريدين. أليس كذلك؟».

«ليس هذا ما قلت. لم يكن لطيفًا منك أنك لم تأت.»

«فى آخر مرة تكلمت بطريقة... حسبت أنك كنت لاتريدين.»

«وهل كنت تريد أنت؟»

«لماذا تسألين؟ عندما وقفنا عند البوابة...»

«لا داعى للشجار فى اللحظه الأخيرة. ظننت أنك فهمت. لماذا لم تأت عندما طلبت منك فى تلك المرة؟».

«كان مطلبك أن نتناول الشاى مع الآخرين جميعًا.»

«وأنت تفترض أننى دائمًا أعنى ما أقول؟».

«سونيا، متى تعودين فى إجازة؟»

«لابد أنك جننت. كيف آخذ إجازة؟ أنا مازلت فى أول البداية.»

«أنت تعرفين أنى لم آخذ إجازة فى العام الماضى. سأسافر إلى بنزا»

«بغير ما مسوغ... متى تريد أن تأخذ إجازتك؟»

«قريبًا. إذن ، فأنت تمنعيننى من المجىء؟».

«ماذا يمكن أن تعمل طول اليوم؟ سيصيبك الضجر الشديد. (بنزا) ليست كالقوقاز.»

«سأجىء لرؤيتك، لا لرؤية المدينة فقط.»

وكان فولوديا وأمه قد عادا الآن، بعد أن ألقيا نظرة على القطار، وقالت نادجدا إنه قطار طويل جدًا. واقترحت، بعد نظرة على سونيا، أن يتمشى قليلا مرة أخرى، فالبرد شديد على الواقفين.

سأل سافشنكو فى خجل:

«سونيا، أنت لن تنسينى؟»

«ينسى الإنسان ما لاأهمية له، أما الأشياء المهمة فتبقى.»

«وأنت تعتبرين هذا شيئًا مهمًا؟»

«كيف يمكن أن أعرف؟ لم أختبره بعد، ربما نسيت!»

«ولكن كيف تفكرين الآن، فى هذه اللحظة؟»

نظرت سونيا إليه، وعبست عيناها. وشكرت الظروف لوجود أناس كثيرين، وإلا لعجزت عن أن تتمالك نفسها ولقبّلته!

قال فولوديا: «ألا تسمعين؟ يقول الكمسارى إنه ينبغى الصعود إلى القطار.»

قبلت أمها، ثم قبلت فولوديا. ووقف سافشنكو ينتظر أن تقول شيئًا، فمدت إليه يدها وعيناها تشعان:

«سأكتب... هل تسمعيننى يا أمى. بمجرد وصولى. قبلى لى والدى.»

سافشنكو الآن فى الأوتوبيس فى طريقه إلى المصنع. كان يشعر بالارتباك. إن سونيا لم تقل له شيئًا ، ولم يعرف إن كان الأمر قد انتهى بشجار أو بصلح . بدت، فى لحظة وكأنها تقول إنها ستكتب إليه، ولكن من الواضح أنها كانت تعنى أمها. واضح أنها لاتريدنى. عندما قلت إننى سأسافر إلى بنزا قالت: «بغير ما مسوغ»، ومع ذلك فقد نظرت إلىَّ نظرة لم أملك معها منع نفسى من تقبيلها إلا بصعوبة. أنا فى هذه الأيام لاأستطيع التوقف عن التفكير فيها. هذا كله «رومانسية»، كما يقول كوروتييف، ولكن من السهل عليه أن يتكلم، فهو رجل عجوز، لا، ليس عجوزًا بالدقة، ولكنه متقدم فى السن، لابدَّ أنه يقترب من الأربعين، وفى مثل سنه لايفكر الإنسان فى مثل هذه الأشياء. لا أستطيع أن أصرف ذهنى عن التفكير فيها. والشىء الغريب هو أنه بينما يجب أن أشعر بالتعاسة لأن

الأمور لاتنتهى بيننا إلى شىء محدد، فإننى على العكس، أحس بالسعادة. بل إن توديع صديق ينبغى أن يشعرك بالحزن، ومع ذلك فأنا، فى هذه اللحظة، أشعر بالابتهاج!... غير أننى واثق تمامًا من أننى أحبها. فلماذا أشعر بالابتهاج، إذن؟ هناك أسباب عديدة طبعًا. يقول كوروتييف إننى ناجح فى عملى. وذلك أمر بالغ الأهمية. مصنعنا رائع. أحب أن أملأ ناظرىَّ منه كمن يتأمله فى ألبوم صور. هناك أولا (سير التحويل)، وهذا من السهل إنجازه، أتحقق من هذا كل يوم، ثم مصنع آخر تصنع فيه الآلات والجرارات، ثم تندفع الجرارات الضخمة إلى السهوب، ثم القمح، مقادير هائلة من القمح، ثم تزداد البلاد قوة وغنى، ثم الشيوعية... أى إنسان يجب أن يشعر بالسعادة فى مثل هذا المصنع. وثمة أشياء أخرى: هناك هاملت. وها هو الشتاء ينتهى، وسرعان ما يأتى الربيع. وهناك سونيا. هل تحبنى ؟ لا أعرف. ولكنها موجودة، وقد كنت أتكلم معها منذ لحظات، وهذا رائع فى حدِّ ذاته... هل ستكتب لى؟ إن كتبت سافرت إلى (بنزا) ، وإن لم تكتب فلن أسافر، مهما يكن الأمر. لن آخذ إجازة على الإطلاق... الآن، يجب أن أذهب إلى كوروتييف لأقول له إن نظام اللحام على ما يرام، لن تحدث مفاجآت أخرى، عملنا لضبطه طيلة يوم أمس. وإنما يستحسن أن يكون هندامى مناسبًا لكيلا يلحظ شيئًا.»

وأخرج مشطًا وهو خارج غرفة كوروتييف، ونظر فى المرآة، وهذب شعره المنفوش. وكان منظر عينيه غريبًا، كانتا محدقتين .

«هذا من فرط التفكير فى سونيا. الآن، سأفكر فى اللحام ، فتعود عيناى إلى محجريهما.».

ظلت سونيا واقفة فى الممر. كانت تعيش فى العالم الذى خلفته لتوها: «قال إنه سيأتى ... حسن، إن كان ينوى هذا حقًا، فليأت... كان والدى على حق. ينسى الإنسان ما هو بحاجة إلى نسيانه. ربما ينسانى بعد شهر. يجب أن أكتب لأقول له أن يؤجل مجيئه إلى الصيف إن كان ينوى المجىء حقًا. ولكنه سيأتى إن كتبت. من الأفضل ألا أبتَّ فى شىء، دعى الأمور تقرر نفسها... الثلج رمادى، هكذا يجب أن يكون، سرعان ما يأتى شهر أبريل... وأعتقد أن الأمور ستكون على ما يرام فى (بنزا).»

دخلت ديوانها. وكان فيه رجل بدين يلبس جاكتة بلون الصدأ ويتحدث إلى طبيب عسكرى: «عندنا، فى ورشنا، نظام رائع للتهوية.»

وفكرت سونيا: «ربما جاء هذا الرجل من المصنع الذى سأعمل فيه. وسيكون هذا من حسن الحظ، سأعرف شيئًا عنه الآن. ترى، أى نوع من الماكينات هناك؟ ...لا، إنه يتحدث عن مصنع ساعات، ليس هذا مصنعى... ما أبشع السجائر التى يدخنها... مهما يكن، فقد كان مجىء سافشنكو شيئًا سارًا... من المضحك أن الساعة لاتزال الثالثة وأنا أشعر برغبة فى النوم، لم أنم بما فيه الكفاية فى الليلة الماضية، بسبب القلق... يجب أن أغير القطار فى محطة رتيشيفو، ولكن هناك وقتا طويلاً قبل أن نصل إلى رتيشيفو...».

نامت سونيا، ورأسها مائل قليلا، ووجهها عليه سلام وسعادة. وكان الرجل الذى يلبس جاكتة بلون الصدأ يقول: إنهم كانوا ينوون تركيب مجموعة من «دش» الحمامات، ولكنهم عدلوا لأن الميزانية اقتطعت، وإذا به يتوقف فجأة ويستغرق فى النظر إليها.

وزحف القطار الطويل لاهثًا، بطيئًا مجدا، بين الحقول اللانهائية المغطاة بملاءة من ثلج الربيع الناعم.

١٦

ألقى سوكولوفسكى نظرة على ساعته. الساعة الرابعة. لايزال الوقت مبكرًا جدًا...

كان قد مضى أسبوع منذ عودته إلى العمل، ولكن أعصابه كانت محطمة منذ المرض الذى ألمَّ به. قل نومه عما كان فى أى وقت مضى، ولم تجد معه أية أدوية.

بينما كانت حرارته مرتفعة عادت إلى ذاكرته تفاصيل قصة فولوديا عن جورافليوف. لم يشعر بالدهشة أو السخط. وفكر: «ها هى القصة تعود مرة أخرى.» وتثاءب بقلق . وكان هو نفسه متعجبًا من أمر هدوئه. ومهما يكن، فإن تصرف جورافليوف مشين. بعد ست سنوات من العمل معًا... «ولكن ما الفرق؟ لم يعد شىء يدهشنى. وكما يمكن أن تقول فيرا: لقد تكوَّنت عندى حصانة.»

وعندما أبلغه فولوديا خبر نقل جورافليوف اكتفى بأن قال: «مفهوم.. حسن، لقد كان هذا متوقعًا.» ولم يسأله فولوديا عن الأسباب التى جعلته يتبين ذلك، لقد كان ساذجًا، على الرغم من

كل سخريته المرة الظاهرة، تمامًا مثل والده، الاثنان يؤمنان بالعدالة.

كان سوكولوفسكى قد لزم الفراش أسبوعين . وفى تلك الأثناء كانت فيرا تأتى لعيادته كل صباح. وفى المساء، كان ينتظر عودتها بارغ الصبر، ولكنها كانت قد قالت منذ وقت مبكر: «ينبغى ألا تتكلم»، وهو لم يخاطر أبدًا، منذ ذلك اليوم، بالحديث إليها عما فى قلبه. وكان فولوديا يزوره بين حين وآخر ليبهجه ويتحدث عن التفاهات. وذات يوم بدأ سوكولوفسكى مناقشة عن المدرسة الأسبانية فى الفن، فابتسم فولوديا: «كانت المهمة الأخيرة التى كلفت بها هى رسم دجاج من سلالات ممتازة. وأنا الآن أرسم مواطنة شابة، مليئة بالبهجة والحياة، وفى يدها صندوق شيكولاته من أنواع مختلفة، من أغلى صنف طبعًا. ومن المهم تصوير كل نوع من الحلوى بالدقة. وتريدنى بعد هذا، أن أفكر فى «جويا»».

كانت الأيام طويلة بلا عمل ، ولا نوم، ولاناس. وطافت أفكار سوكولوفسكى بأشياء كثيرة: بشبابه، ونظام الإشارة، وأصدقائه الذين ماتوا فى الحرب، ومارى، وأساليب اللحام الجديدة، وجورافليوف، والحياة على الكواكب الأخرى، والعمليات التى يجريها فيلاتوف، ويقظة آسيا، والنضال من أجل السلام. ولكن، أيًا كان الموضوع الذى يفكر فيه، فإن ذهنه كان يعود إلى فيرا دائمًا . تذكر كيف رأى عينيها فى لحظة صحوة بين نوبات الحمى. كانت العينان تشعان بنظرة غريبة، ولم يعد فى مقدور أى شىء تقوله فيرا الآن

أن يعيده تماماً إلى رشده. وهو يسأل نفسه أحياناً: «هل هيِّئ لى؟ كنت فى حالة حُمى مخيفة، فهل حقّاً رأيتها حينذاك ؟ أو تُرانى لم أرها إلا فيما بعد، عندما أصبحت قادراً على سماع وتفهم صوتها العادى وتعبيرها العملى؟ لا أعتقد. أنا واثق من أنهما كانتا عينيها، وأن ذلك الحنان كان منهما.»

الساعة الرابعة والنصف. وبدأ سوكولوفسكى يشعر بحنين متزايد. اليوم، ولأول مرة منذ مرضه، سيذهب لرؤيتها. سيشكرها على رعايتها إياه. وستسأله عن صحته وتحاول أن تواصل دورها طبيبة لفترة قصيرة أخرى، وبعد ذلك ستصمت، وهو أيضاً لن يجد ما يقوله. «لا، هذا لن يصلح، الصمت أسوأ من أى شىء، يجب أن أملأ الغرفة كلاماً باستمرار. سأحدثها عن كلبى فومكا حين مزَّق بنطلون بوخوف، وعن بوخوف وهو يرسم شيكولاته من أنواع مختلفة. وبتلك المناسبة أو دون مناسبة سأبدأ الحديث عن فن النحت الصينى فى عصر أسرة (تانج). ثم، ربما تتحدث فيرا أيضاً عن أى شىء ... قالت إن زوجة جورافليوف السابقة تسكن معها إلينا يجوروفنا، أو ربما يكون اسمها إلينا بوريسوفنا؟ وقد تكون موجودة هناك. وسيجعل وجودها الأمر كله أكثر بساطة حديث عادى فى أثناء تناول الشاى. ثم يأتى أحد لاستدعاء فيرا، وإن لم تستدع فإنى أنهض لأقول إلى اللقاء. لن يكون ثمة ما يستوجب البقاء... ولكن لماذا رأيتها تنظر إلىَّ وفى عينيها مثل ذلك التعبير؟ لن يمحو أى شىء ذلك أبداً. ومهما يكن، فهل نحن حقّاً بحاجة إلى كلمات، وتفسيرات، ومواقف فيما بيننا. فى المساء تختفى جميع

الألوان الزاهية، ويبدو كأن كل شيء قد أخرس وأصبح بليداً. ولكن، كم للسكون من أعماق.. تدير الرأس...»

نهض من سريره في الخامسة. وتمطى فومكا وزحف على بطنه، مقدِّمًا تحية الصباح. إنه ليس كأى كلب مهذب، يتمسح أو يقفز، بابتهاج أو يبصبص بذنبه، وإنما هو يكتفى بضغط جسمه إلى قدمى سوكولوفسكى ، والتطلع إليه بعينين مليئتين بالحب والألم والخوف.

وسأل سوكولوفسكى «ماذا دهاك أيها المسكين ؟ هل دهمك كابوس؟ هل ضربوك فى الحلم؟»

وظل فومكا يحدق فيه دون أن يطرف، وعيناه حزينتان كعينى إنسان. «هذا البائس التعس، يريد أن يقولى لى شيئًا . من المخجل ألا يملك القدرة على الكلام. أظن أنهم أعطوه علقة شديدة. وهذا الأبله لم يصبح أكثر تعقلا من بوم مجيئه بأى قدر. لا يزال حذرًا إلى حدٍّ الجنون. حسن أنِّى أمسكت به فى اللحظة المناسبة وهو يثب على «باريخينا». يقول يوخوف إننى يجب أن أتخلص منه وإلا فإنه سيجر علىَّ المتاعب. ولكن من الذى سيأخذه ؟ سيطلقون عليه الرصاص فى الحال. أنت ترى أنه يثق فىَّ، من الطريقة التى ينظر بها إلىَّ. وأنا أدرك أن الحياة هى التى شوهته، وليس أى شخص قادرًا على إدراك ذلك.»

وفى السادسة، كان سوكولوفسكى قد انتهى من حلاقة لحيته وأخذ فومكا إلى الخارج. ثم دخل ليرى إن كانت الصحيفة قد

جاءت، ولكنه رأى منها بدلا، غلافًا طويلا، قليل العرض، يبرز من صندوق البريد، إنه خطاب من مارى.

والدى العزيز:

هنئنى. حدثت تغيرات كبيرة فى حياتى الخاصة. لم يصادفنى الحظ فى باريس، فهناك أشياء مستحدثة كثيرة جدًا، ومن الصعب أن تجد جمهورًا. حاولت أن أقدم عرضًا، واستدنت، وأخيرًا عدت إلى بروكسل. وهنا نظموا عرضًا من أجلى. وقام زوجى، «فيلكس فاندرفالد»، وهو ناقد فنى، بالكتابة عن رقصاتى فى صحيفة مسائية. هكذا التقينا، وتقدم هو إلى خطبتى ، وأنا قبلت. وهو، طبعًا، لايستطيع الاعتماد فى حياته على الكتابة فقط، فعليه أن يقضى النهار كله يعمل فى البنك، ولكنه شخص حساس، ونحن متفاهمان تمامًا. وقد أخبرنى أخيرًا أن هناك صحيفة مهمة قد ترسله للعمل مراسلا لها فى موسكو، ليكتب عن المسرح فى موسكو، وعن إمكانيات التجارة بين الشرق والغرب. وهذا، طبعًا لايزال أمرًا غير مؤكد على الإطلاق، ولكنى أحلم بالسفر معه، فسيتيح لى هذا فرصة لرؤيتك وتقديم رقصاتى لجمهور موسكو. وفيلكس بعيد عن أن يكون شيوعيًا، ولكنه إنسان على درجة عالية من التكامل النقى كالبللور. وهو ينصت لما أقول، وأنا لا أنسى أبدًا أننى ولدت فى روسيا. أنا لا أظن أن آرائى تتفق تمامًا مع آرائك ولكنى عمومًا من العاطفيين. أنا لا أفهم، على الإطلاق، كيف تعيشون هناك، ولكنى إذا جئت مع فيلكس، فسأفهم على الفور.

فمهما يكن، أنا أعرف اللغة، وهذا هو أهم شىء. وعلى ذلك، فإن لم تحدث أية خلافات دبلوماسية، وإذا لم تغير الصحيفة رأيها، فربَّما يرى كل منا الآخر قريبًا.

ابنتك

مارى فاندرفالد

وقلب سوكولوفسكى الورقة البنفسجية الفاتحة بين أصابعه مرات عديدة، وأطال النظر فى عجب إلى صورة مارى الفوتوغرافية. إن فيها شيئًا من أمها...

السادسة والنصف. لايزال الوقت مبكرًا جدًّا على الذهاب إلى العمل. وتناول كتابًا وفتحه، حياة «بنفنيتو تشللينى.». ثم أغلقه ثانية، وأدهش نفسه بالجلوس والكتابة:

عزيزتى مارى:

أهنئك. إذا جئت إلى موسكو فسأحاول أن أراك. لا أستطيع أن أتصور أى نوع من الناس تكونين. فى اللقطة القديمة التى صورتك طالبة، تبينت فيك شيئًا، ولكن اللقطة الأخرى، فى الزى الإغريقى، لم أتفهم منها شيئًا على الإطلاق. وأنا كذلك، لم أفهم خطابك. أنت تتكلمين بخفة شديدة عن أشياء كبيرة. أفهم أنك تتمنين لو ترين موسكو. وأشك فى إمكان تحقيق مشروعك عن الرقص، فعندنا فرق باليه جيدة، لابد أنك قد سمعت عنها بالتأكيد. ولاشك أن رؤية عالم مختلف سيكون شيئًا ممتعًا ومفيدًا لك أنت وزوجك، إن كان إنسانًا شريفًا. ولكن لاتظنى أنك ستفهمين

بسهولة لمجرد أنك ولدت فى موسكو. إنى لأذكرك عندما كنت طفلة صغيرة تلعبين على أكوام الرمل فى شارع جوجول، وكان يلعب معك أطفال آخرون. إن هؤلاء الأطفال يعرفون كيف نعيش هنا، ولماذا، لقد نشأوا هنا، واشتغلوا هنا، وكابدوا كثيرًا من الأحزان، والأفراح، والآمال. ليست غلطتك أن أخذتك أمك إلى بلجيكا، ولكن يجب أن تنظرى إلى هذا الأمر بتعقل، يجب أن تتأكدى من أنك ستشعرين فى بلادنا بأنك سائحة، بأنك غريبة. أنت نفسك تقولين إنك لا تفهمين كيف نعيش. وحتى لو أمضيت هنا بعض الوقت، وإذا رأيت كيف أعمل، وكيف يعمل رفاقى، ورأيت ماذا يسعدنا وماذا يثير سخطنا، فإنك ستظلين لا تفهمين شيئًا. إنه عالم مختلف، مختلف تمام الاختلاف! لماذا بدأت الحكاية كلها هنا، وليس فى بروكسل مثلا؟ ربما لأن خبزنا كان أقل، وقلبنا أكبر. الموضوع كله شديد التعقيد، إنه جزء من حياة شاقة طويلة. فكرى فيه قليلا. أحيانًا أنسى خطاباتك وزيك وأفكر ببساطة: «ابنتى،» وأناديك ماشا الصغيرة. تحدث المعجزات أحيانًا، وتحت القشرة الصدفية ربما يختبئ...

وضع سوكولوفسكى القلم، وحملق مدهوشًا فى الورقة الطويلة المليئة بالكتابة الضيقة. «لقد فقدت صوابى... لمن أكتب؟ ولماذا؟ كيف يمكن أن أشرح لها أى شىء؟ وكأنها بحاجة إلى توجيهاتى. دعها تعش فى سلام مع فيلكس ، إن كان رجلا شريفًا حقًا، وإن كان يذهب إلى البنك لأن عليه أن يعمل لا لكى يضارب فى السوق... سأرسل لها برقية، لمجرد التهنئة، هذا يكفى.»

ومزق الخطاب الذى لم ينته، قطعًا صغيرة.

وبعد ذلك بساعة كان يتناقش مع برينين فى مشروعه، وقد كفَّ عن التفكير فى مارى، وفى الهوة التى تفصل بين عالميهما. وأمامه نموذج المخرطة المصنوعة وفق تصميم برينين. كانت أجزاء منها جيدة، ولكن كانت هناك بعض مواطن الضعف. إن برينين ينقصه الخيال. وهذا الصمام الذى لافائدة منه ليس إلا من متخلفات طراز قديم... ونسى سوكولوفسكى كل شىء حين انهمك فى عمله المحبَّب.

ذهب لزيارة فيرا فى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم. كان قد راوده خوف من أن تكون إلينا بوريسوفنا أو هل اسمها إلينا يجور وفنا؟ هناك، ولكنها كانت فى الخارج. وحسب أن فيرا بدا عليها الضيق منه لأنه جاء، وحيته ببرود.

«ربما أنت مشغولة؟»

«لا.»

عن أى شىء يمكن أن يتكلم؟ لم يكن هناك، ببساطة، أى موضوع للحديث، وتبين قد تأخر جدًا فى العثور على موضوع، بل ربما كان من الأفضل وجود لينا. «لافرق. لقد كنا نتكلم فى الأيام الماضية، وكان الصمت أحيانًا ، ولكننا كنا نتكلم، أما الآن.. فلا شىء. إلى متى يمكن أن تظل جالسًا فى صمت؟»

حاول أن يبدأ حديثًا:

«كان بوخوف الرسام يتردد على زيارتى عندما كنت مريضًا. وفى آخر مرة كنَّا نتكلم عن جويا. له لوحتان (الشباب) و(العمر). والموت فى صورة بواب يكنس فناء، يكنس بمقشة أولئك الذين عاشوا مدة طويلة... حسن، عندئذ قال لى بوخوف إن عليه أن يرسم شيكولاته من أنواع مختلفة. إنه إنسان مشوش تمامًا ، بوخوف. لم يكبر. آسف لأن ذلك لم يكن هو الموضوع الذى أتحدث عنه... إنما قصدت أن أقول إننى سألته عن ليوناردو...»

توقف فى منتصف الجملة. فمهما يكن، لم يكن الموضوع مسليًا أو ممتعًا، عن الأصباغ والألوان التى كان يستخدمها ليوناردو. فيرا ستتضايق، وستقول إنها متعبة. عدم الكلام أفضل.

عدَّلت فيرا المفرش على المنضدة، ونقلت المصباح من مكانه، وجذبت الستارة إلى أسفل ثم أعادتها إلى أعلى مرة أخرى. يجب أن تبذل جهدًا لتسلية ضيفها. وقالت:

«ذهبت اليوم لزيارة بوخوف العجوز. كان عنده أحد تلاميذه، فتى يثير الاهتمام، يهوى التشريح ويريد أن يكون طبيبًا... هل أنت متعب يا إفجينى فلاديمير وفيتش؟ يجب ألا تبذل جهدًا أكثر من اللازم بعد المرض... »

لم يقل شيئًا. وفى الغرفة المجاورة دقت ساعة تسع دقات. ونهض فجأة ، وقال بصوت لا لون له، ولايكاد يُسمع:

«فيرا جريجوريفنا، فى المرة الأخيرة التى كنت فيها هنا لم تفهمى ما قلته لك عن الصبار... عندما كنت مريضًا...»

وقاطعته متعجلة:

«لا! لايجوز!»

ساد الصمت مرة أخرى. كانت فيرا قد استدارت، ولم يعد سوكولوفسكى قادرًا على رؤية وجهها. كان يفكر كيف كانت تنظر إليه وهو مريض.

وانتزعت من أعماقها كلمات تكاد تكون بلا صوت:

«إفجينى فلاديميروفيتش. نحن لسنا أطفالا. لماذا نتكلم عن هذا؟»

ودق الجرس. كانت فيرا مطلوبة لأسرة كودريا فتزيف.

ارتدت فيرا معطفها بسرعة، وربطت ملفعة حول رأسها. وأدرك أنهما سيفترقان أيامًا كثيرة قادمة. قال فى تثاقل وهمة فاترة: «إلى اللقاء يا فيرا جريجوريفنا.»

هزت رأسها فى ارتباك:

«لا يا إفجينى فلاديميروفيتش، انتظرنى، سأعود بعد قليل.»

ابتسمت. كان وجهها يبدو صغيرًا وتائهًا. ولو أن لينا كانت موجودة حينذاك لفكرت: «إنها أصغر منى سنًا.» ولكن لينا لم تكن هناك. وفى مدخل الصالة المظلم لم يتمكن سوكولوفسكى من رؤية ابتسامة فيرا أو التعبير المرتسم فى عينيها. ولكن خُيل إليه أنها كانت تنظر إليه كما كانت تنظر إليه فى تلك الليلة حين التقط ناظراه لمحة منها عندما كان مريضًا.

ووقف إلى جوار النافذة ينتظرها فى صبر. وفى الخارج كان هناك اضطراب وفورة. كان الشتاء أخيرًا، يولى الأدبار.

على الرصيف، كان الثلج قد ذاب وتحول إلى جدول ماء ينساب، ولم يبق إلا قليل منه هناك، فى الحديقة الأمامية كان الإفريز مفتوحًا ولكنك لاتستطيع أن تحس الجو. من المؤسف أن النافذة لاتزال «مبرشمة» فلا تستطيع فتحها. ومن خلال الإفريز جاءه جرس أصوات.

وفى الحال، أصبح كل شىء حيًا مجلجلاً.

«شىء مضحك. ستأتى فيرا الآن، وأنا حتى لا أفكر فيما سأقوله لها. لن أقول شيئًا. أو سأقول : «فيرا ، لقد حل ذوبان الثلوج.»

١٧

كان فولوديا هو آخر شخص تتوقع تانشكا أن تراه. لم يقربها منذ شهر يناير. قابلته فى الشارع مرتين صدفة؛ قال لها: إنه فى حالة تعفن وضياع، وإنه قد يفاجئها بالزيارة يومًا ما، وإن كان من الأفضل لكليهما ألا يلتقيا، فكل منهما لايسبب إلا الإزعاج للآخر. وفهمت تانشكا أنه يريد أن يقطع العلاقة بينهما، فبكت قليلا، ثم وافقت على أن ذلك كان تصرفًا سليمًا، فالقطع البات خير من التلكؤ!

وها هو ذا يعود الآن، على غير انتظار. وأحست بالضيق: «أكنت تتوقع أن أذرف الدمع من أجلك؟ لقد قلت إنه يجب قطع العلاقة، وأنا وافقتك تمامًا. من السخف أن نحاول العودة إلى ما لم يعد له وجود.»

وابتسم فولوديا ابتسامة شاحبة:

«لن أحاول إقناعك . كل ما هناك هو أننى فى حالة مزاجية تعسة، والدنيا ربيع. وكنت أمر بباب منزلك ففكرت أنك ربما تكونين

ضجرة ولا مانع لديك من أن تتنزهى معى. يمكن أن نذهب إلى حديقة المدينة.»

وكانت فكرة فولوديا سليمة، فقد كانت تانشكا مبتئسة، لم يكن فى حياتها كثير مما يدعو إلى الابتهاج. بعد أن كفت عن رؤيته، بدأ الممثل جريفتزوف يتودد إليها. ولم تكن هى تميل إليه. فهو عاطل من أى موهبة، والحسد يأكله، وكفّاه تنضحان عرقًا. وقالت له صراحة إنه يجب ألا يعلق آمالا عليها. وفى لياليها الخالية كانت تظل وحيدة، تحيك ثوبا، أو تقرأ قصة لديكنز، أو ترقد على سريرها باكية فوق مخدتها. وعلى المسرح لم تحقق فى الفترة الأخيرة إلا إخفاقًا بعد آخر. كان دورها فى «أوفيليا» كارثة، وعلى الرغم من أن الجمهور صفق لها، فإنها تدرك أن من الصعب تصور أن الدور كان يمكن أن يؤدى بطريقة أسوأ. وفى مسرحية سوفييتية مثلت دور مساعدة معمل تكشف النقاب عن أستاذ شديد التعلق بما هو أجنبى. وكان دورًا فظيعًا، ليست فيه كلمة واحدة تنبض بالحياة. وبعد أن ألقت خطبتها التى سلخت فيها الأستاذ ضحك الجمهور، وتمنت هى أن تبكى. لماذا كتب عليها أن تلعّب وجهها وتصيح بتلك البلاهات؟ سرعان ما يحل الصيف. ستمضى «كاشنزيفا» الإجازة مع أمها فى الريف، وستمضيها «دانيلوفا» فى (يالتا)، فثمة علاقة غرامية بينها وبين أحد الجيولوجيين وفكرت ناتشكا فى الصيف وهى تعيسة: جولة مع الفرقة المسرحية فى يوليو، والإجازة فى أغسطس. ستقدم طلبًا للذهاب إلى (زالينو)، فهذا مكان يتناسب مع إمكانياتها. ولكن، بإمكانها أن ترى كل شىء مقدمًا: يدور الحوار على الغداء حول فوائد شرائح اللحم التى تسوّى على البخار لأولئك

الذين يقضون فترة الاستشفاء، والتقاط نبات عيش الغراب الذى نهشه الدود فى العصر؛ وشخص يسكر على العشاء، ويتشاجر مع الجميع، ولايتوقف عن الجدل؛ ثم لغز الكلمات المتقاطعة فى مجلة (أجوينوك)، وعشرون شخصًا يعذبون أنفسهم فى البحث عن اسم معدن مكون من ستة حروف تبدأ بالحرف ب.

«حسن، لنذهب ... ما رأيك، هل ألبس معطفى أو حرملتى الواقية من المطر.»

«الحرملة، إنها أنسب عليك، كما أن الجو دافئ ألم تخرجى اليوم؟»

«خرجتُ، ولكنى لا أتذكر. لا ألقى بالا لشىء.»

كان الشارع مبهجًا، يلمع بأرصفته المبتلة. وفى الكشك، كانت هناك بعض الباقات الورقية القديمة ، ولكن باقات صغيرة من زهور البنفسج تنديها قطرات الماء، كانت تتألق فيما بينها. ومع ذلك فقد كانت تانشكا تسير كاسفة البال. وأحست كأن فولوديا لم يدعها للنزهة إلا لكى يجرح مشاعرها. «كل ما يريد هو أن يبين أن ما عليه إلا أن يشير لكى أنسى كل شىء . حسن، إنه مخطئ. ربما كان عندى نوع من العاطفة نحوه فيما مضى، ولكن هذا قد انتهى تمامًا.».

وأحست كأنها كريهة:

«أنت غريب تمامًا. هل أحوالك على ما يرام؟ أو، باستخدام لغتك، هل تكسب كسبا طيبًا؟».

«ليس كثيرًا. حالفنى سوء الحظ، رسمت صورة لجورافليوف، قائد الصناعة، وطُرد بعدها. ويقال إنه الآن مسئول عن وحدة تنتج أختام المكاتب. ولن تباع الصورة بعشرة روبلات.»

«هل أنت آسف جدًا؟»

«عمومًا، لا. كان طرده شيئًا حسنًا.»

«على أى حال، ماذا تعمل الآن؟»

«رسمت زخارف لنادى العاملين فى التموين، وآمل أن أكلف بمهمة مشابهة قريبًا.»

«هذا يعنى أنك مازلت فنانًا «استرزاقيًا» كما كنت، وماذا يعمل سابوروف؟».

«يصور لوحات. كنت هناك الليلة قبل البارحة. واضح أنهم جاءوا إليه من الاتحاد واختاروا لوحتين للمعرض. يقول إنهم اختاروا أسوأها، ولكنها علامة طيبة على أى حال. أنا مسرور من أجله.»

«ما أغرب هذا. كنت دائمًا تحاول أن تثبت لى أنه مصاب بالفصام العقلى (الشيزوفرينيا)».

لم يقل فولوديا شيئًا. وأمامهما كان يسير شاب وفتاة يدل منظرهما من الخلف على أنهما حبيبان، وكانا مشتبكين فى مناقشة عاصفة. وابتسم فولوديا:

«أنت وأنا مثل زوجين يحتفلان بعيد زواجهما الخمسين.»

«أنا لا أرى. فأنا شخصيًا ليست عندى ذكريات خاصة.»

«أما أنا فعندى... ولكن هذا لايهم. رسم سابوروف صورة أخرى لزوجته العرجاء، فى زىٍّ قرمزى هذه المرة.»

«ولم تعجبك؟»

«على العكس. لقد أعجبتنى كثيرًا. ولكنها ليست من النوع الذى يمكن أن يختار للمعرض.»

«وما النتيجة التى تستخلصها من ذلك؟».

«لا شىء، على أى حال. أو إن شئت، أستخلص أننى فنان «استرزاقى»، ولكن ليس فى هذا جديد.»

«اعتدت أن تقول: إن كل الناس هكذا. لماذا أنت هادئ النغمة؟»

«لست أدرى.»

«من الغريب أنه لم يصدر عنك رد أوتعليق لاذع واحد. أكاد لا أعرفك.»

«أنا كثيرًا أكاد لا أعرف نفسى. اعتاد والدى أن يقول إننى أسير فى اتجاه خاطئ، وكنت أنا نفسى أظن ذلك. ولكن الأمر ينتهى إلى أنى أسير إلى لاشىء. وعلى أى حال، فليس هذا موضوعًا مسليا للحديث، وخاصة فى يوم جميل... سمعت أنك مثلت دور أوفيليا.».

«نعم، تمثيلاً رديئًا جدًا.»

«كان سافشنكو فى أشد حالات السرور. قال إنك كنت محركة للمشاعر جدًا، وإنه دائمًا كان يتخيل أوفيليا هكذا.»

«لابد أنه من السهل إرضاؤه، لأننى، حقيقة، مثلت تمثيلا شنيعًا. يحدث هذا أحيانًا، فلا أستطيع ببساطة أن أندمج فى الدور... فيما مضى كنت تضحك وتقول إنه ليس فى هذا ما يهم.

هل غيرت رأيك فيما يتعلق بهذا أيضًا؟ هل هناك شىء يسمى الفن، على الرغم من كل شىء؟».

«لم أفكر فى هذا الموضوع. كنت أفكر أساسًا أننى، أنا، لا أعيش فى الفن. هذه حقيقة للأسف. إمَّا لأنه لم يكن عندى ما يساوى «كوبكا» واحدًا من الموهبة، أو لأنه كانت عندى موهبة تساوى خمسة كوبكات وقامرت بها عند أول ناصية شارع. لكن لماذا نتكلم عن هذا؟... انظرى إلى هذين الحبيبين. لقد تشاجرا، جرت منه عبر الشارع، فتتبعها، وها هما عائدان على الجانب الذى نسير عليه.»

«هل تعنى أنه انتصر عليها؟»

«لا، ولكن هذا الجانب مشمس. اعتاد سونيا وسافشنكو أن يتشاجرا طول الوقت، وأن يتصالحا هكذا.»

«هل سيتزوجان؟»

«لا. لقد سافرت إلى (بنزا)، سيتشاجران ويتصالحان بالبريد. أبى يفتقدها جدًا.»

«كيف حاله؟»

«فى اليومين الأخيرين تحسن قليلا، ولكن الأطباء ليس عندهم أمل كبير. أعتقد أنه يواصل الحياة بقوة الإرادة وحدها، إنه يناضل من أجل البقاء يومًا بيوم.»

«والدك إنسان ممتاز، هل تعرف ذلك؟»

«أنا أعرف كل شىء يا تانشكا، حتى الأشياء التى لا أقولها أبدًا.»

كان صوته حزينا إلى درجة جعلت تانشكا تشعر بالخجل. «لايجب أن أثير غيظه طول الوقت. إنه على غير طبيعته. لاحكم ولا استعلاء. لابدَّ أنه يحس بمعنوياته فى منتهى الهبوط، مثلى...».

قالت: «لا تفقد الأمل يافولوديا. أنا نفسى كثيرًا ما أفقد الأمل. ولكنى، حينئذ، أفكر فجأة أن كل شىء يمكن أن يتغير. لاتضحك. أنا واثقة فعلا أن هذا يمكن أن يحدث. هل تؤمن بالمعجزات؟».

«ماذا تعنين بالمعجزة؟».

«حسن، تشعر مثلا بأنك فى حالة فظيعة، ثم إذا بك فجأة على ما يرام، وكل شىء يتغير: أعنى أن كل شىء يظل كما هو، المدينة والناس والأشياء، وكل شىء يختلف. أنت فاهم؟».

«أى شىء يمكن أن يغير مزاج الإنسان. أى كلام فارغ. رأيت سوكولوفسكى بالأمس، حدثتك عنه كثيرًا. أشد من قابلتهم كآبة فى حياتى. حسن، ذهبت إليه بالأمس فإذا به يضحك، وينكت، ويتكلم. حتى لقد سألته، ماذا حدث له، فقال: «لاشىء، إنه الربيع، لابدَّ أنه قارب الستين. كم ربيعًا رأى؟ فإن كان هذا ما تسمينه معجزة، فأنا أومن بالمعجزات.»

«لا، أنا لا أتحدث عن الطقس. ويمكن أن يكون الموضوع أكثر عمقًا من ذلك، كأن تقابل شخصًا، وتحس أنك وقعت فى حبه حقيقة، أو أن تبدأ عملا، وتتبيَّن أنه استوعبك. مثل سابوروف. ألم

تقل أنت نفسك إنه سعيد؟ ربما أنجز سوكولوفسكى شيئًا سرَّه فى عمله، كثيرًا ما قلت إنه يكرس حياته لعمله.»

«إنه قادر على تكريس حياته لكشف فلكى لوجود الحياة على كوكب الزهرة، هذا هو كل مطلبه من الحياة. انظرى يا تانشكا، إن حبيبينا ذاهبان إلى الحديقة أيضًا.»

«شىء طبيعى. فالحديقة دائمًا مليئة بالعشاق. سيجلسان ويقبل كل منهما الآخر. أما نحن، فماذا سنعمل؟ نعول أو نتفوه باللعنات؟»

«لا هذا ولاذاك. سنتمنى لهما السعادة. من المؤسف أننا لانستطيع رؤية وجهيهما ، ولكن لنفترض أنهما فاتنان جدًا، جدًا.»

الحديقة العامة فى الصيف حارة، وبها موسيقى ، والأشجار تتنفس بصعوبة وسط الغبار والدخان، والناس جالسون على جميع المقاعد يتحدثون فى أمور دنياهم. ولكنها فى هذا الوقت من العام تكاد تكون خالية، إلا من العشاق والشواذ. فالماء والوحل كثير على من هو ليس كذلك. فلا تزال قطع الثلج المنداة ملقاة هنا وهناك. والبرك تتألق فى الظلال بثلجها، ولكنك تستطيع أن ترى العشب الأخضر الفاتح ينبت فى ضوء الشمس . وعلى البعد مساحة واسعة لا تزال كل أرضها سوداء، إلا ركنًا صغيرًا بدأ يلوَّن بالأخضر الباهت . وشجرة الصفصاف ذات الأهداب العجوز عليها براعم كبيرة فضية. والطيور تصيح وتزقزق وتنقب. من أجل الغذاء والمسكن فى الأغلب، ولكن يبدو أنها قد بدأت حوارًا بالغ الأهمية.

«انظرى يا تانشكا . ها هى مجموعة كاملة من معجزاتك.»

«لست أدرى عمَّ تتحدث.»

«لقد انتهى الشتاء، وهذه معجزة أولى. أرجو ألا تعارضينى، أرى أنك تشعرين بالدفء حتى وأنت بحرملتك، وقد كنت تريدين أن تلبسى معطفًا. وشجرة الصفصاف ذات الأهداب تزهر، وهذه معجزة ثانية. والعشب ينبت، وتلك ثالثة. وهذه أهم المعجزات جميعًا، انظرى! يا للمخلوقة الصغيرة... ناصعة البياض... لقد كسرت القشرة الثلجية.»

التقط فولوديا «زهرة الثلج». ووضعتها تانشكا بحذر فى يدها وضحكت:

«هذا صحيح. إنها زهرة الثلج.»

الآن، جلس الحبيبان اللذان كانا يتقدمانهما طول الوقت. وابتسم فولوديا: «فكرة لطيفة أنه فرش معطف المطر، فالمقعد مبتل جدًا. هل ترين؟ لقد كنت على صواب، إنهما جميلان جدًا. لابدَّ أنه طالب فى السنة الأولى من تعليمه العالى، ويحتمل أنها لاتزال تلميذة فى المدرسة. إن امتحانات نهاية العام فى المدارس تقترب، ولكنها فى هذه اللحظة لاتفكر فى ذلك. ربما هى فى هذه اللحظة تؤدى امتحانًا من نوع آخر، لعله أصعب الامتحانات جميعًا، ما أعظم حبى لسعادتهما الكبيرة.»

«كان لطيفًا منك أن انتزعتنى من المنزل يا فولوديا. كانت غرفتى شديدة الظلمة والكآبة. كنت أجلس، أعول بينى وبين نفسى... أما هنا فكل شىء جميل.»

«رائع! لم أشعر بالسعادة لرؤية الربيع أبدًا كما أشعر الآن. أنت تعرفين، عندما كنت صبيًا كنت مولعًا بتحطيم الثلج على سطح البرك، ومرة سقطت فى إحداها حتى الركبتين، وتسبب هذا فى مشاجرة فى المنزل. إنها مهمة مبهجة. وأنا الآن أقترح عملا من أعمال الشغب. إن فلاديمير بوخوف، ٣٤ سنة، عضو اتحاد الفنانين الذى قرظته المأسوف عليها مجلة الفن السوفييتى، سيتصرف الآن تصرف تلميذ صغير فى مكان عام».

وجرى فولوديا إلى البركة الكبيرة المغطاة بالثلج المتألق، وراح يضرب الطبقة الثلجية الصلبة بقدميه. وتزايدت ضرباته قوة مع تزايد انفعاله. وجلست تانشكا ترقبه وتضحك. وفى أعلى السماء الربيعية، كانت الشمس ترسل الدفء إلى تانشكا وفولوديا، وإلى الحبيبين الجالسين على مقعد الحديقة المبتل، وإلى الأرض الفسيحة السوداء، وإلى كل العالم الذى كان مقرورًا من برد الشتاء.

١٨

سارت لينا فى الشارع، لاترى العصافير الدورية وهى تستحم فى برك الماء الصغيرة، ولاتنظر إلى رقع السماء الزرقاء، ولاتلحظ البشْر الجديد فى وجوه الناس. كانت، هى نفسها، فى دهشة من أمرها وفكرت: «انظرى إلى فيرا، لقد تبدَّل شكلها. وأنا كحيوان الخلد لا أستطيع أن أصحو. لابد أننى قد تحولت إلى حجر.»

إن كل شكوكها السابقة، وكبريائها، ومشاعرها الجريحة ، تبدو كلها وكأنها خالية من المعنى. إن ما حدث لها هو ما كانت تقرأ عنه فى الكتب. لقد انتهى أمرها إلى أنها أحبت ديمترى حبًا ملك عليها حياتها كلها، بينما هو لايحبها. ولاشىء يمكن عمله فى مثل هذه الحال.

إن الشمس والضحك والضوضاء التى طغت على صمت الشتاء، أشعرتها كلها بالخوف. وواصلت سيرها منطوية فى أحزانها.

«وماذا حدث عندئذ؟» سألت نفسها هذا السؤال فيما بعد، ولم تستطع أن تجد إجابة. فلقد تبدَّل كل شىء وحسم بكلمة واحدة، كلمة كانت تسمعها طيلة حياتها.

كان ذلك عند منعطف شارع السوفييت، بالقرب من محطة الأوتوبيس. حدث أن رآها كوروتييف فنادى بأعلى صوته:

«لينا!».

كانت هذه أول مرة يناديها باسمها البسيط غير مقترن بلقبها، وهذا هو ما حسم كل شىء.

ولو أنك قلت له منذ لحظة أنه سينادى بأعلى صوته وسيجرى عبر الشارع لما صدقك كان إنسانًا يعرف كيف يسيطر على نفسه، وحياته كلها شاهد على ذلك. ولم تكن فكرة الالتقاء مع لينا قد خطرت له على بال. وعندما ألقى نظرة شاردة على المنعطف كان يقول لنفسه: «فى الربيع الماضى تعرفت عليها ، مضى على ذلك عام. وأنا الآن أعرف أنه لا جدوى من حساب الشهور والسنين، فمهما حدث، لن أستطيع أن أنساها. لقد أصبحت الحياة خاوية مرهقة. ومع ذلك فأى سعادة فى أن لينا وجدت! لقد أعادت صنعى من جديد، لقد غيرتنى تمامًا. وأنا الآن أعجب حين أفكر كيف أنى طلعت على اجتماع القرّاء فى الشتاء الماضى بتلك الآراء الغريبة! لقد ثبت أن كل شىء أشد تعقيدًا بمراحل. ولكنى لن أرى لينا أبدًا مرة أخرى...»

وهما الآن يسيران جنبًا إلى جنب مسرعين مرتبكين يتكلمان بلا تفكير:

«كنت أسير، وفجأة رأيتك عند محطة الأوتوبيس.»

«شىء غريب. عرفت صوتك على الفور، لا أعرف كيف تصادف أن خرجت، أنا أظل فى البيت طول اليوم»

«هل أنت فى عجلة؟»

«لا، وأنت؟»

«أنا؟»

ورفع كوروتييف حاجبيه، وحدق فيها بنظرة تنم عن الدهشة: نعم، كانت هى لينا حقًا.

وكانت امرأة تقف على إفريز نافذة تغسل زجاجها، وهو يشع عاكسًا الضوء الأزرق. وصبى صغير يأكل «الجيلاتى». وفتاة تحمل حزمة من فروع الصفصاف ذى الأهداب. ومرًّا بشجرة تذكرتها لينا، كانت قد رأتها وهى تغرس فى إحدى أمسيات الخريف، والناس يتجمعون ليشهدوا غرسها. كانت عارية. ولكنها لو أمعنت النظر للحظت غطاء صغيرًا من الزغب الأخضر، «ما هو تاريخ اليوم؟ لا أستطيع أن أتذكر أى شىء . لا أفهم ماذا حدث؟ إلى أين نحن ذاهبان؟»

وسألت نفسها بصوت عال: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

وصلا إلى منزل بُنى ذى أربعة طوابق وبرج. كان هذا هو المنزل الذى يسكن فيه كوروتييف، فدخلاه مسرعين. كانت الردهة باردة، فالشتاء لم يغادرها بعد. ما أشد الظلام! لا يكاد الإنسان يرى

السلم. لم تشعر لينا، وما شعر كوروتييف أيضًا بالبرد. رفعت لينا رأسها فلمعت عيناها فى الضوء الخافت. وقبلها كوروتييف. ومن الشارع جاء أصوات أطفال وضجيج المرور وجلبة يوم من أيام الربيع.

التصحيح اللغوى : معتز الزينى
الإشراف الفنى : حسن كامل



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب